تصحيح مفاهيم

اننا فى هذه المرحلة من تطورنا الثقافى والاجتماعى فى حاجة الى أن نفكر فى ذاتنا وفى الاخرين تفكيرا صحيحا ، وأن نستعد وسط هذا الخضم من الشعارات المختلفة ، بعض المسافة ... بعض الابتعاد لكى نتخلص من طغيانها الاسر ، ولكى نعبر دون خوف من العواقب التكتيكية عن رؤية للمعركة ذاتها فى شموليتها .

ينبغى أن نتسلح بالموضوعية الصارمة لكشف المظاهر السلبية فى تفكيرنا وموقفنا ، دون أن تسيطر علينا المخططات المبسطة للمعركة الحضارية الشاملة التى نقوم بها ودون أن نخشى اللعنة من أى كان .

منذ صدمتنا الاولى .. صدمة اللقاء بحضارة الغرب وثقافته ، ونحن نتساءل عن سبب تأخرنا وتخلفنا . كان هناك سؤال واحد ، ولكن الاجابات كانت متعددة .

وأيا كان مضمون هذه الاجابات ، فالثابت فى رأيى ، أنها ما تزال حتى اليوم تلون الواقع الاديولوجى والثقافى العربى عامة ، وتفسر الكثير من الصراعات الفكرية التى تدور رحاها اليوم فى البلاد العربية ، وتلون حتى الابنية الاجتماعية نفسها ، وتلعب دورا لا يستهان به أحيانا فى اعاقة تطورها .

ولعل أحد هذه المفاهيم التى تمثل أحد الاجوبة عن السؤال التقليدى : من « نحن » ومن هو : « الآخر » يأتى هذا المفهوم الذى يدعو الى « الاكتفاء الذاتى » فى ميدان الثقافة أو ما يمكن أن نعبر عنه بالعزلة الثقافية أو « الريفية الفكرية » — ان صح التعبير — : فهناك رضا عام بالنفس ، وبالعادات والسلوك .. رضا يتراوح بين مجرد القناعة البريئة بما نملكه من هذه العادات وأنماط السلوك والتفكير ، وبين الزهد

عثمان شبوب

الفكرى والنفسى الذى تأصل فينا عبر قرون من الفقر الثقافى والعزلة الثقافية عن ثقافات الامم الاخرى .

ورغم الآفاق التى فتحت لنقلنا الى الحياة المعاصرة : من حركات ترجمة وتاليف وتعليم ، فلم تهب علينا ريح من رياح الثقافة المعاصرة الغنية ، ولم يزل فكرنا باستثناءات قليلة هنا وهناك يجتر زاده القديم دون أن يتمثل أثمن ما فيه ليمده بحياة جديدة . لماذا ؟ ، لاننا فى استجاباتنا للثقافة والحضارة الانسانية المعاصرة ، لم نستقبلها بفكر مفتوح ، وانما استقبلناها بعقل رافض ، وبقلب متوجس ! .

كان البعض منا — انطلاقا من هذه الحالة الفكرية والنفسية — يجزء الحضارة الانسانية المعاصرة الى علم وتكنولوجيا من جهة ، وقيم انسانية واجتماعية واخلاقية من جهة أخرى .

ويقول أن تقدم « الآخرين » تكنولوجى فحسب ، واننا نستطيع أن نتفوق عليه فى ميدان الثقافة بل واننا فى وضع أكمل يمكننا من أن ننقذه من شرور مدنيته وينسى أن النهضة التكنولوجية ترتبط بنهضة ثقافية متنوعة متخصصة وعميقة وأن لكل حضارة ثقافة معينة تتبادل وأياها التأثير فى جميع المجالات .

فهو يريد التكنولوجيا المعاصرة دون قيمها ، ولكن هل يمكن استعارة « تكنيك » ما ، دون ايجاد أول الامر « قيمه » تتصل بهذا التكنيك أو فى الاقل ، تنمية هذه القيمة فيما بعد ، لكى تتحقق فوائد التكنيك بطريقة موثوق بها فاذا أردنا التصنيع علينا أن نقبل بنتائجه التى منها : قيم جديدة .

صحيح أن للحضارة الصناعية مساوئى متعددة ولكن للحضارة الزراعية أيضا مساوئها العديدة ، والموقف السليم يتطلب انتخاب القيم الايجابية فى كلتا الحضارتين مما يفيد تماسك المجتمع ويرضى تطلعاته فى نفس الوقت لاحتلال مكانته فى المجتمع المعاصر .

وهذه النظرة القاصرة للثقافة ، تكمن وراء ذلك الانفصام الذى نلاحظه بين الفكر والسلوك سواء بالنسبة للمثقفين

أو العمال فى المصانع ، أو الفلاحين فى الارياف والمزارع .

فالمثقفون عندنا يدرسون علم الاجتماع بمختلف نظرياته ومدارسه ، والتاريخ والفلسفة والقانون ومختلف العلوم الاخرى دون أن تختلج فى اكثريتهم خلجة من يقظة الشعور ، أو تنقدح فى عقولهم شرارة تغير شيئا من نظرتهم للحياة ، فهم ينطوون على طاقتين : طاقة يختزنون فيها العلوم والمعارف المختلفة ، وطاقة يختزنون فيها قيم الحياة واخلاقياتها المتوارثة عن الاباء والاجداد دون تجديد .

والفلاح عندنا ، رغم أن الاجراءات المختلفة التى اتخذتها السلطة قد زعزعت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وبذرت بذور التطلع فى نفوس كثير من الفلاحين . ولكن الثورة رغم هذا ، لم تمس معتقدات الفلاح الاساسية ، أو تكوينه النفسى أو عاداته الشخصية والاجتماعية ، فهو باستثناء التطلع الاقتصادى الجديد يحتفظ بأكثر مقومات ثقافته ، ولا يزال يعيش بفكر ثابت وباخلاقيات ثابتة فى عالم متغير العلاقات .

وأما المظهر الآخر لهذا المفهوم الساذج المكتفى بنفسه المعجب بذاته ، فيتجلى فى حكمنا على الآخر — لاننا فى اطار هذه النظرة نحصر كل مشاكلنا الثقافية والفكرية فى المجابهة بين « النحن » و « الآخر » لا فى التفاعل المنفتح الذى تمليه طبيعة الحياة — انه يرى بأن الحضارة الانسانية المعاصرة ، التى يسميها غربية ، هى الآن سائرة الى الانهيار لتحل حضارات أخر محلها . وبقطع النظر عن صحة هذا القول أو عدم صحته ، فهو فى رأيى عزاء واهم وخاصة اذا صدر عن أناس لم يبذلوا أى جهد حقيقى لتصحيح أوضاعهم ونظرتهم اليها ، ولن يكون له ما يبرره الا عند الشعوب التى أثبتت بالفعل قدرتها على الكفاح فى ميادين التنظيم الاجتماعى كما فى ميادين التقدم العلمى والتكنولوجى والثقافى .

وهناك مظهر آخر لهذا التفكير يتمثل فى الالحاح المفرط على الفوارق النوعية بين الثقافات وتجاهل الطابع العالمى والانسانى للثقافة . فنحن عندما نؤكد على هذه الفوارق ، فاننا سننتهى الى نتيجة ، وهى استبعاد امكانية المقارنة، وتترتب على هذا نتيجة أخرى واضحة وهى أننا نقول لانفسنا : ليست ثقافتنا بأقل من غيرها ، وانما هى من نوع مغاير فحسب . وليس الغرب أكثر

تقدما منا ، بل ان له ثقافة مختلفة فحسب .

صحيح أن أحدا لا يستطيع أن ينكر اصطباغ الثقافات بلون محلى مستمد من الظروف الخاصة للمجتمع الذى تظهر فيه ، ولكن هذه النواتج الثقافية المحلية ذاتها تنطوى فى كل الاحوال ، على جانب انسانى واضح .

وهكذا فان النزعة الكونية التجريدية قد وقعت فى خطا ، لانها أهملت العوالم الثقافية الخاصة وقوة تكيفها باوضاعها الخاصة ، ولكن النزعة التعددية التى تقف نقيضة لها ، ليست أقل خطا منها لانها وضعت الثقافات الانسانية فى خاصيات نوعية منغلقة .

ان الخصائص المميزة لكل ثقافة من الثقافات موجودة ، لكنها ليست أبدية لا فى الماضى ولا فى المستقبل ، وهى لا تخرج عن قوانين العالم الاجتماعى ، انها تنتسب حسب التعبير الارسطى الى عالم الكون والفساد ، وليس الى عالم الافلاك السماوية فيما وراء القمر.

ان تصحيح هذه المفاهيم يمثل جزءا من الثورة الثقافية التى نردد شعارها فى كل مناسبة ، ومسؤولية المثقفين فيها ذات أهمية خاصة . فهم لهم دورهم فى تفجير الفكر الخلاق وفى رفع الوعى الى مستوى الواقع الاجتماعى وتجاوزه لان فى ذلك فهما للذات ، واجابة عن مشاكل المجتمع ، وانبعاثا للانسان الجديد ، المنفصل عن انسان عصر الانحطاط والجمود .

واذا قيل بأن كل هذا أو غيره لا يمكن تحقيقه الا فى مناخ من الحرية الفكرية وهذا غير متوفر فى أغلب اقطارنا العربية ، أقول : ان أوضاعنا ستكون دائما غير ملائمة لانها لو كانت ملائمة لما احتجنا الى ثورة على مثل هذه الاوضاع .

ونحن فى هذه المجلة نفهم ديننا الاسلامى فهمه الاصيل الفهم الذى يقوم على مبدأ تغيير الوضع الفاسد ، بالاعتماد على تغيير المعتقد الفاسد وما نسميه بتصحيح المفاهيم انما يبدأ **من تغيير واقع المعتقدات الفاسدة او المتحجرة او المنحرفة ، وكلها معتقدات جاء الاسلام ليقومها او يصححها او يستبدل بها غيرها حتى تتلاءم مع رسالة التطور الدائم.**

ان من بين مفاهيمنا الخاطئة التى يجب ان نصححها دينيا ، هو المقياس نفسه الذى نستعمله فى الصاق هذا الموضوع او ذلك بالدين ، او فصله عنه . وديننا الاسلامى ــ دين الثورة والقوة والتفتح على قيم الانسان الخالدة ــ يتوجه بثوريته وقوته وتفتحه الى المعتقدات المنحطة كلها فيقتلعها او يبعث فيها الحياة . اما ما لا يقبل الحياة فانه لا مكان له فى الاسلام .

طوفان الاستلابات

عبد المجيد مزيان

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر



جمال الدين الافغاني



ماو تسي تونغ

اختار الاستاذ عبد المجيد مزيان هذا الاسلوب : أسلوب الحوار لعرض أفكاره عن مشاكل عويصة تتعلق بحياتنا الاجتماعية المتشعبة ورأى أن هذا النوع سيكون أوسع تبليغا وأكثر اثارة لانتباه القراء .

((الاصالة))

كانوا شرذمة من المثقفين ، قد تقدمبهم السن ، وعلمتهم تجارب الحياة ما لم تمكنهم به الثقافات المختلفة التى احتكوابها ، فاتفقوا بعد تردد طويل على أن ينعزلوا جماعة لتصحيح معارفهم علهم يفيدون بها اهل ملتهم وصادف أن وجد فى قريتهم الصغيرة رباط مهجور ، كان قد انشىء فى القديم للخلوة والاعتكاف والتدريس ، فسمح لهم باستعماله لباحثاتهم . ورأى بعض من يثق بهم من طلبتهم القدماء ان يشاركوهم تجربة الحياة الثقافية الجماعية ، لانهم كانوا يؤمنون مثلهم بتفوق الحكمة المشتركة على الحكمة الفردية .



ابن خلدون

وكانت طريقة عملهم ان يقضوا يومهم فى المطالعة والتفكير فى انعزال وصمت ، ثم ينتشرون بعد صلاة العصر فى البساتين والغابات المجاورة لرباطهم ، لينغمسوا فى مصب الطبيعة فيرشفوا من منهل جمالها ، وفيض كينونتها مشربا منشطا ، يمحو عنهم زغل العناء ، ويجدد فيهم طاقة الحيوية والانتاج ، ويبعث السرور العميق المتزن فى نفوسهم . ثم يلتقون بعد صلاة المغرب للحديث الحر الهادىء . وكان من بينهم من ينقل تلك الاحاديث بعد تصحيحها من لدن جميع الحاضرين .

وكان من بين المرابطين فى بداية امرهم فيلسوف ، ومصلح دينى ، وعالم اجتماع ومؤرخ وعدد قليل من الطلبة . ويظهر ان كل فرد من الجماعة قد تاثر بثقافة رفاقه حتى ان اساليبهم فى التفكير والتعبير قد انسجمت الى درجة الاتحاد .

الفيلسوف : ما دمنا فى رباطنا هذا بعيدين عن ضوضاء الحضارة المزيفة وحمى التنافس ، نود أن نتحدث اليوم عن تجاربنا المختلفة فى الاستلابات التى عاشها كل واحد منا ، زمن جاهليته ، لنستخلص منها العبر الفكرية للشباب الذين ربطوا أنفسهم معنا طلبا للثقافة اللامنفعية .

طالب : تتكلمون عن الاستلاب كانه تجربة محتومة لابد ان يعيشها المرء ، وتذكرون الثقافة اللامنفعية كهدف لباحثاتنا . انه كلام يستحق التوضيح .

الفيلسوف : اما الاستلابات فلا يخلو منها اى مجتمع فى العالم . وبحكم حياتك مع الاخرين فانت خاضع لانواع لا تحصى من الاستلابات . وليس فى طاقة اى ضمير بشرى مهما بلغ تفوقه الفكرى ومهما بلغت قوة انتباهه ان يتخلص من هجومات الاستلابات العارمة .

المصلح الدينى : فى ديننا الاسلامى أن هذا الذى نسميه استلابا بالمصطلح المعاصر وهو انواع الضلالات على وجه التقريب ، انما يأتى من النفس كما يأتى من المجتمع . والمسلم فى مجاهدات مستمرة ليرفع عنه هذه الضغوط . ان العبادة من بعض جوانبها تنبيه شعورنا لهذا الخطر الطاغى الذى يهاجمنا من محيطنا الاجتماعى كما يهاجمنا من أعماق أنفسنا. فليست الاحقاد

والغرائز العدوانية مثـلا الا مركـزات نفسانية تلخص حقـولا واسعـة مـن الاستلابات الاجتماعية . كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول فى بعض دعواتـه « اللهم لا تكلنى الى نفسى ولو طرفـة عـين » .

الفيلسوف : اما الثقافة اللامنفعية فهى مثل هذه الاحاديث التى تجرى بيننا ، بطريقة حرة لا نتفاضل فيها ، ولا يستعلى احدنا على الآخر ، ولا يخرج بعضنا مجازا والاخر عاطلا ، ولا نلتمس بها كسبا أوجاها . ولا عناد فيها ولا تحيز . ولكننا نفاتح فيها اخواننا مودة فى القربى والانسانية ، ونتفتح لآرائهم علنا نعرف من الحقيقة نبذا.

عالم الاجتماع : الاستلاب الاكبر ، فى نظرى يتلخص فى بناءاتنا الاجتماعية ذاتها . فالبناء الاجتماعى عملية انسانية لابد منها ولكن الانسان يخلق مجتمعه ثم تنفلت من يده القدرات على مراقبة مصنوعه . بل ربما بهره هذا البناء الذى رفعه بيده فخضع له وجعله معبوده الاسمى . وهذا طبعا من الوثنيات .

المصلح الدينى : الوثنيات انواع وفنون . ومن اخطرها على النفس ما نسميه الشرك الخفى « الذى يدب كدبيب النمل » وهو بلسان عصرنا هذا التعلق بالمقدسات المصطنعة ، والخضوع اللاشعورى لمعبودات بينة أو غير بينة تستعبد النفوس استعبادا لا رحمة فيه .

طالب : لقد بثت فينا ، قبل دخولنا الرباط ، قيم مختلفة كنا كشباب نعتقد انها من المقدسات ، فلكل جانب من حياتنا الثقافية تصورات تقديسية . فللقيم العلمية قداستها ، وللقيم السياسية قداستها .

ولا ندرى الآن مماذا يجب أن نتحرر ، ولماذا نتحرر وكيف نتحرر ، لاننا ننوى مغادرة الرباط . بعد اجل. وهدفنا العاجل هو الرجوع الى المجتمع . لقد كان شيوخنا يؤكدون بمحضرنا ان المعرفة للمعرفة تخريف ، وان المعرفة من اجل العمل هى المعرفة الحقة ، بل لا تصحيح للمعرفة الا بالعمل .



ديكارت

المصلح الدينى : ان التعلق العبودى بصور ثقافية أو سياسية أو اقتصادية بعد من الضلالات التى تعوق الانسان فى طريق استكمال انسانيته . ويجب أن يتحرر منها المرء ليسترجع تفكيره السليم الذى فقده فى هرج الحضارة المزيفة . وبعد هذا التحرير وبعد استرجاع الذوق السليم تكون قد توفرت فى المثقف شروط الفطرة ليصبح عالما عاملا .

طالب : كنا نعتقد أن الفطرة بمثابة الصفحة البيضاء أو بمثابة الخلاء الثقافى الضامن لحسن الانطلاق ، وهى موجودة طبيعيا عند كل انسان .

المصلح الدينى : لا يمكن استرجاع الفطرة الا بعد مجاهدات جبارة ، لان فطرة ذلكم الانسان الذى مرعن طريق ملىء بالضلالات ثم تخلص من ضلالاته ، انما هى فطرة

ملاء لا فطرة خلاء ثقافى . وشتان ما بين فطرة الرضيع وفطرة استرجاع الصفاء بالوعى والجهاد . فالفطرة الصبيانية والفطرة البدائية محكوم عليهما حتما بالزوال ، لان المجتمع يغزوهما غزوا لا هوادة فيه ، بينما فطرة الوعى تعد قمة الاستكمال الثقافى وفطرة الانتصار على كل ضلال .

الفيلسوف : بدانا منهجيا من حيث يجب البدء : لا يمكن أن نتخيل الاستلاب على حقيقته الا اذا تخيلنا هذا الصفاء المثالى الذى تتحدثون فيه . ان التخلص من الاستلابات اما أن يكون هدفا مثاليا يقذف به الى المستقبل فى بناء اجتماعى نتصوره تصورا عقليا ، واما أن يكون نتيجة مجهودات شخصية فى حالات استثنائية يتوصل فيها الانسان الى وعى نفسه ووعى الانحرافات التى يتعرض لها .

عالم الاجتماع : البناء الاجتماعى حينما يبنى ، انما يتقلد من لدن بناته بمهام ووظائف معينة محدودة . ولكن الانحرافات تظهر حالا بعد اتمام البناء ، فتتشعب الوظائف ، ويقع الزيغ عن الطريق المرسوم ، بكيفية ابعد فأبعد ، حتى يظهر التناقض المفرط بين البنيان وهدفه . وفى هذه الحال من التأزم يفكر المضغوط عليهم فى استدراك الغلط ، اى فى الثورة ، لانها السبيل الوحيد للرجوع الى نقطة الانطلاق . فكل ثورة حقيقية انما هى رفع الاستلابات عن الناس بالرجوع الى « الفطرة » ، اى التفكير السليم مع السلوك السليم ولكن رفع الاستلابات لا يمكن أن يحصل الا بتحطيم مصادرها التى هى البناءات الاجتماعية اللاسوية بكل وظائفها الانحرافية المفسدة لانسانية كل انسان .

طالب : نريد أمثلة حية عن هذا

المصلح الدينى : حينما نقول « ان الاسلام دين الفطرة » ، فليس معنى هذا انه الدين الصالح للسذج وضعاف العقول ، او البدائيين . ولكنه ثورة اصلاحية بعد وعى، لاسترجاع التوحيد المفقود الذى دنسته الانحرافات عبر العصور. فالثورة هنا انما هى رجوع الى التوحيد الصافى الذى يتمثل فى الحنفية الصامدة الحرة .

الفيلسوف : الثورة الفلسفية الديكارتية هى الاخرى عودة الى الوضوح الفكرى والمنهجى بعد البلبلة التى كان قد خلقها الفلاسفة المسرفون فى التصورات الفارغة.

عالم الاجتماع : كانت الاجهزةالاجتماعية المستوردة فى الصين الوطنية تدعى انها تمثل رغبة الامة فى تحطيم الاجهزة العتيقة المتعفنة ، ولكن سرعان ما ظهر للعيان أن هناك انحرافا لابد من استدراكه ، اذ أن استيراد أجهزة وتلفيقها مع اجهزة أخرى على شعب لم يرد بعد الى فطرته ، انما هى عملية عشوائية ومحض تضليل . فجاءت الثورة الحقة معلنة رفع الاستلابات بتحطيم البناءات المستوردة مع بقايا البناءات العتيقة ، وكانت بهذا مصممة على خلق فطرتين : فطرة تحطيم وتصفية ، للبدء من الاساس . وفطرة العقل البكر المطهر الذى يبنى مشاريعه المثالية والواقعية فى نفس الان ، فيجعلها اهدافا فى نهاية الطريق ترمى الىالتحرير الكامل للانسان.

طالب : هل يمكن ان يخلو البناء الاجتماعى من الانحرافات والاستلابات بدعوى انه ثورى وانه عودة الى الاصل الانسانى الاصيل من أجل الانطلاق الصحيح ؟

الفيلسوف : يثبت الواقع أن الانطلاق الجديد له هو الآخر استلاباته وانحرافاته . فزمن الثورات زمن انتباه فائق ووعي فوق المعتاد ، ثم تأتي فورا من بعده فترة الغفلة ، التي تبدأ فيها التساهلات ، وتتغير الاهداف بكيفية غير محسوسة . انظروا الى الاجهزة البروقراطية والتقنية المعذبة للشعوب الاشتراكية ، مع ان الشعوب هي التي خلقتها كوسيلة لخدمتها وتحريرها كذلكم كانت جيوش القرون الغابرة تدعي في البداية انها حامية الامم فأصبحت بعد قليل جحيما على كل الامم .

طالب : انتم فيما تنكرون ، تجعلون المصادر الاولى والاخيرة للاستلاب في البناءات الاجتماعية وحدها . او ليس هناك منطلق لبعض الاستلابات يأتينا من طبيعتنا الانسانية ، من غرائزنا البيولوجية مثلا ، ومن الطبيعة العامة الضنينة بأرزاقها .

الفيلسوف : فكرة الاستلاب منطوية على مواقف معيارية خلقية ، ذات ابعاد اصلاحية ، وهي فكرة توجه النقد والتهم وتحدد المسؤوليات . ويظهر لي انه لا يمكن اتهام الطبيعة بأي غلط لانها كما هي لا ينطبق عليها اي معيار . فمعياريتها قوانينها ، وهي هي لا تبديل فيها . والكائن العاقل الذي يعيش فيها مكلف طبيعيا باكتشاف هذه القوانين وتسخيرها الا اذا انحرف واخمد جذوة عقله . فاما ان اكون الكائن صاحب الحاجيات البيولوجية الفزيولوجية المتحتم عليه السعي لسد هذه الحاجيات فأمر طبيعي لا احاسب عليه احدا ، والا ساكون بمثابة الكائن الحي الذي يتمنى ان ترجع به الطلقة الحيوية الى الوراء فيعود الى الحياة النباتية حتى لا يتحرك ولا يقلد مسؤولية نفسه . فتألم الوجوديين من الوجود في حد ذاته غير معقول لانه ثورة على هذا الناموس الحيوي الذي يعطي الكائنات الاكثر تطورا مسؤولية اكبر على كينونتها . وليست الحياة عبثا في حد ذاتها كما يدعون ، ولكنها تثير « الغثيان » حقا اذا جاء طور التوغل في ادغال الاستلابات.

علينا بالامثلة :

فأنت ايها الطالب ، بماذا تسد حاجياتك الحيوية وانت في هذا الرباط ؟

الطالب : كل زادي بينكم تمر رخيص ، وتين مجفف وزيت زيتون وسويق .

الفيلسوف : كم قضيت من الايام في العمل لاكتساب هذه الاقوات ؟

الطالب : خمسة ايام

الفيلسوف : وعلى فرض انك تأكل وحدك من زادك فمتى سيفرغ هذا الزاد ؟

الطالب : بعد خمسين يوما

الفيلسوف : لقد وفرت اذا معاش خمسة واربعين يوما ، اذا حييت حياة زهد وتقشف رباطي . وعلى فرض انك توفر لحاجيات عيالك ، ثم للحاجيات الحضارية الحقيقية كاقتناء الكتب والآلات الضرورية لتسهيل الحياة لا لتعقيدها ، فانك ستوفر مقابل كل يوم من العمل ، على الاقل يوما من التفرغ والتفكير ومراجعة نفسك .

الطالب : لم اجرب هذا ، ولكنه تقدير مقبول نظريا

عالم الاجتماع : وعلى فرض انك توجد في مجتمع مثالي يسمح لك بالعمل المعاشي يوما والحياة يوما آخر في الرباط ، او شهرا بشهر او نصف سنة بنصف سنة ، تتردد بين المعمل والرباط او انواع الرباطات العلمية التي ينشئها هذا المجتمع المثالي

فهل ستشكوا من الاستلابات الطاغية بقدر ما تشتكى منها اليوم ، اعنى فى مجتمعك الحاضر ؟

الطالب : طبعا ، سترفع عنى جل الاستلابات وسوف لا تبقى كابوسا مستمر الضغوط كما هو شأنها اليوم .

عالم الاجتماع : وعلى فرض ان هذا المجتمع مبنى على اساس المساواة المطلقة بين الناس ، وانهم رغم تخصصهم المهنى يعملون كلهم يوما للكسب ويوما للثقافة والفكر ، فهل سيكون هناك تفاوت كبير بين المتعايشين فى هذا المجتمع سواء فى الميدان الاقتصادى او فى الميدان الثقافى ؟

وعلى فرض وجود هذا المجتمع المثالى فهل ستبقى هناك حمى عدوانية وتنافس على المناصب ، وتخصص عازل يجعل البعض مشتغلا بالسياسة منعزلا ، والبعض الاخر مشتغلا بالثقافة منعزلا ؟ وهل سيبقى هذا التشتيت والتنافر المهدد لكياننا الانسانى ؟

الطالب : طبعا ، فى هذا المجتمع الخيالى لا وجود لكل هذه الضغوط الجارية علينا اليوم والمالئة قلوبنا بالخوف والاحقاد ، بسبب عدوان بعضنا على البعض .

عالم الاجتماع : تلك هى الاستلابات ، تمتد الى اعماق النفس ، ومكانها الاول المجتمع ، وليس مصدرها الا المجتمع ولا نتحرر منها الا باصلاح المجتمع . واما الطبيعة فلا مسؤولية لها ابدا . ومن الجنون ان نقذف بمسؤوليات الانسان الى ما وراء الانسان .

المصلح الدينى : الوجود الطبيعى والوجود الانسانى فى فطرته الخالية من الاستلابات ذو استعداد خيرى ، وقد يسترجع الانسان هذا الاستعداد بمجاهداته . اما الشر المغروس فى النفوس فمن بذور اجتماعية . هذا معنى الآية الكريمة « **ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك** » . لان الله هو الذى طبع الطبيعة على الفطرة السليمة الخيرية ، والمجتمع هو الذى يزج بها الى الانحراف.

الفيلسوف : تذكرون يوم كنا فى جاهليتنا مثقفين دواجن ، يتهدد علينا بنزع لقمة العيش من افواهنا فنخضع للتهديد ، ويبث فى صدورنا حب الرفاهية والجاه فنبتسم للرفه والجاه . واشربنا اذ ذاك فى قلوبنا التقرب من سادة الدنيا وكبرائها . فتحالفنا على الحقيقة وعلى ابناء ملتنا . فهل يمكننا تذكر الاستلابات التى كنا نعيشها فى ميدان الثقافة ؟

طالب : كنا نشتكى كطلبة من الجهاز الثقافى نفسه ، بما فيه من ضغوط وطقوس وهالات كاذبة واجازات مزيفة .

طالب آخر : وكنا نحس بتضييع مدهش للوقت فى لى السنتنا بالحكمة ليظن انها حكمة وكنا نمطط العبارات ونلوكها ثم لا يبقى من كل هذا الكلام الا القليل من الثقافة الحقة .

طالب آخر : وكنا نحس بوحشة مفزعة ورعدة داخلية عميقة من عجزنا فى الاستيلاء الحقيقى على الواقع الحى ، وكنا نبحث عن تعويض لهذا العجز ، فى شبه استيلاء لفظى على ذلكم الواقع

طالب آخر : وكنا نشعر بخيانة ضمائرنا لان اجهزتنا الثقافية الضخمة ، كانت فى اكثر

من ثلثى نشاطاتها تبذيرا للجهد فى الفراغ، وكانت فى ذلك عالة على المنتجين الحقيقيين من ابناء امتنا .

طالب آخر : وكنا ندعى لدى ابناء امتنا اننا وحدنا المتخصصون فى التفكير ولا يجوز لاى كائن كان أن يفكر معنا أو ضدنا . وكنا نحتمى فى هذا الادعاء ببروقراطية الدولة فنتبادل معها الاستلاب لانها مقيدة بوجودنا ونحن مقيدون بوجودها لنبقى وإياهـا سنـدى سيطرة لابد أن يتعاونا لانهما يسترقـان معاشهما الرفيه من المنتجين الحقيقيين .

الفيلسوف : هذه استلابات ترجع بالذات الـى طبيعة الثقافة الرسمية .

عالم الاجتماع : ابرز مظاهر الاستلاب فى كل ثقافة رسمية يرجع الى انها تعرف نفسها تعريفا مربوطا بسياسة الوقت . وهو تعريـف محدود فى الزمن ، محدود فى أفق التأثير ، محدود بالاقتصار على خدمة طبقة معينة . والوجه الثانى من الاستلاب يرجع الـى صفتها القهرية بتقنينها فى مسبقات خاطئة.

اما التعريف الاصح لكل ثقافة اصيلة فمربوط بدورها فى التوعية . والتوعية ابداع مستمر ، وتجاوز مستمر للاحوال الثقافية الماضية والحاضرة ، بحكم التطور الدائم الذى لولاه لما حصل اى اكتسـاب علمى على الاطلاق .

وتناقض الثقافة الرسمية مع نفسها ، راجع الى خنق كل روح ثقافية فى بيضتها ، وذلك لانها رسمت ووقع برمجتها وتحجير عقائدها من قبل ان يخلق الواقع الـذى ستنطبق عليه او ستغيره .

ثم ان التوعية تحرير : انها تحرير المثقف نفسه من الصور التى فاتها الوقت بحكـم الحركية الجبارة للواقع الحى وهى ايضا تحرير للاخرين ، بان ترفع عنهم استلابات التحجر والتعلق الوثنى بالصور البالية .

الفيلسوف : ان بين التوعية والتعمية حدودا فى خطوط أدق وأوهن من نسيج العنكبوت . وذلك ان صاحب الثقافة الوثوقية يدعى انه حامل لواء التوعية ، وكثيرا ما يتهـم الطاعن فى هذه الوثوقية بأنه المسؤول عن التعمية . وليس من المؤكد ان ابناء الامة ، الذين تجرى تحت اعينهم هذه الصراعات سيعرفون بكل تدقيق أين توجد التوعية الحقة والالتزام الاصيل .

المصلح الدينى : يبدو ان احصاء الضلالات الثقافية هو نفسه عملية تستحق كثيرا من الوعى. ولكن هناك ضلال يعد بمثابة كبيرة الكبائر او بمنزلة الكفر فى الموبقات . ويتجلى هذا الضلال للعيان حينما نذكر الثقافة الرسمية المتحجرة بما فيها من انواع الوثوقيـات والشكليات والسفسطات . انه ضـلال الارتزاق البارد مع السيطرة الاستبدادية على كل تفكير . فجفاف هـذه الثقافـة الرسمية راجع الى فقدان المحرك العميق لكل معرفة ذات فعالية الا وهو حـرارة الايمان . فالايمان عدو الكسل المؤدى الى التحجر والايمان باعث كل اجتهاد وتجديد. فلا يمكن ان نقول لاى وثوقى بانه مؤمن بكل ما فى معنى الايمان من عمق فمفكرو البلاط فى ملتنا ، أو دواجن الثقافة كمـا سميناهم . هم بالضبط مفكرو الانحطاط . وشجعان الفكر عندنا هم بالضبط المؤمنون المذبون من لدن الوثوقيين ومواليهم اهل الجاه والسلطان .

ان الاحتكار الثقافى بترسيم المعرفـة خيانة خلقية للنوع الانسانى باكمله لانـه احتكار يثبت التعالى على الناس ويحصر

الثقافة فى جماعة يدعون انهم اعيان الفكر. وما دام المجتمع المثالى الذى تتحدثون عنه لم يوجد بعد ليضمن شبه مساواة ثقافية ، فأنا اعطيكم مثالا لهذه المساواة من المجتمع الحى الواقعى الذى وجد فى فترة تاريخية ممتازة ، فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، حيث كان المحرك الثقافى هو الايمان وحيث كانت الدعوة الاسلامية تنادى ان هذه الرسالة موجهة الى بنى الانسانية جمعاء .

عالم الاجتماع : نقول عن الثقافات التى تساهم فى تحويل الشعوب تحويلا حضاريا انها ثقافات ثورية سواء كانت دينية او علمية . نعم انها ثورية فى ابان ذى امتياز ولاجل قصير ريثما تنطلق البناءات الاقتصادية والمجتمعة الجديدة . ثم ما يكاد يمر عليها جيل او نصف جيل حتى تتصلب فى نرجسية تجعلها تتأخر عن سيل الواقع الحى ، ولا تواجه المعضلات الحيوية الا بالتاكيد الفارغ للمبادىء المجردة الغامضة . هذا ما اكده التاريخ حتى اليوم . ولكن هذه الظاهرة التاريخية لا تتصف بالحتمية المطلقة ، لان عنصر نفى هذه الحتمية فى عصر يمتاز بالتقدم والوعى ، هو ادراكنا لهذا التفاوت بين الواقع والفكر ، وادراكنا لتطور الظواهر الاجتماعية حسب قوانين بدانا نقوم اليوم بضبطها .

لكن بقى هناك استلاب اكبر ، وهو مسؤولية نشر التوعية وطريقة تطبيقها ، وآفاق هذا التطبيق ، لانها فى مجتمعنا الحاضر اللامثالى موكولة بالصدف اكثر مما هى موكولة بالمعقول .

الفيلسوف : ذلك راجع الى الاستلابات السياسية وكل هذه المسائل المتشابكة تقذف بنا مباشرة فى ادغال من الاستلابات . ولا نكاد نرى بصيصا من الامل فى رفع بعضها حتى تظهر لنا انواع اخرى لم تكن بالحسبان .

من المحقق اننا غرقى فى طوفان من الاستلابات .

يتبع

نيتشه

والأخلاق الدولية المعاصرة

عبد الله شريط

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

هل نعتبر مظاهر القوة التى ما زالت تسودالعالم هنا وهناك منبقايا الامراض وعلائم النقص التى تعانيها الانسانية ولم تستطع التخلص منهابعد ؟

يبرز من حين لآخر على الانسانية رجل اورجال ينادون بان الحرب والعنف هى سنة الحياة وان القوة خير ينبغى ان نحرض عليه ولا نقاومه.واليوم نرى الدول القوية ما تزال تعامل الدول الصغيرة والمتخلفة بميزان القوة والضعف حتىبعد التجربة الفاجعة التى لاقتها الانسانية فى الحرب العالمية الثانية وما تلاها من حروب فىافريقا وما لا يزال يجرى الى اليوم فى الفياتنام وامريكا اللاتينية المعذبة ، واخيرا بين الهندوالباكستان .

والضمير البشرى لا يستطيع ان يظل صامتا امام هذا الخطر الاجرامى الذى تتعرض له الشعوب من طرف من تملكهم جنون القوة لمجرد كونهم تحصلوا على قوة مادية عارضة فلم يعرفوا ماذا يصنعون بها الا أن يرضوا بها غرائز التوحش المتأصلة فى نفوسهم والتى لم تستطع حضارتهم الفجة المبتسرة وقلة تجاربهم الدولية أن تروضها فيهم .

واذا كانت الشعوب تقاوم هذا الخطر بقوتها الروحية التى لا تنفد وامكانياتها المادية البسيطة فان من واجب الطليعة المفكرة فى هذه الشعوب أن تقاوم الاصول الفكرية التى نبع منها هذا الجنون الخطر : جنون القوة وفلسفتها السلبية الهدامة .

ومن المؤكد ان فلسفة القوة هذه نبعت أول ما نبعت فى الغرب قبل ميلاد المسيح بعدة قرون : فى الفلسفة اليونانية أو على الاصح عند بعض فلاسفتها ثم انتقلت الى روما القيصرية ثم تواصلت فى القرون الوسطى فى مذهب الفروسية ولقيت ازدهارها اذ ذاك فى الحروب الصليبية المعززة بسلطة الكنيسة وبعد هزيمة الصليبيين همدت بعض الشىء ثم ظهرت الى الوجود من جديد فى الحروب الاستعمارية طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكن الاستعمار نفسه كان عاجزا عن ارضاء شهوات التوسع والقوة لدى الدول القوية نفسها بل ادى الى تنافس سرعان ما تحول الى حروب فيما بينها افترس فيها بعضهم بعضا افتراسا شرسا فى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ولا يبعد أن يقودهم الى الثالثة . وخلال هذه القرون الطويلة لم يخل الغرب الذى نبعت عنده هذه الفلسفة من دعاة ومفكرين يحكمون قواعدها ويفلسفون « فوائدها » بوقاحة لاطلاء عليها من القرن الثالث قبل الميلاد فى اثينا الى القرن العشرين فى أوربا .

ومن المؤكد ايضا ان هذه الفلسفة قد استطاعت خلال هذه القرون الطويلة ان تتزود فى كل رحلة بزاد جديد من الاتقان والعمق واللمعان وكان آخر دعاتها وأقربها الى عصرنا — اعنى اقربها تأثيرا فى حياة الدول القوية اليوم — هو الفيلسوف النمساوى الالمانى الكبير « فريديريك نيتشة » الذى توفى سنة ١٩٠٠ ولكنه ترك أروع واخطر اثر عرفه تاريخ البشرية فى سلوك الدول وتصرفاتها . وكان هو المنبع الذى استقى منه



ف . نيتشه

هتلر نظريته فى الاجناس والذى اقام عليه سياسته النازية ومغامراته الجنونية الصريحة وهو أيضا الذى ما يزال يغذى شباب أمريكا اليوم ضد السود وسياسة أمريكا فى كثير من انحاء العالم التى يكنها الضعفاء او من هم اقل قوة منها .

هذه الفلسفة الخطيرة جديرة بأن ندرسها نحن « الضعفاء » حتى نعرف مبلغ تغلغلها فى اذهان أصحابها وحتى نعرف أنها ليست — مجرد هوى يتملك هذا السياسى او ذاك وانما هى قواعد فلسفية عميقة الجذور بعيدة الغور ، وأن الانسانية يجب أن تحترس من ثمارها المسمومة التى ما تزال تغذى ادمغة بعض الساسة فى العالم « المتحضر » وحتى فى العالم المتخلف ، وأن البشرية فى المستقبل معرضة لهذا الطيش المتفلسف الخطر .

ونحن فى هذه الدراسة لن نتحامل على نيتشة لانه قبل كل شىء رجل مريض انهى حياته مصابا بالجنون . انه بالرغم من خطره يثير الاشفاق اكثر مما يثير فينا القسوة عليه . اننا سننظر اليه على أنه فيلسوف نناقش افكاره كأفكار جديرة بأن تناقش ، ولاننا بعد كل شىء نعتقد ان فلسفته مهما بقى من رواسبها فى اذهان بعض الساسة فانه سيأتى يوم تزول فيه وتنقرض بفضل يقظة الشعوب ووعيها لقوتها الروحية العتيدة .

١ ـ نيتشة وعصره

فكرة الخير والشر ـ أو الاخلاق بصفة عامة ـ ليست عند نيتشة كما هى عند غيره من الفلاسفة عنصرا أو ميدانا مع بقية عناصر اخرى مثل الميتافزيقا ومشكلة الآله وقضية المعرفة ونظرية المادة والروح ـ تتشكل منها جميعا فلسفتهم العامة بانسجام يقومها جميعا ويضفى عليها وحدة متناسقة ترجع اليها كل جزئياتها وتتجمع حولها . وانما قضية الاخلاق عنده هى عنصر فلسفة الاول والاخير . هى كل ما سيطر على قلبه وعقله وقلمه واخلاقه فى حياته كلها . واذا ما تعرض الى مواضيع اخرى كمشكلة الاديان واصولها ومشكلة الحرية واطوارها أو الاله ومفاهيم الناس فيه فانما كان فى كل ذلك يسعى وراء هدف واحد لا يهمه غيره ، وهو تدعيم نظريته فى الاخلاق . وانت تستطيع ان تتتبع كتبه وابحاثه ـ وخاصة « ارادة القوة » « وهكذا تكلم زراديتشت » فلا تكاد تجدها الا ظلا لبعضها البعض تسيطر عليها جميعا فكرة الاخلاق . وقد يكرر لك هنا ما كنت قرأته له هناك الا انك مع ذلك لا تشعر بهذا التكرار أو تسأم هذه الظلال لان بلاغة نيتشة وقوة تعبيره وطرافة صوره وصدق شعوره الفنى كفيلة كلها بأن تبعد عنك السأم والشعور بالتكرار . بل انك تجده ينقض افكاره بنفسه فى الكتاب الواحد ولكن البلاغة الساحرة التى يغمرك بها والقوة العجيبة التى يسيل بها قلمه الحار الجرىء تجعلك تبتسم فى نشوة وحمية لهذا التناقض المرضى البرىء . وفى امكانك ان تنقد نيتشة من جراء ذلك وان ترميه بالتهافت والاسراف فى الاعتداد بنفسه ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع ان تتمالك عن الاعجاب به والشفقة عليه احيانا .

وقد يخيل اليك أن نيتشة غير انانى ـ وهو كذلك طبعا ـ وقد تجده يصرح لك هو نفسه بذلك وانت تتجول معه فى مملكته الواسعة ـ ، ولكنك لا تلبث بعد معاشرة طويلة ان تتبين ـ وهذه هى مأساة نيتشة ومأساة الانسانية معه ـ انه انانى مفرط فى انانيته ، ولكن حبه للانسانية اقرب الى البغض لان صاحبه سلك اليه مسلكا فظيعا محفوفا بالاهوال والاشواك والكوارث . وهو يريد أن يصل بالبشرية الى الكمال ولكنه كمال ضره أبلغ من نفعه وثمنه أفدح من فائدته . تساءل نيتشة عن الخير والشر فقال :

« فى غروب يوم من أيام الشتاء لا اريد ان اصرح به لان له صلة بالاخلاق غروب قد انطبع فى حياتى فجأة وبقوة قاهرة وانا مازلت شابا ـ وقفت تخيلاتى وأفكارى امام هذا الاستفهام : ما هو الاصل النهائى الذى يجب ان نرجع اليه فكرة الخير والشر ؟ ومن حسن الحظ اننى سرعان ما وقفت على الاحكام الاخلاقية السابقة فلم افتش عن اصل الخير والشر وراء هذا العالم (واضح انه يقصد كانط) ثم لم البث ان تساءلت ثانية : وهل للخير والشر قيمة فى ذاتها ؟ هل حققا شيئا للانسانية فى تطورها لبلوغ اهدافها ؟ ام انهما بالعكس قد خانا قوة الحياة وامتلاءها كما خانا الشجاعة والثقة بمستقبلها ؟ على ان اجوبة هذه الاسئلة نفسها بعد بحوث طويلة استقرت بى الاقدام على أرض خاصة بى وحدى لانها عالم مجهول وجنة خفية لم يسبق لاحد ان فكر فى وجودها » .

ولنترك نيتشة هنا يركز قدميه على هذه الارض المجهولة التى اكتشفها لنعود اليه بعد حين نلقى اثناءه نظرة سريعة على ذلك العصر الذى جعل بطلنا يزور عنه وعن ارضه ليبحث لنفسه عن ارض اخلاقية اخرى « جديدة » فى نظره لعلنا نستشف بعضا من تلك العوامل التى جعلته ينفر هذا النفور الغريب من مفاهيم عصره العامة للاخلاق ، واى رائحة كانت تفوح من تلك المفاهيم لم يستطع نيتشة ان يفتح لها صدره ويستنشقها مثل غيره من الناس .

كان القرن الثامن عشر قد زحف فيه العقل على اوربا بعد أن تحرر من بقايا تاثيرات الكنيسة عليه فشمل كل مفاهيم الحياة ومختلف ميادينها وقيمها ، ووضع الانسان الاوربى امامه وجها لوجه فلم يترك له اى منفذ منه الى الحياة والكون من خلال قضبانه الحديدية واصبح الانسان الاوربى لا يعتمد على شىء فى حياته المعنوية والمادية الا مستخدما فيه هذا العقل كما اكتسب شجاعة كافية لاخضاع كل المذاهب والآراء فى تشكيل الدولة والاقتصاد والقانون والدين والتربية لامتحان العقل ثم جاء القرن التاسع عشر فارتاع لهذه القفزة او هذه المغامرة وشعر بالدوار والهلع فولى مسرعا الى اقرب نقطة انطلق منها القرن الذى قبله فولدت الحركة الرمانطيقية ولم تكد تبرز الى الوجود حتى اخذت فى رفع عقيرتها بالتغنى بالماضى وخصاله . وكان ذلك بصورة خاصة فى المانيا التى كانت آنذاك مشتتة مبددة فى ولايات واقاليم هزيلة متنافرة معا آثار فى شعرائها ومفكريها حنينا الى الماضى المجيد ، واصبح الرجل فى نظر هذه الحركة عبارة عن كتلة من الماضى مرتبطة بمكان معين وزمان محدد واصبح معين الادب والفن لبس هو الحياة الواقعية وما فيها من جديد وطريف بل خيال العصور الوسطى وابخرة الكنائس تتصاعد تحت اضواء الشموع .

الا ان روح القرن الثامن عشر العقلية لم تخمد مع ذلك امام هذه النكسة الرومانطيقية بل قفزت من جديد قفزة ثابتة ظهرت بها فى ثوب المذهب الوضعى الواقعى الذى اخذ يخضع كل شىء للتجربة والواقع والمادة ، ضاربا صفحا عن كل ما وراءها من معميات وتخمينات ورموز . وكان فى النهاية ان استبدت الحركة الوضعية بالحركة الرومانطيقية وابتلعتها فاختلت الموازين بين المادة والروح وارتبكت المفاهيم واصبح الفكر الاوربى مقبلا على ازمة مخيفة اقفر معها ينبوع — الروح — وتعطلت كل قدرة عن الانتاج والابداع الروحى ، وتحولت المفاهيم ومقاييس الاشياء من الكيف الى الكم وهو ما يزعج رجلا مثل نيتشة . « واصبح الناس يتحدثون عن الاغلبية والجموع واكبر عدد ممكن الى آخر هذه الصيغ التى علمهم اياها الكتاب والمفكرون فى القرن التاسع عشر » — وانصرف العقل الاوربى الى العالم الخارجى نهائيا ونسى نفسه وعواطفه واهدافه الانسانية العليا نسيانا يكاد يكون تاما حتىقال « ماكس بيكار » : « ان الحياة عند الناس وفرارهم من أنفسهم أصبح شيئا واحدا . ولم يعد للانسان مفر من أن يفر من نفسه . لقد أصبح الفرار حالة دائمة وشيئا طبيعيا كالهواء » .

أما الاخلاق فقد تحجرت على قواعد مرتبة معينة يعيش عليها المجتمع حياته اليومية دون أن يفكر فى أن تكون لها اهداف تطورية خالقة أم لا .

وما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كان الفكر فى أوربا قد انتهى الى مرحلة من الشك والتعب فقد معها سيطرته على توجيه نفسه نحو ما كان يحلم به من سعادة وراحة .

ذلك هو طابع الحياة النفسية فى القرن التاسع عشر . أما الحياة الاجتماعية فقد سيطرت عليها الاوساط الشعبية بمبادئها الديموقراطية وهو أيضا ما يفقد صواب نيتشة — ولم تعد تبالى بما كان يحرص عليه الاستقراطيون من مظاهر

الحضارة والرفاهية وقيمها البورجوازية . واصبح « الاقبال على التوسط من كل شيء » هو الطابع الغالب على الحياة فى مختلف ميادينها ونواحيها . لقد كان كل شيء يسقط فى الماء ولكن لا شيء يغوص الى اعماق الينبوع كما يقول نيتشة . وهكذا لم يعد يجد هؤلاء التوامون على قيم الحضارة الاستقراطية عزاء امام هذا « الانحطاط » الا ان ينكر القيم الاجتماعية السائدة انكارا» ويحكموا على العالم كما هو موجود امامهم بانه كان من الواجب ان لا يكون كذلك ، وعلى العالم الذى يحلمون به بأنه غير موجود . فكانت النتيجة عندهم ان العالم لا معنى له (نيتشة) .

هذه هى الحالة التى كانت عليها اوربا عندما شاءت الاقدار ان تأتى اليها بنيتشة . ونكاد نجزم ان هذا هو غروب ذلك اليوم من ايام الشتاء الذى وقف فيه نيتشة يتساءل عن الخير والشر .. لقد اعتقد الرجل ان هذا الوضع الاجتماعى (المنحط) هو نتيجة لتفسخ فى مفاهيم الاخلاق فى ذلك العصر . وان من اراد ان يعتنى باوربا ويعيد اليها حياة التقدم او يعيدها الى الطريق المستقيم يتبغى ان ينصرف الى معالجة هذه الناحية قبل كل شيء وان يهب لها كل ما فى قلبه وعواطفه وعقله من مواهب وقدرة حتى ينتشلها من الهوة . وكان نيتشة يعتقد انه ذلك الرجل .

نقد الفلاسفة والاديان وعلماء الاخلاق

كان نيتشة يعتقد فى بعض الاحيان انه لن يستطيع البناء ، وذلك لفرط ما وجد امامه من بناءات اخلاقية ينبغى تهديمها قبل كل شيء . انها بناءات اقيمت على الرمل وخرائب من الاخلاق انقرض سكانها واهلوها وبقيت ماوى للعجز والضعفاء ، فيقول : اننا لا نريد ان نبنى قبل الاوان . بل لسنا نعرف ان كان قد قدر لنا ان نبنى يوما ، او انه من الاحسن ان لا نبنى اطلاقا »

ان كل ما بنى فى ميدان الاخلاق منذ كونفوسيتوس الى سقراط ومن المسيح الى كانط ليس فيه حتى ما يستحق أن يرمم ويعدل .

وقد بدأ اول ما بدأ بسقراط وافلاطون وابيتور الذى قضى على الغرائز العميقة فى الانسان بما كان يدعو اليه من فلسفة اللذة كما لو كانت الحياة قد خلقتنا فيها لنلتذ وننعم وليس لنناضل « ونعيش فى خطر » وعلى السفسطائيين وسلبيتهم الهدامة ازاء الطبيعة . والى هؤلاء جميعا ينبغى ان نضيف شوبنهاور وكانط وكل الذين وضعوا انفسهم فى خدمة الضعفاء وتمجيد المسكنة ومحاربة الحياة وغرائزها « النبيلة » .

ولكن ثورة نيتشة على كل هؤلاء لا تعد شيئا اذا قيست بثورته المستعرة وحقده العجيب على المسيحية : تلك الديانة التى جاءت لتقضى نهائيا على اعمق ما فى الفرد من غرائز ضرورية للحياة ، والتى اصبحت الحياة فى نظر معتنقيها لا تعنى غير « تثقيف » الاساقفة والاباطرة وتوفير السعادة لهم . اما غيرهم فليست هذه الارض بالنسبة اليهم غير دار امتحان اخلاقى يترأس — جلسانها الاله وهو ممسك بيده دفاتر للسيئات واخرى للحسنات يسجل عليهم فيها ما ياتونه منها حتى اذا زادت سيئاتهم على حسناتهم عاقبهم بانتقامه الى الابد . الا ان المسيحية ليست الا ميتافيزيكا الاشقياء . والوسيلة الوحيدة للتخلص منها هو « نفى الاله وخلع نير الكنيسة عن الاعناق » . ان اصحابها هم « المنذرون بالموت » وقد تفشى داؤهم حتى اصبح « العالم مليئا بمن تجب دعوتهم الى الاعراض عن الحياة . والارض اصبحت مكتضة بالدخلاء ، وقد افسدوا الحياة فما أجدرهم بأن تستهويهم الابدية ليخرجوا من هذه الدنيا . ان هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد . فليبشروا بكره الحياة وليتلعوا عن مرابعها . انهم المصابون بسل الروح ، انهم لا يكادون يولدون حتى يبدأ موتهم وقد شاقهم الزهد والملال . انهم يتلفعون برداء وسيع من الاسى ، ويتشوفون الى الحوادث التى تجر وراءها الموت ، ولكنهم

يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك هلعا وذعرا . وهم فى الوقت نفسه يمدون ايديهم الى ما نـذ وطاب . ان الحياة عندهم قشة يزدرونها ولكنهم يحرصون عليها . ان حكمة هؤلاء تهتف قائلة : الحياة جنون وافظع منه التمسك بالحياة وقد بلغ الجنون بنا الى هذا الحد الفظيع » .

هذه فقرة قصيرة من ثورات نيتشة على المسيحية والكنيسة دون ان يفرق بينهما فى شيء . ان المسيحية التى ظل التاريخ ينظر اليها على انها تمثل روح الانسانية المتسامحة التى تاخذ الاشياء اخذا رفيقا لا عنف فيه ولا عبوس وتنزع بالانسان الى الارتفاع عن غرائزه الحيوانية الشرسة وابداله مكانها عواطف ملائكية تطفح بالمحبة والاحسان ليست فى نظر نيتشة الا معولا هداما يقوض اعمق ما فينا من الميول البشرية الطبيعية التى تنزع الى السيطرة والحرب والقوة .

والاغرب من ذلك ان ما اشتهرت به المسيحية من روح انسانية هو بالذات ما يؤاخذه عليها نيتشة باسم الانسانية نفسها . ان رجالها فى نظره قد سنوا وشرعوا كل قوانينهم وطقوسهم الملة لغرضٍ واحد وهو السيطرة على الجماهير والصعاليك . انهم يعلمون ان الد عدو لهم يستطيع ان يهدم سيطرتهم المكذوبة هو العلم وتفتح العقل للبحث بعمق عن الاصول الدفينة لفكرة الخير والشر فجاؤا ووضعوا ايديهم على هذا الميدان واحتكروا البحث فيه لانفسهم لانهم يعلمون ان هذا الميدان هو الذى تسطر فيه مصاير البشر ، وقالوا للناس ان هذه الثمرة — ثمرة المعرفة والاخلاق — محرمة عليهم فى هذه الارض ، وانه لا يجوز لغيرهم هم رجال الكنيسة — ان يبحث فيها او يدنسها بيديه ، وقد عرفوا الطريق الذى يوصلهم الى تلافى هذا الخطر : فالعلم وتفتح الفكر يتطلب الهدوء والتامل العقلى ، او بعبارة اخرى يتطلب ارضاء جميع الحاجات التى يمكن ان تشغلنا عن هذا التامل الهادىء العميق المنظم.

واذن ليصبح كل الناس بؤساء مشغولين بالتفكير فى أمعائهم الخالية حتى لا يتفرغوا فى هدوء الى اكتشاف أكاذيب الكنيسة . لقد اخترعوا مسألة الاثم الذى اقترفه آدم منذبدئى الخليقة على ما يزعمون حتى يجعلوا ابناءه يقضون الحياة وهم يتخبطون فى الندم والشعور بالذنب ويبحثون عن المغفرة فى ظلام حالك ، وهكذا حصروا جهود المخلوقات فى التفتيش عن حل لمشكلة خيالية لا يعرفونها بوضوح . وعندما تكل أرجلهم تعبا يهرعون الى رجال الكنيسة ويرتمون على مسوحهم يطلبون المغفرة والعفو ويسلمون اليهم مقاليد امورهم ويمكنونهم من التحكم فى رقابهم ، وذلك بالضبط هو ما يبحث عنه رجال الدين ، حتى

تبقى بقية الناس تعفر جباهها فى التراب وتبكى شقاء الانسان وتتضرع ليلا نهارا طالبة المغفرة على اقتراف ذنب لم يقترفه أحد فى يوم من الايام .

ولا تحاول ان تقنع نيتشة بانه اذا كان رجال الكنيسة كما يقول فان المسيحية كدين مبراة من هذه الجرائم . انه سيجيبك بأن المسيحة نفسها لست الا اكذوبة كبيرة من اكاذيب اليهود اختلقوها فى عهود عبوديتهم وذلهم ليقلبوا بها الحقائق ويسبغوا على انفسهم وعلى من كان فى مثل حالهم من العبيد المضطهدين نعوتا طبعوها بطابع الانسانية وما هى فى الحقيقة غير تمويه على التاريخ ، فرضه عليهم وضعهم الذى كانوا فيه من الاضطهاد والتشرد فلم يجدوا ملجأ يبقى عليهم الحياة غير هذا الخداع الذى يحبذون به حياة البؤس والبؤساء حتى يستطيعوا تحمل الحياة . والا فهل من بلاء على الانسانية اشد من أن تعيش معذبة بائسة وهى فى ذلك مختارة بملء ارادتها او مخدوعة بهذا العذاب الذى تظنه فى خيرها وصالحها وهل من اجرام افدح ممن

جعلها تفعل ذلك بنفسها وهى تحسب انها تحسن صنعـــا ؟

وهل مـ نالطبيعى ان تكون غايتنا من الحياة هى ان نعيش فيها معذبين نحاول استمراء هذا العذاب واستساغته وتغطية مرارته بالعســل المكذوب ؟ كلا ان المسيحية هى التى ضاعفت من شقاء البشر وهى من اجل ذلك اكبر مجرم عرفه التاريـــخ . »

وبعد . هل نقف مع نيتشة عند هذا الحد فى تحطيم الماضى ؟ كلا ! ان حمية الرجـل عـلى الاخلاق وغيرته على الانسانية اشد واقوى من ان تعرف الحدود او الاعتدال والتوسط . ان قلبه الجبار الذى طوح بالمسيحية من اعمق جذورها لايهدا الا اذا قضى على كل من شم رائحةالمسيحية من قريب او بعيد وكل من تأثر بها تفكيره عــن شعور او لا شعور . ان هؤلاء ايضا يجب ان يلحقوا بأمهم التى ارضعتهم مفاهيمها التعسة المسمومة فى الاخلاق وبناء مستقبل الانسانية .

وليس فى وسع هذا البحث الموجز ان يستوفى نقد نيتشة لكل فيلسوف نادى فى مذهبه الاخلاقى بما نادت به المسيحية ــ سواء كان متأثرا بها ام لا ــ من الشفقة والغيرية والمحبة والمساواة امام الله او امام القانون او الواجب الى آخره .. بل ان نيتشة نفسه لا تسمح له كبرياؤه بأن يتتبع هؤلاء الفلاسفة فردا فردا ليناقشهم الحســاب على آرائهم الاخلاقية بل يجمعهم دفعة واحــدة ويفتح عليهم جام غضبه وحنقه ويضرب رقابهم جميعا بسيف واحد ما داموا كلهم يستندون اما على المبادىء المسيحية او مبادىء المســاواة والضمير والمصلحة العامة والسعادة المشتركة الى بقية هذه الكلمات التى ليس لها فى عقــل نيتشة اى معنى انسانى حقيقى كما ليس لها فى نفسه اى احترام او تقدير .

واول ما يؤاخذ به نيتشة هؤلاء الفلاسفة فى معالجتهم لمشكلة الاخلاق هو بالضبط ذلك الشىء الذى يتباهون به ويتفاخرون وهو « التجـرد والنزاهة العلمية » وبحث الامور باعصاب باردة لا اثر فيها للحرارة او الغيرة كما لو كانت قضية الاخلاق سلعة تافهة لا تمس صميم انسانياتهم ولا تجول فى عروقهم . ان هذا التجرد عند نيتشة ليس له من قيمة على الاطلاق لا فى السماء ولا فى الارض .

فكل المشاكل الضخمة تتطلب « الحب الاعظم » والحب الاعظم عند نيتشة هو ذلك الحب الذى يدفعه الى القسوة على الانسانية وتحميلها فوق ما تطيق لتتأهب لحمل رسالتها العظمى وتصل الى هدفها الاعلى وهو انجاب الانسان الاعلى او « السبرمان » .

ان هذا الحب الاعظم لا يستطيع ان يحمله نحو الانسانية اولئك الفلاسفة الباردو الاعصاب . ان هذه المهمة الثقيلة لا يستطيع ان يضطلع بها الا ذوو العقول القوية الواضحة ، لانها تأخذ تلك القضايا العظمى كما لو كانت قضايا خاصة بها تجد فيهامصيرها وقدرها واحزانها وكل سعادتها. انه لا يؤلم نيتشة شيئا كما يؤلمه برود هــؤلاء الفلاسفة الذين « يتجهون الى المسائل الانسانية التى يتوقف عليها مصير الوجود البشرى وعظمته وازدهاره بروح « شخصية »وبفكر بارد ثقيل . ان فكرا كهذا لا يمكن للمشاكل الضخمة حتى ولو كانت فى متناول العقل ان تدخل تحت حوزته لانه مكون من دم الضفادع . وهؤلاء الفلاسفة كانوا دائما ومنذ القديم لا يتحلون الا بنزوات وامزجة هى امزجة ابطال النساء التافهات . فمن ثم لا اصادق قط ولو فى الكتب فيلسوفا او عـــالما او مفكرا اخلاقيا يضع نفسه امام الاخلاق كما لو كانت امرا يهمه شخصيا ويثير همه وألمه الحار او تشوقه وهواه الجارف الصادق ومن اجل كل ذلك لم تكن الاخلاق فى يوم من الايـــام مشكلـــة وضعت على بساط المعالجة الصحيحة . بل على العكس كانت عندهم ساحة حيادية انتهت بعد

كل ما عانته من المتناقضات والاخذ والرد ان اتفق المفكرون على انها هى الظل الظليل الذى يستريحون تحته من عبء انفسهم ويستانفون فيها عيشهم من جديد . اننى لم أر واحدا منهم تجرا على هذا الانحراف الشنيع الذى تسير فيه الاخلاق . واننى لازداد الا اقتناعا بأن ما بذله بعض المؤرخين وعلماء النفس من جهود فى ميدان الاخلاق هومنتهى السخافة لانهم سمحوا لخيلاتهم المغامرة ان تتلقف هذه القضية النبيلة تلقفا خاطفا لم يتبينوا معه شيئا من أهميتها . ولانهم علاوة عن ذلك ما يزالون هم انفسهم يرسفون تحت عبء الاخلاق المعتادة التى يرسف فيها الفكر الشعبى فى اوربا المسيحية التى ما تزال حتى اليوم تفهم الاخلاق على انها الشفقة والتضحية وما الى ذلك من مظاهر السلبية القاتلة » .

ويرجع نيتشة الخطأ الذى درج عليه الفلاسفة من فهمهم لقضية الاخلاق والذى اعدى به بعضهم بعضا — الى نظرتهم للاخلاق على انها شىء مشترك يتساوى فيه جميع الافراد وجميع الشعوب ، او على الاصح بين الشعوب المتمدنة والتى يسميها نيتشة « الشعوب المروضة » والى بعض المفاهيم الاخلاقية المبتذلة التى حاولوا ان يستنتجوا منها حتمية مطلقة قائمة فى علاقات الافراد والشعوب بعضهم ببعض . ثم عندما تبينوا خطأهم فى هذا الاطلاق بحكم اختلاف الشعو بواختلاف مفاهيمها وعاداتها — عادوا فقرروا ان « كل » نوع من الاخلاق حتمى او قسرى . وكل من الفكرتين عند نيتشة لا تقل صبيانية عن الاخرى . ثم زادوا الطين بلة عندما راحوا ينتقدون بعض النظريات فى الاخلاق لدى الافراد والشعوب فتوهموا انهم ينتقدهم لتلك النظريات قد نقدوا الاخلاق نفسها . انهم « فى الواقع مازالوا الى اليوم يعتقدون انهم أعطوا لقضية الاخلاق ما هى جديرة به من الاهتمام والروح العلمية المتعمقة ، فى حين انهم اكتفوا بايجاد أسس جامدة مريضة لانهم يعتقدون ان الاخلاق ليست شيئا يتكون باستمرار وانما هى « معطيات » . وهكذا بقيت مشكلة الاخلاق مادة مهملة ينسج عليها النسيان خيوطه بعد ان طرحتها تلك الكبرياء الثقيلة التى تعصف بعقول المفكرين .

على ان هناك سببا آخر فى نظر نيتشة جعل الفلاسفة يهملون الاخلاق هذا الاهمال المشين وهو ان مشكلة الاخلاق تتطلب أيدى فى غاية المهارة والضبط . وبما أن علماء الاخلاق ليس لهم من ذلك غير الغلظة والسماكة والرعونة تلك العاهات التى أعدتهم بها عقلية الكنيسة وبقية ما يحيط بها من ظروف ، وبما انهم ايضا قد استقوا كل معلوماتهم عن الاخلاق من عادات الشعوب وتواريخها بشكل ناقص مغلوط، فقد كان من البديهى ان يكونوا ابعد الناس جدارة عن بحث قضية الاخلاق وايجاد ما تتطلبه من الحل . « الا ان كل ما يسميه الفلاسفة (أسس علم الاخلاق) ليس أمام ضوء الحقيقة غير شكل متحايل للاخلاق السائدة حولهم . اى هى عبارة عن سلبية مطلقة — وضعت فى قالب اخلاق . وهكذا اذن ينتهى بنا المطاف مع نيتشة الى هذه الصحراء القفر التى عاشت الانسانية على سرابها وخداعها كل ما عاشته من القرون : اديان فاشلة خلقها الدجالون من اليهود ليقتلوا بها الحياة ، وأفكار فلسفية سطحية تطفو على سطح الاخلاق كالفقاقيع وهى تحسب نفسها تغوص الى اعمق ينابيعها « عندما أتيت الى العالم وجدته جالسا على افتراضات قديمة واثقا أنه عرف كل شىء عن الخير والشر . ووجدت الناس يعتقدون ان كل بحث فى الفضيلة قد انتهى أمره . وبالرغم من عقيدتهم هذه فقد كان كل واحد يأتى على ذكر الخير والشر وهو متوجه الى سريره طلبا للنوم »

ان نيتشة يعتقد مخلصا انه هو الحد الفاصل فى تاريخ الانسانية وانه بدأ جديد لتاريخ جديد

ستدخله البشرية يتغير به اتجاهها وتتبدل خطواتها وتتضح اهدافها في الحياة بعد أن ضلت السبيل في كل ما مر عليها من عهود . وهو فوق ذلك مؤمن انه بعث لتخليص البشرية من الضلال والحطة والتفاهة ويفك على رقبتها القيود الثقيلة التى رزحت تحتها آلاف السنين . وهو لا يهمه اذا كانت هذه الانسانية تنظر الى عمله وجهده الذى يبذله نظرة ملؤها الحقد عليه ، على انه يعلم ذلك ويشعر باننا ساخطون عليه وهو يهدم اوثاننا الاخلاقية المقدسة ويقول : « لست بالصوت الذى تتطلبه هذه الاسماع . اننى اخاطبهم وكأننى اخاطب رعاة الماعز » .

ولكننا رغم سوء ظن نيتشة فينا فاننا لن نتسرع في الحكم عليه قبل أن نرى نهاية المطاف الذى يريد الرجل ان يقودنا اليه اننا ما نزال معه في منتصف الطريق فلعل ما سياتينا به هو الحق وان ما كنا فيه هو الباطل . اننا كثيرا ما جنينا على المجددين في التاريخ ورميناهم باوسخ التهم لمجرد كونهم ارادوا ان يغيروا قديمنا ويستبدلوا به جديديهم .

(يتبع)

الاديب العربى يشكو من الرقابة ومن الارهاب

ان معركة المصير التى تخوضها الامة العربية اليوم لا يمكن أن تتجزأ . فهى معركة ضد قوى الشر والاستعمار والصهيونية ، وهى معركة على الحدود ، وهى معركة لبناء الاشتراكية ، وهى معركة للحفاظ على عروبة الاراضى التى تغتصبها قوى البغى والعدوان ، ولكنها كذلك معركة لبناء الانسان العربى من الداخل . ولا ريب فى ان هذا الانسان مصاب بآفات كثيرة تنخر كيانه وضميره ، هذه الافات هى التى كانت مصدرا اساسيا للهزيمة التى لحقت بالامة العربية عام ١٩٦٧ ، وهى التى نحتاج اول ما نحتاج ، الى حرية فى التعبير تمكن الاديب من ان يجعل قلمه مبضعا يشق به كل دمامل الفساد ، لا مروحة يدغدغ بها العواطف والنزوات ، ويجامل بنسيمها السلطات . . . وقلم الاديب فى معركة بناء الانسان المتهدم ليس اقل اهمية من بندقية الجندى فى معركة استرداد الارض : كلاهما يعمل من اجل استعادة الكرامة العربية المفقودة . فاذا لم يوفر للجندى السلاح ، ولم يوفر للاديب القلم الحر خسرا المعركة التى يخوضانها .

ينبغى الا يكون همنا الاول ان نسعى فى هذا المؤتمر لاقرار توصيات جديدة تصطدم بعقبات فى التنفيذ تذهب بكل حسن النية الكامن وراء اصدارها ، بل لعلنا نحسن صنعا اذ نعالج هذا الموضوع الرئيسى : كيف نمكن للاديب العربى ان يتمتع بحرية التعبير ليقوم بقسطه فى المعركة ؟ صحيح انه لابد من ان يكون ملتزما بالقضايا العربية ، ولكن لنترك له الحرية فى هذا الالتزام حتى لا ينقلب الى الزام وهو العدو القاتل لكل ابداع فنى .

لنتدارس قضية الرقابة ، ولننظر فى امر الغائها وتقليصها او نقلها الى اتحادات الكتاب ، ولنتح للافكار ان تتصارع وتتحاور ، ولنرفع عن فكر الكاتب كابوس الخوف ليجد الطمأنينة التى تتيح له الانطلاق فى سماء الابداع والخلق .

ولكن لابد لنا ، ونحن نطالب بذلك السلطات ، من ان نتعهد بأن نناضل من اجل امتنا ، ونكافح من اجل شرف الكلمة .

من كلمات الدكتور سهيل ادريس فى مؤتمر ادباء العرب بدمشق .

وجه الجزائر المسلم

• علال الفاسي •

كنا اعلنا في المقدمة التي وضعناها لمقال الاستاذ علال الفاسي المنشور في العدد السابق من « الاصالة » انه اول هذه المقالات ، والواقع انه ثالث المقالات التي خصصها الاستاذ علال لانطباعاته عن الجزائر ونهضتها .
وذلك ان المقالين الاولين مركزان على برنامج الملتقى وسيره وتتابع المحاضرات ومحتواها والمناقشات التي تلتها ، وهي معلومة بالنسبة للقارىء عندنا لانه تتبعها بواسطة اجهزة الاعلام .
ولهذا راينا ان نقتصر على المقالات الثلاثة الاخيرة .

اعتبر الشعب الجزائري استقلال بلاده منطلقا لكل الحريات الدينية والثقافية التي كانت محبوسة من طرف الاستعمار ، اعتبر استقلال الوطن استقلالا للمسجد وللمدرسة الدينية القرآنية وتحريرا من كل هيمنة تبشيرية او اجنبية .

لقد تحررت المساجد التي كان الاستعمار الصليبي اخذها كنيسة ، وفي مقدمتها مسجد « كيتشاوة » المسجد الكبير بالجزائر العاصمة الذي كان مركزا للانطلاق التبشيري المسيحي في افريقيا ، لقد عاد مسجدا كما كان منذ الاسبوع الاول من الاستقلال واقيمت فيه صلاة اول جمعة بامامة وخطبة الشيخ البشير الابراهيمي رحمه الله وبمحضر وفود البلاد الاسلامية المدعوة للاحتفال بالجزائر .

ومنذ ذلك الوقت والشعب يستولى على المساجد التى حولت كنائس ليردها مساجد ، ولم يكتف بذلك بل اخذ يستولى على عدة كنائس بقيت فارغة بعد سفر المستعمرين عن البلاد ، وقد تم الاتفاق بين هيئة اتحاد الكنائس العالمى وبين وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على انه يحق للمسلمين ان يستولوا على كل كنيسة وجدت فى محل لم يعد فيه سكان مسيحيون ، ولهم ان يحولوها اذا شاءوا الى مسجد او الى ناد او مدرسة ، وفعلا فان الدولة والشعب لم يتقاعس عن تنفيذ هذا الحق فهم يحولون الكنائس غالبا الى مساجد بعد اصلاحها وتغيير ما لابد من تغييره ، وقد زرت عددا من هذه المساجد ذات الاصل الكنسى وصليت بها شكرا لله على ما منحه لمسلمى الجزائر جزاء صبرهم وتضحيتهم فى سبيل حريتهم الدينية والمدنية .

ويقبل الشعب واغنياؤه افرادا وجماعات على بناء المساجد الجديدة فى كل انحاء الجمهورية مشجعين من قبل الولاة ووزارة الشؤون الدينية وهى مساجد عصرية فى هندستها وفى اضافة مرافق جديدة لما كانت عليه المساجد من قبل ولا تألو الوزارة نفسها جهدا فى بناء المساجد ايضا وقد زرت بعضها كمسجد الامام مالك فى وهران الذى هوتحفة رائعة زانه الحفر على الجبص الذى استقدم له صناع مغاربة من فاس .

وتتضمن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ادارة خاصة بالشؤون الدينية تشرف على مختلف اوجه النشاط الدينى فى البلاد (بما فى ذلك الاشراف على رجال السلك الدينى المسيحى واليهودى) بوساطة مصالح ثلاث :

اولا — المفتشية المركزية .

ثانيا — نيابة الادارة للشؤون الدينية .

ثالثا — نيابة الادارة للاوقاف .

وحسب البيان الذى امدتنا به الوزارة يمكن حصر نشاطها فيما يلى :

ا — المفتشية المركزية (تتبعها خمس عشرة مفتشية واحدة فى كل ولاية) ، وتشرف على المساجد فى البلاد كلها . كما تسير رجال السلك الدينى من ائمة ومؤذنين وحزابين وقيمين وتنظيم شؤونهم ، وتنظم دورات تدريبية للائمة بانتظام لرفع مستواهم باستمرار كما تشرف على حملة محو الامية فى المساجد .

ب — نيابة الادارة للشؤون الدينية تقوم باعداد :

— الاحاديث الدينية المذاعة يوميا بالاذاعة الوطنية بنسبة ثلاثة احاديث فى اليوم .

— النشرة التوجيهية الاسبوعية الخاصة بالائمة لتوحيد التوجيه الدينى ورفع مستوى الائمة ومحاربة الشعوذة والتدجيل والخرافات والبدع .

— النشرة التوجيهية الخاصة بوعاظ المساجين مختارة بأسلوب مبسط لتربية وتهذيب المساجين

— كما تقوم باصدار الفتاوى من قبل لجنة الافتاء ، وتنظيم الحج كل سنة .

ج — نيابة الادارة للاوقاف ، ونشاطها المهم فى :

— رعاية تسيير الاملاك الحبسية ،

— ترميم واصلاح المساجد القديمة .

— الاشراف على هندسة المساجد الجديدة حتى توافق المقاييس الاسلامية من جهة ، والفن المعمارى الاصيل من جهة ثانية .

— تجهيز المساجد بالافرشة ومكبرات الصوت (وكل مصروفات المسجد على نفقة الوزارة) .

ومما يلفت النظر فى الجزائر ان المساجد كلها مفروشة بالزرابى التى تشتريها الوزارة او يتبرع بها المومنون .

الموظفون الدينيون فى اطارهم الجديد

يجب الانتباه الى ان الامام اصبح منذ سنة ١٩٦٩ يتمتع بكامل حقوق الموظف فى الدولة ، من منح عائلية وضمان اجتماعى وترقية وعطل وتقاعد الخ . . وبعد أن كان يتقاضى منحة مؤقتة فهو الآن يتقاضى راتبا معتبرا وثيق الصلة بشهادته ومستواه العلمى يتراوح بين ستين الف فرنك ومائة وخمسين الف فرنك .

وقد نظم امتحان مهنى خاص ، لمستوى الائمة والمؤذنين يرسم بمقتضاه كل الناجحين فيه فى درجات تناسب نتائجهم فى هذا الامتحان ، اما الراسبون فيبقون فى مساجدهم ويستعدون للدورة الثانية (وتنظم لهم دروس خاصة فى مدرسة خاصة)

واما الائمة الذين يحملون شهادات علمية كافية فيرسمون بمقتضى شهاداتهم ولا امتحان عليهم .

وتقول الوزارة فى بيانها المعطى لنا انها تريد بهذه الطريقة ان تبعد الامام المتكاسل وتفتح المجال للامام النشيط الذى يقبل على العلم بارادة وعزم .

واما عدد رجال السلك الدينى الذين تجرى عليهم الوزارة رواتب شهرية حاليا فقد تضاعف أربع مرات من الاستقلال الى اليوم ، فقد كان عددهم اربعمائة وأربعين وهم اليوم الف وتسعمائة .

ولا يزال عدد مثل هذا تقريبا يقوم بالصلوات الخمس وصلاة الجمعة تطوعا او على نفقة البلدة او القرية التى يوجد بها المسجد ، وذلك الى ان يرسموا جميعا فى مدة سنتين او ثلاث ان شاء الله .

وهذه الزيادة المستمرة راجعة الى ما اومأنا اليه من اقبال المومنين بحماس على بناء المساجد وعلى تحويل الكنائس الى مساجد .

ووظيفة الامام لم تعد قاصرة على اداء الصلوات ، بل هو مكلف أيضا بالقاء دروس الوعظ والارشاد .

وبتحفيظ القرآن للاولاد مدة معينة وبالقاء دروس فقهية منتظمة .

وبدروس محو الامية يوميا داخل المساجد .

وقد بدات حملة محو الامية بمساجد البلاد كلها فى ١٥ اكتوبر ١٩٧٠ ، وافتتح الحملة رئيس مجلس الثورة والحكومة بنفسه فى الجزائر كما قام بتفقد سيرها فى مساجد العاصمة وبعض عواصم الولايات كمدينة سطيف ، وقد ادخلت السبورة الى قاعة خاصة فى المسجد واصبحت كالمنبر ملازمة له ، رجوعا الى الاصل الاول ،

ووزعت الوزارت مجانا على المساجد عددا ضخما من الكتب ، كتاب لتعليم القراءة فى جزأين ، كتاب الخط ، كتاب الحساب ، كتاب المعلم .

وقد افتتحت الوزارة مدرسة خاصة ببلدة مفتاح سمتها المدرسة الوطنية للاطارات الدينية وذلك لتوسيع افق الائمة الحاليين فى شؤون الدين واساليب التربية .

لقد زرت مساجد كثيرة واديت بها بعض الصلوات فكان اعجابى كبيرا بعدد المصلين الحاضرين من الشيوخ والشباب ، والقيت فى مسجد يوسف بن تاشفين بتلمسان درسا فى تفسير سورة لم يكن الذين كفروا ، حضره جم غفير من الناس ، كما القيت درسا بمسجد سيدنا على بمدينة وهران وهو من المساجد التى بناها الشعب ، كان موضوعه تفسير قوله تعالى : (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف الوانها) وقد خرجت لهذا الدرس من النزل الذى كنت فيه ، فى موكب فخم مع رتل من السيارات المقلة لوفود البلاد الاسلامية ، وكان المسجد غاصا بالمصلين الذين لم يسعهم

فابتاحوا فى الشارع القريب ، وفى العاصمة القيت كذلك درسا فى تفسير قوله تعالى : ان قارون كان من قوم موسى الآيات) وقد حضره وزير الشؤون الدينية ومفتى العاصمة الذى اطلعنى فى خزانة المسجد على نسخة من صحيح البخارى بخط سيدى عبد القادر الفاسى وقال لى : انها هنا كالشيخة لتصحيح نسخ الصحيح عليها .

للائمة فى المساجد بنيقة او مقصورة خاصة بها بعض الكتب وطاولة والتلفون ومحل الوضوء .. ويظل الامام فى المسجد لمقابلة السائلين او القيام بالشؤون المنوطة به واداء الصلوات والقاء الدروس .

ارجو ان يكون المسؤولون فى بلادنا من القارئين لهذه الاخبار التى جئت بها عن عيان ومن مصادرها الاصيلة ليدركوا مقدار الخطيئة التى يرتكبها من يهمل فى بلادنا تطوير احوال السلك الدينى ويعوق عن مواصلة تخريج العلماء والمثقفين فى المعاهد الدينية المختصة لذلك . انها لخطيئة عظمى ان نرى ما يفعل اخواننا وجيراننا ونسير نحن فى هدم ما خلف اسلافنا ولكن : (ان ربك لبالمرصاد) .

الطبقية الثقافية

« ... قد تكون ظاهرة التخلف المتولد عن قرون من الجمود الفكرى والسياسى والاضطهاد الاستعمارى اكثر ظواهرنا المعاصرة خطورة على مستقبلنا ومصيرنا . والتخلف الذى نعنيه يتجاوز انخفاض مستوى المعيشة والهبوط الفكرى لدى المثقفين والحكم المطلق فى السياسة . ان هذه امية متفشية الى اقصى حدود التفشى لدى جماهيرنا العربية . واذا استثنينا القليل من الجهود التى تذبلها بعض المصالح العربية ، فان الامية فى مجتمعنا قد بلغت حدا مخينا يجعل اى نوع من انواع المشاركة الفعالة لهذه الجماهير فى معركة المصير غير مأمونة العواقب ، وغير ذات اهمية . ومن الجناية على هذه الجماهير ان ثرواتها الطبيعية ومصادر دخلها الاساسية تصرف فى شتى انواع البذخ والترفيه على اقلية محظوظة وطبقة ممتازة فى عصر نحن فى اشد الحاجة الى الثقافة الشعبية ونشر الوعى وازالة الحواجز الطبقية وتكوين مجتمع « الصالح العام » .

ولابد من الالحاح على هذه الطبقية الثقافية التى تميز واقعنا العربى . وليس يخاف أن قرون الجمود وسنوات الاستعمار المظلمة قد مكنت لطائفة من الشعب العربى أن تسمن فكريا كما سمنت اقتصاديا . وبذلك تكونت « نخبة » ممتازة فى ميدان الفكر والثقافة كما تكونت « اقطاعيات » ممتازة فى ميدان الاقتصاد والاجتماع . واذا كانت هذه الاقطاعيات قد بدات تتساقط كأوراق الخريف فى الوطن العربى ، فان النخبة الثقافية ماتزال تهد جذورها وتبسط نفوذها ... »

من بحث عنوانه « من حضارة الشعر الى حضارة العلم » للدكتور ابو القاسم سعد الله ..

د . محمد العربي ولد خليفة

استاذ بكلية الآداب

جامعة الجزائر

الإلتزام الإيديولوجي

في البحث العلمي الإجتماعي

على الرغم من ان قضية الالتزام الايديولوجي وعلاقته بالبحث العلمى الاجتماعى لم تكن الى عهد قريب من بين الموضوعات التى تؤرقنا فى الجزائر ، فانها تعتبر فى الواقع اساس البحث فى هذا الميدان ومحور الجدل فيه .

وليس بدعا ان تكون الايديولوجية هى منبع البحث فى العلوم الاجتماعية ومصبه ومركز الاهتمام ومداره ، وليس غريبا ان تتنوع التجربة الانسانية وأن تتعدد بالتالى الواجهات التى تعرضها فان الناس كما يقول (هوايت هيد) يطلبون من جيرانهم قرابة تكفى للفهم واختلافا يثير الانتباه وجلالا يبعث على الاعجاب ، غير ان الذى يعد بحق ردة وبدعة هو اعتبار المجتمع مجرد مادة خاملة يمكن وضعها فى انبوبة اختبار فتنصهر باللهب وتتفاعل بالاحتراق ، او النظر اليه وكانه لوحة مطرزة يحوم حولها الفكر من بعيد ليتأمل ويمنطق ويجرد وينسق دون أن يقتحم الميدان ويتمرس بالواقع الاجتماعى ويشاهده عيانا .

ان الايديولوجية جزء من الواقع الاجتماعى تمتزج به ولا تنفصل عنه فهى مجموعة الافكار والمعتقدات واتجاهات التصور والتصديق التى تشخص جمعا معينا من الناس سواء اكان هذا الجمع امة ام طبقة ام مذهبا ، ويعرفها ماركس فى الموسوعة السويدية وفى مواضع اخرى — مع انغلز — فى المانفستو بانها المذهب السياسى الشرعى الذى يمثل الغطاء الفنى والفلسفى للانتاجية الاقتصادية كاساس للبناء الاجتماعى .

ويذهب كل من كارل مانهايم وفرو من وبيكر الى اقامة علاقة وثيقة بين الايديولوجية والتغير الاجتماعى فى مختلف صوره وانساقه وبالعلوم باعتبارها اداة التكنولوجية الاجتماعية ، فباستثناء الدين — الذى يبدأ من اسس مطلقة ليتراجع منها الى جزئيات يفرغ عليها قوة المسلمات اليقينية — فان كل علم فى حاجة الى اطار نظرى يكون مرجعا للتبرير .

٢ — وليس القصد سرد تعاريف الايديولوجية او مناقشة تطور مدلولها خلال المذاهب وعبر تاريخ الفكر (١) فان الذى **يعنينا هنا هو تعرف** الصلة بين العلم — والعلم الاجتماعى بوجه خاص — وبين الايديولوجية ولكى تتضح هذه الصلة ينبغى ان نضع فى حسابنا جملة قضايا اولية :

اولا : اذا كانت العلوم الاجتماعية قد تعددت واو غلت فى التخصص فان الواقع الاجتماعى واحد لايتعدد فهى اشبه بالروافد التى تخرج من نبع واحد لتعود اليه بعد مطاف طويل اكثر غزارة وجدة وثراء ، غير ان هذه العلوم تعانى فى جميع دوائرها من التعقد فى الموضوع والقصور فى التعميم والاتساع فى التضمن والنقص فى الشمول وهذا ليس بنقص فيها اذا اخذنا بعين الاعتبار سلم تطور المعرفة من المستوى اللاعضوى الى العضوى الى مافوق العضوى . ان العلوم اللاعضوية استطاعت أن تصل الى درجة عالية من الضبط واليقين والتعميم والقابلية المرنة للتطبيق فقد برهن مثلا قانون الجاذبية لينوتن على وضوحه وصدقه فى مراحل التجريب والتفسير والتطبيق ولعل هذا ما جعل الفزيائى البريطانى تومسون يقول : « ان النظرية سياسة اكثر منها عقيدة فموضوعها هو الربط بين الظواهر او التنسيق بينها بغية الايحاء بالتجربة او استثارتها فوق اى اعتبار آخر »

ولذلك ينبغى التسليم بادئ ذى بدء بأن هناك عددا محدودا من الظواهر يمكن فهمها بعدد قليل من المفاهيم والفروض وبدون هذا التسليم يتوقف كل مجهود علمى ونتراجع الى الفكرة العتيقة التى تزعم بأن الطبيعة خواء وأن الجهد الفكرى هباء .

ان المفاهيم والفروض التى تفهـم ظواهــــر الطبيعية فيضوئها هى فىالواقع من ابتكار الانسان فليس للعلم وقوانينه وجودا مستقلا يجعله جزءا من الطبيعة فالعلم وقوانينه بهذا المعنى جهـد يبذله الانسان ليبسط الظواهر ويفهم سننهــا ويتحكم فى سيرها .

وهذا يعنى ان هذه المنطقة ليست بمنجاة من الاحتكاك بالايديولوجية فقد واجهت النظريــة النسبية ردود فعل عنيفة فى الاتحا السوفياتــى واطلق عليها البعض اسم النظرية الرجعيــــة الاينشتانية لانها تشك فى احد مبادىء الماركسية وهو موضوعية الحقيقة وذلك حتى سنة ١٩٥٥ عندما اكد الكسندروف انه لاتعارض بين النظرية النسبية والماركسية لان الاولى جزء من الحقيقة الموضوعية غير المشروطة ومن هنا اتضـــح ان ما هو نسبى يختلف عما هو غير موضوعى .

ويـاتـــى فى المستـــــوى الثـانـــــى العلوم العضويــــة المتمثلــة فى الفزيولوجيـــــة والبيولوجية وفروعهما التى حققت فى القــــرن الماضى تقدما باهرا على يد دارون ولامـــارك وكلود بيرنار الذين استخدموا مناهج المستـــوى السابق « اللاعضوى » فى دراســـة الظاهـــرة الحيوية .

اما العلوم فوق العضويـــة وهـــى العلــــوم الاجتماعية فهى تختلف عن المستويين السابقين وان كانت تنتمى اليهما ــ لان الانسان كائــــن عضوى يعيش فى محيط بعضه فيزيقى ــ اقول ان هذه العلوم تقع فى اكثر المناطق تنوعا وتعــقدا وتغيرا ، فلا مراء فى ان الانســـان هـــو اعــقد الكائنات طراكما انه منشىء المعرفة وجانى ثمارها وهو فى هذه المنطقة يجد نفسه دارسا ومدروسا عارفا ومعروفا وهذا هو سر تاخر العلوم وحاجتها المتزايدة للاستعانة بمناهـــج ونتائـــج العلـــوم الرياضية والطبيعية والبيولوجية ، ففى علم الاجتماع نجد ان هناك علم اجتماع رياضى وآخر فزيائى وثالث عضوى ورابع ميكانيكى وتكشف المقارنة التالية التى يعقدها كارى بين القوانين الفزيائية والاجتماعية عن مطامح واحد من اكثر العلوم الاجتماعية تقدما :

القوانين الفزيائيـــــة

١ ــ تنجذب جميع اجزاء المادة بعضها ببعض ، ويكون الجذب اطراديا بالنسبة للكتلـــــة وعكسيا بالنسبة للمسافة .

٢ ــ تخضع المادة لعوامل مركزية ولا مركزية فتعمل الاولى على خلق مراكز محلية بينما تعمل الثانية على هدمها وخلق كتلة مركزية واحدة تخضع لقانون واحد .

٣ ــ كلما كانت هذه العوامل تامة كلما كانــت حركة الاجسام اكثر وحدة واقــرب الـــى الثبـــات .

٤ ــ كلما اشتد فعل هذه القوى او العوامــل كلما كانت الحركة اسرع والقوة اكبــر .

٥ ــ كلما كانت القوة والحركة الناتجة كبيــرة كلما اسرعت فى حركتها واتجهت الى تفكيك الكتل وافراد الاجزاء المكونة لها وكلما كان الاتجاه نحو الاجزاء اكبر كلما كان جمعها اسهل واسرع والقوة الناجمة اعظـم .

القوانين الاجتماعية المشابهـــــة

١ ــ يخضع الانسان لنفس القوانين فينجــذب الافراد بعضهم لبعض ، ويكون الجــذب طرديا بالنسبة لعدد السكان وعكسيـــا بالنسبة للابعاد والمسافات .

٢ ــ وبالمثل تنجذب المراكز المحلية الانســـان فى اتجاه واحد بينما تجذبه المدن الكـبيرة ــ التى هى بمثابة مراكز للعالم ــ فى اتجاه آخــر .

٣ — وبالمثل كلما كانت هذه العوامل تامة التوازن كلما كان الاتجاه اكبر نحو الشخصيات الفردية واتساع مدى الارتباط والتضامن داخل المجتمعات المحلية وكلما زادت الثورة والحرية زاد الاتجاه نحو الانسجام والسلام .

٤ — يصبح الانسان نتيجة لاتساع نطاق الحركة واشتداد القوة اكثر خضوعا لقوانين الاجتماع الانسانى .

٥ — تنمو الفردية بسبب اختلاف ظروف العمل التى تستتبع اختلافا فى طلب الانتاج ، وكلما كان الاختلاف اكبر كلما كانت قدرة الانسان على توجيه قوى الطبيعة اعظم .

ثانيا على الرغم مما يبدو من تباعد العلوم الانسانية من ناحية الموضوع والمناهج والادوات وتشتت نتائجها عند التفسير فانها بلاريب تلتقى فى قطر الدائرة المعرفية ومحورها الا وهو الانسان ، فان الظواهر سواء اكانت اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية هى فى النهاية من صنع الانسان ، منه تبدأ واليه تعود فهو الذى يعطيها مدلولها وهو الذى يتلقى آثارها باعتباره فردا وعضوا فى جماعة ، وهذا الانسان — كما يقول مود سلى

اعظم من أن تفسر مظاهر نشاطه طريقة واحدة من البحث سواء اكانت ماكروسكوبية (تتبع العالم الاكبر أو ميكروسكوبيه (تتبع العالم الاصغر) .

ثالثا ان العلم قد اصبح وثيق الصلة بالمجتمع والذين لايزالون يقيمون الحواجز والفواصل بين العلم والحياة الاجتماعية بين النظرية وامكانيات تطبيقها هم فى الواقع ضحايا لاوهام (التيوريزم) أو التنظير .

ان العلماء يشعرون اليوم بأن على كاهلهم مسؤوليات لابد من مواجهتها بثقة ورباطة جاش ويمكن اجمال أهم هذه المسؤوليات فيما يلى :

١ — ابراز ما فى العلم من اخطاء مثل نظرية الاجناس البشرية وابراز الاخطاء العلمية فى الآراء المتعلقة بالحركات الاجتماعية الهدامة .

٢ — تنظيم النقد العلمى عن طريق الجهود التعاونية حتى لايطغى الضجيج والعناد على الحقائق المتزنة .

٣ — تقديم الادلة المادية على ما بين العلم والشؤون الاجتماعية من صلات قوية حتى يقتنع العلماء بضرورة اسهامهم جميعا فى الشؤون الاجتماعية لخير العلم نفسه .

٤ — وصف التحسينات الاجتماعية المرغوب فيها للتقدم العلمى وايضاح أن النظم الاجتماعية السيئة تعوق تقدم العلوم وأن هذا التعويق نفسه قد يؤدى الى نظم اجتماعية اسوأ .

٣ — ولتوضيح ذلك يمكن أن نضرب مثلا من ايديولوجتين متباينتين :

ففى الايديولوجية الفاشية تخمد أنفاس الحرية العلمية وتطمس كل الحقائق التى لاتلائم أهداف الجماعة الحاكمة ، وسرعان ما يجد العالم نفسه مسخرا لخدمة اغراض ونزوات عابرة وهكذا تنطفىء كل ومضات الخلق والابداع ولا تنقدح جذوة الاصالة والابتكار .

وتجد هذه الايديولوجية تربة خصبة فى النظام الراسمالى فهو الذى يفرزها وفى ظله تنمو وتترعرع ، وقد أوجز آدم سميث فى كتابه المعروف عن « حب الثات : مبدا التعامل السائد فى المجتمع الانسانى » الخصائص التى تجعل

النظام الراسمالى يحمل دائما بين جنبيه خطر الفاشية يقول : اننا لا نتوقع غذاءنا من الجزار او الخباز صانع الجعه على أساس حبهم للخير ولكن على اساس حبهم لانفسهم ولا نتحدث « اليهم البتة عن ضرورياتنا نحن بل عن استفادتهم فما من أحد غير المتسول يقبل الاعتماد اساسا على حب مواطنيه للخير . »

ويبدو اثر الايديولوجية الاشتراكية فى صورة مخالفة تماما فمهمة العلماء فيها هى التدعيم العلمى والعلمى لابناء الاشتراكى ودراسة القوانين التى تحكم عملية الانتقال الى الاشتراكية الحقيقية والكاملة وذلك باقامة علاقات اجتماعية وثقافية واسلوب حياة مطابق لاسس النظرية الاشتراكية وهى اسس تربط بين الحرية والتقدم من خلال التطور التاريخى وتأخذ بعين الاعتبار العناصر المادية وان كانت لاتقف عند حد تجميع السلع فالتقدم يعنى نمو الحرية وهو يتكون بالتالى بتزايد السيطرة العاقلة على البيئة المادية وعلى ظروف الحياة الانسانية وتتضمن هذه السيطرة ثلاث عناصر متميزة :

ا — نمو الصناعة والتكنولوجيا وبالتالى نمو الانتاج .

ب — سيطرة الانسان الجماعية على علاقته الاقتصادية وكافة شروط الانتاج والتوزيع .

ج — مقدرة الانسان من خلال هذه السيطرة على تنمية خصائصه الانسانية المميزة .

ه — اقتناع العلماء الذين لايذيعون آراءهم السياسية والعلمية بتعضيد الحركات الانشائية التى تقوم على اسس سياسية عادلة وتعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية .

ويوضح المثالان التاليان اثر الصراع العقائدى فى صياغة النظريات العلمية وتوجيه مناهج البحث .

ا — واجه علم النفس فى الثلث الاول من هذا القرن مأزقا حرجا عندما أنكر متطرفو اليسار نواحى النقص الوراثية فى الانسان واعلنوا ان القياس النفسى —

بدعة برجوازية تكرس الفروق الفردية وتبرر الاستغلال الذى تمارسه الطبقات الكادحة بينما الناس فى الحقيقة سواسية كأسنان المشط وان المسؤول عما بينهم من فروق هو النظام الاجتماعى الذى يتيح فرص النمو العقلى والسواء النفسى للمحضوضين ويحرم غيرهم من الذين ينشأون فى بيئات فقيرة . وانتهى هؤلاء المتطرفون الى رفض علم النفس الفارق منهجا وموضوعا لانه علم

يناقض تعاليم العدالة الاجتماعية المطلقة وينطلق من مسلمة مؤداها ان المواهب فطرية وان وجود الطبقات المسيطرة امر طبيعى ومشروع .

اما متطرفو اليمين فقد وجدوا فى القياس النفسى التهم المنشودة ، ولذلك ازدهرت كثير من الابحاث فى شمال امريكا وفرنسا وبريطانيا والمانيا وايطاليا تزعم أن الانحرافات النفسية والاجتماعية تورث مثلما يورث لون الشعر وطول القامة واستخلصوا من ذلك تعميمات مضللة مثل تلك التى انتهى اليها ديفنبورت والقائلة بان بيض امريكا اذكى من زنوجها وأن الاجرام سلوك موروث فى قبائل الجوك والكاليكاس وأن الآريين اقدر على الابداع من اى جنس آخر ، وهذا ما يفسر ازدهار اساليب القياس النفسى واوجه تطبيقه فى تلك البلاد لان العمال يمكن ان يسرحوا بوسائل فنية لاخفاقهم فى اختيارات الانتقاء والتوجيه المهنى والتلاميذ يصنفون فى فئات حسب نسبة الذكاء ويحرمون باسم العلم من دخول باب الجامعة الخ ..

ب ـ لقد لعبت الايديولوجية الراسمالية فى المجتمعات الغربية (فرنسا وبريطانيا بوجه خاص) دورا حاسما فى توجيه الدراسات الانثربولوجية نحو الاتجاه التطورى فقد اعتبرت الثقافة (٢) الغربية أرقى ما وصلت اليه الانسانية عبر تاريخها الطويل بينما كان ينظر الى بعض الثقافات السائدة فى افريقيا وآسيا واستراليا باعتبارها تمثل نقطة البداية ولمعرفة الاشواط الوسطى التى قطعتها الثقافات ينبغى القيام بدراسات تراجعية يكون المعيار فيها هو النقطة الحضارية التى يقف فيها الغرب اليوم ، وفضلا عما فى هذا الافتراض من تجنى يقوم الثقافة من جانبها التكنولوجى فحسب ويغفل عن اسس التنظيم الاجتماعى الاخرى مثل النسق الاخلاقى والدينى الخ .. فضلا عن ذلك فان الهدف الحقيقى لهذه الدراسات هو الوصول الى فهم اعمق لهذه الشعوب المسماة بدائية تمهيدا لاستغلالها واستعمار اراضيها ولم يكن عجبا ان يقوم الانتربولوجيون بعمليات الاستكشاف الاولية قبل كل حملة استعمارية ، وهكذا سخرت الايديولوجية علما من احدث العلوم ووجهته وجهة خاطئة تتخفى وراء مسوح العلم .

٤ ـ ان العالم لايلبث أن يقتنع خلال الشوط أو وهو على مشارف النهاية بأن هناك قضية وحيدة جديرة بأن يكافح من اجلها هى قضية الانسان فى آلامه وتطلعاته فى سعادته وشقائه . لقد قضى راسل زهاء نصف قرن وهو يشيد صرح الرياضة لبنة لبنة بنصل « أوكام » الصارم حتى اصبح ، امامها والداعى لها والذى وطاها للجميع ولكنه وجد نفسه فى نهاية الشوط أمام سلسلة لاتنتهى من الطوطولجيات (تحصيلات حاصل) لم تغنه شيئا ولم تشف غليله التواق الى الحقيقة المتمثلة فى الواقع الانسانى كما هو فى الهنا والآن ولعل هذا ما جعله يختم سيرته الذاتية بهذه الكلمات المؤثرة :

« لقد كان من نتائج الحرب انها جعلت من المحال بالنسبة لى أن أواصل حياتى فى عالم من التجريد اذ تعودت أن أرقب الفتيان وهم يرحلون فى قطارات نقل القوات المسلحة لكى يذبحوا على ضفاف نهر السوم ، لان القواد كانوا اغبياء وكنت اشعر بحنو موجع على اولئك الفتيان ، وكنت اجد نفسى وقد اتحدث مع العالم الواقعى فى قران من الاثم وكل ما كان لدى من افكار محلقة عن عالم الافكار المجرد بدا لى هزيلا واقرب الى التفاهة بازاء ما كان يحيط بى من العذاب الشامل وبقى العالم غير الانسانى ملاذا الجالية من وقت لاخر وليس وطنا يبنى فيه الانسان مسكنه الدائم • »

محمد العربى
(للمقالة صلة)

---

(١) بدأ استخدام كلمة ايديولوجية بمعناها الحديث فىمستهل القرن التاسع عشر ويقال ان الفيلسوف تراسى Tracy قد اقترح على المجلس الوطنى الفرنسى سنة١٧٩٦ اطلاق هذه الكلمة على الفلسفة العقلية

(٢) يقصد بالثقافة فى هذا المجال ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الاخرى التى يكتسبها الانسان منحيث هو عضو فى المجتمع .

التحرر والعندية

محمد عزيز الحبابى

سنبحث عن الفعاليات الـــتى يتحقق بها التحرر ، وعـــن الطرق التى تؤدى الى هذا التحقيق :

ـ ما هى مفاهيم الملكية ؟

ـ ما هى الانفعالات الـــوجدانية التى تنشا عن التملك ؟

على هذا المستوى ، سنجد ان الفعاليات المحررة تتصل بالتزام : بالصراعات المجتمعية ، وبما يعترى البيئات البشرية من انسجـــام او اختـــلال .

فكرة الملكية وفكـرة العمل

منذ العصور القديمة ومشكل التملك يشغل الفكر الانسانى . ولكى نظهر ارتباطه بمشكـل التحرر ، قد يكفينا أن ننظر اليه فى شكله الممتاز، اى كعلاقة بين الشغل ونتائجـه . لكـن هذه النتائج ان هى الا افعال تثبت الوجود الفعلى لمن يقوم بها ، وتتيح له أن « يتموضع » ويتحقق (١) أما التملك،فحتى حينما يظهر امتدادا للشخصية، فى عالم الاشياء ، أو فى شكـل « مشاركة » ، يبقى مرتبطا ارتباطا لا ينفصل بفكرة الحرية . أليس الرق والاسترقاقية الا صورا ناطقة لذلك؟

لقد كان الاقدمون يميزون ، مثلما نفعل نحن اليوم ، بين نوعين من الملكية ، ملكية المتـاع وملكية العقارات ، ومن الممكن ان يعد العبد من هذا الصنف أو الاخر ، على السواء . كـان العبد الملحق بشخص المالك او المـواطن الحر ينتقل من سيد الى آخر ، ومن يد الى يد،كقطعة من المتاع . وهناك أيضا العبد الذى من صـنف العقارات ، نعنى أنه يشبه الارض التى كـان ملحقا بها . وهذا ما سمى فى عصور سالفـة بالاسترقاق الارضى (٢) .

فمشكلة التملك لا تتعلق بالنظام الاقتصادى فحسب ، بل ان معنـى الانسـان ومصيره ، وتحرره ، كل ذلك يوجد ، ضمنيا فى مشـكل التملك . كما يحتـوى هـذا المشكل عـلى كل العلاقات التى تربط الناس فيما بينهم . ولذلك عكف المفكرون ، باختلاف اختصاصاتهم ، على دراسة علاقة الانسان بالملكية ، سـواء منهم المؤرخون ، أو السوسيولوجيون ، أو الفلاسفة ، أو الايثنوغرافيون ، أو رجـال القـانـون ، أو المشتغلون بالاقتصاد . انها مشكلة اساسية ، لا بالنسبة لفهم حضارة ما وقيمة الحريات التى ترتكز عليها فحسب ، بل كذلك لمعـرفة الكائن الانسانى من الناحية السيكولوجية . فـ « ما هو ملك لنا » يظهر انه يدخل فى اعماق ذاتنا ، ويوسع افقها : فكونى « مالكا لشىء » معناه انى اكون واياه وحدة ، اى ان ما املكه يصير ، ماديا ومعنويا ، جزءا منى . وهذا ما يذكـرنا بمثل مغربى « المال من الاكباد » .

* * *

توجد عند « افلاطون » احدى الانتقـادات الاولى التى وجهت للملكية . لقد دعا ، بطريقة مطردة ، الى نظام فلسـفى ـــ اقتصـادى ـــ سياسى تصبح الملكية فيه ملكا مشتركا (٣) : « اريد ، **اولا** ، أن لا يملك احد شيئا يكون خاصا به الا اذا كان ذلك ضروريا » . ولكن هذا النظام لن يكون مطبقا الا على حراس المدينةالافلاطونية وحدهم ، اما الطبقات المنتجة فانها،على العكس من ذلـك ، تعيـش تحت نظـام الملكيـة الشخصية .

ثم جاء ارسطو فدافع عن الملكية الشخصية ، دون اى حصر ، وعلـى الاخـص منهـا الملكية العقارية ، بل انه برر الاسترقاق (٥) . فالارقاء من الملكيات الشخصية ، بلـه مجـرد « آلات حية » ،وسيظلون كذلك ما لم يتحقق « الحـلم الاكبر » : لو استطعنا « أن نعطـى امرا ، أو نقوم باشارة لكى تؤدى كل آلة عملها (...) لما احتاج المهندسون الى عملة ، ولا الاسيـاد الى عبيد » (٦) . حين ذاك ستحتل الآلات مكان العبيد ، فى جميع الاعمال على اختلافها ، دون

---

(١) موضـع Objectiver

(٢) انظـر : F. de boulange, la cité antique :

(٣) الجمهورية ، الكتاب الثالث A. Koyré « Introduction à la lecture de Platon »

(٥) ان المدينة ، كما يراها افلاطون « ليست مطلقا مدينـة شيوعية » ص ١٤٥

(٦) امتلك ارسطو نفسه خمسة عشر رقيقا !

ان تنتزع من المواطن الحر حريته،ودون ان يحرم من التفرغ للتفكير المجرد والتأمل . انــه حلم عظيم ، غير ان تحقيقــه ليــس الا افتراضات ومتمنيات ارسطية ... فالطابع الانتفـــاعي والنسبي لنظام جائر ، كالاسترقاق ، قد غاب عن ارسطو ، مع أن السفسطائيين قد لاحظوا ذلك قبله . فـ (هيبياس Hippias) يؤكد انه ليس للاسترقاق اى اساس فى الطبيعة البشرية. وكذلك الشأن ، حسب « انتيفون Antiphon » بالنسبة لاعتقاد الاغريق ، انهم مخالفون ، تمام المخالفة ، للاجانب (بربار Barbarus) .

الرواقيون ، هم ايضا ، يودون ان تــؤسس مدينة ذات ابعاد شاسعة يشترك جميع الناس فى تسيير شؤونها العامة . فكر (زينون) فى «شيوعية» تامة تتعدى الاشتراكية الاوليغارشية التى امتدحها افلاطون فى جمهوريته ، فمــؤسس المذهب الرواقى لم يميز مطلقا بين يونانواجانب، بين مواطنين احرار وارقاء ، وبذلك ابرز خطوطا لفكرولوجيا (٧) نبيلة ترمى الى « النزعة المالية » التى ستتضح جليا ، فيما بعد ، عنــد رواقــى الامبراطورية ، مثل (سنيكا) و (مارك اوريل) .

* * *

يجدر بنا ان نذكر ، كذلك ، بموقف ابــى ذر الغفارى ، فى القرن الاول للهجرة (القرن السابع بعد الميلاد) . لقد دعا هذا الصحابى الى الغاء مطلق للملكية الشخصية ، بل وحض على «ثورة الفقراء» من اجل اقامة مجتمع يسوده التساوى التام. لم يكف ، طول حياته ، عن ترديد هذه العبــارة النارية : « ويل للاغنياء من الفقراء ! » ولكن ابا ذر لم يترك اتباعا وانصارا لنظريته ، بل ان الاتجاه المعاكس هو الــذى استأثر بالعقــول والانظمة ، فى كل الامة الاسلامية .

ويتسع نطاق مشكل الملكية ، مع ابن خلدون، فلم يعد يهم الميدان الشرعى فحسب ، ولا ميدان الفلسفة وحده . فنظرية ابن خلدون ترتكز على الواقع المجتمعى والاقتصادى ، اكثر منهــا على اى شىء آخر . فمن ذلــك الحــين ، اصبحت فكرة الملكية مرتبطة بتوزيع الخيرات ، وبالسلطة السياسية ، وباختلاف الطبقات . وشروح ابن خلدون ، فى هذا الموضوع ، تثير قضايا مهمة صارت فيما بعد ، قضايا المصلحين الاقتصاديين



ارسطو

والمجتمعيين ، وقضايا الموسوعيين ، مــــثل « برودون Proudhon » « وكونسيدران Considérant » و « انجلز Engels » و « ماركس Marx » (٨)

يرى ابن خلدون انه يجب ، قبل كل شىء ، ان نعتبر مختلف اصناف الخيرات ـ من حيث فائدتها

(٧) فكرولوجيا Idéologie

(٨) ارسطو ، كتاب السياسة ، ج ١ ، ص ٤ . ان افلاطون ، بالرغم عن كونه من اسرة ارستقــراطية ، شجع فصرح بان للارقاء عقلا . يمكن اعتبار هذه النظريةجد ثوريــة اذ ذاك .

العلمية . فالشىء لا يمتلك حقا الا اذا استعمل. فالاولية هنا قد اعطيت لاستعمال الشىء الفعلى، مما يخالف تماما المفهوم القانونى للملكية فى الفقه الرومانى .

هكذا يقترب ابن خلدون من ابى ذر الغفارى، لكنه لا يذهب بعيدا فيلح فى الطلب بالحذف التام للملكية،يرى ابن خلدون أن الملكية شىء معنوى ضرورى . ولكن بما انه مفكر ذو نزعة انسية (٩) واقعية ، دعانا الى أن نهتم بالحاجيات الضرورية قبل ان نفكر فى الكماليات والبذخ ،



افلاطون

حتى يتسنى للجميع ان يحصل على ضمانات بمقتضاها يرضى حاجياته الحيوية .

* * *

تطرح الملكية ، فى العصر الحديث ، مشاكل اكثر تعقيدا مما راينا . فالعلاقات البشرية تتركز ، باستمرار ، فى وسائل الانتاج المختلفة ، وطرق تغيير المادة ، وقابلية التملك والسيطرة على هذه المادة ، وكسب المنتجات التى تصنع منها بالعمل . من هنا اصبح الشغل جزءا صميميا من وعى الـ « انا » لذاته ، بصفة الـ « انا » فردا ، وبصفته ملتزما بروابط مع الـ « نحن » .

فى ديالكتيك المبادلات ، وفى علاقة المالك بالممتلكات ، يظهر العمل ، (رغم التعارض بين الطبقات) ، كمنبع للقيم ، ومكون شامل ، واساس للوحدة داخل التعدد .

هناك مستويات يجب التمييز بينهما :
اولا : مستوى العمل الذى يحررنا بارضاء الحاجات البيولوجية .

ثانيا : مستوى العمل (بعد أن أصبح فنا) . انه يحررنا من ربقة حاجات تضغط علينا جدا . فبمساعدة العمل نتجاوز الحياة النباتية المحض، ونعى انفسنا بأننا لسنا مطلق جهاز هضمى .

فالفكرة الحديثة عن تحرر الانسان (١٠) تطرح متصلة اتصالا وثيقا بالقدرة على التملك ، والعمل ، والربح ... وبما أن الحريات تتداخل فى سياق المحيط التاريخى والاقتصادى للبيئة ، كان من النادر أن نصادف فلسفة انسية كبرى ، وخاصة فى عصرنا ، لا تعطى تلك المشاكل مكانا خاصا .

مثلا : لا يمكن ابدا شرح مذهب (هيجل) دون ان ناخذ بعين الاعتبار ما فى هذا المذهب من اتجاهات سياسية ومجتمعية . ان فلسفة (هيجل) تعكس ، من بعض الوجوه ، مطامح الطبقة الوسطى بالمانيا ، فى القرن التاسع عشر،

(٩) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، الباب الخامس ، الفصل الثانى ، وكذلك كتابنا Ibn Khaldûn, Paris, Seghers, 1969.
(١٠) انسن : HUMANISTE

تلك الطبقة التي تريد التحرر من النظام الاقطاعي . بيد انها لم تتوافر بعد على قوة تخولها قلب الاوضاع ، فكانت مضطرة ان تذعن، دون رضى ، لمخلفات الماضي .

ان (هيجل) يهتم بعلاقات كل طبقة بالشغل، كما يهتم بما بين الطبقات من ترابط ، وهذا معنى من المعاني الممكنة بالنسبة للجدل الهيجلي حول « دياليكتيك السيد والعبد » . فالدور الاساسي للرقيق هو ان يصنع اشياء تصبح ملكا للاخرين. وبما ان وجود الرقيق مقيد بوجود الاشياء التي يصنعها ، فان الذي يملك تلك الاشياء يسلب الرقيق حريته ويجعل كينونته الحقيقية تنسج من استرقاق ذاته وتنحصر فيه . ولكن ، بما أن (هيجل) محافظ بالرغم عن رفضه للعبودية التي يتضمنها النظام الصناعي الذي يخضع فيه الفرد لعمله ، يعتبر نظام عدم مساواة الملكية الفردية نظاما ضروريا . ولكي يتخلص (هيجل) من هذا التناقض ، يحول المشكل الاقتصادي والمجتمعي ، الذي تطرحه ظاهرة استلاب الحرية ، الى مشكل فكرولوجي للعلاقات بين الوعي وموضوعه . فدياليكتيك « السيد والعبد » تبقى ، اذن ، في مستوى العلاقات بين وجدان ووجدان آخر .

* * *

اما « كارل ماركس » ، تلميذ ، هيجل ، فيطرح من جديد مشكل استلاب الحرية ، حرية العامل في النظام الراسمالي ، ويحاول ان يجد لهذا المشكل ، على الصعيد الاقتصادي والمجتمعي ، حلا اقتصاديا ومجتمعيا . يرى ماركس أن لا وسيلة مرضية لازالة سبب استلاب الحرية الا بالغاء نظام الملكية الخاصة .

ربما اعترض على ماركس بما يلي :

نشاهد اليوم ان الامم السكندنافية قد حافظت على الملكية الشخصية ومع ذلك حققت رقما عاليا من الرقي المادي والرفاهية ، لصالح مجموع السكان ، على السواء ، دون فروق طبقية ، مما وفر لكل مواطن الشروط الخارجية للتحرر. اما في الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الشعبية ، فبالرغم عن تقرير مبدا حذف الملكية الفردية لم تتهيأ بعد الاسباب الاقتصادية ، والمادية على العموم ، للتحرر الكامل .

فما يلتزمه مفكرو الجبهة الشرقية الماركسية من تعلق بالواقعية ومن نقد ذاتي هو ما جعلهم يبدون تخوفات من تضخم شروط الرفاهية المادية ، فقد يعوق ذلك ، في نظرهم ، السير الحثيث نحو التحرر الحق ، بسبب تعود الشعوب على الراحة ، وبالتالي على المواقف السلبية . اليست الحياة البورجوازية السهلة هي ايضا عنصرا رئيسيا فيوجو د الاستلاب ؟

اذا لاحقنا تخوفات المفكرين الماركسيين السابقة حتى نتائجها البعيدة ، امكننا ان نستخلص أن حذف الملكية الشخصية وتأميم وسائل الانتاج لا يكفيان لتحرير الانسانية . فلربما تولد عن التصميم ، وعن سيطرة الحزب والنقابة ، واجهزة الدولة ، اسباب جديدة للاستلاب . هذا ما جعل الماركسيين يهتمون بالبحث عن وسائل اخرى لمقاومة الشعور بالحرمان والقلق ، مثل توفير مناطق جديدة للاعمال المجانية والمنافسات ، وتكثير كتائب الشغل ، الى غير ذلك مما يتيح للشخصية الانسانية مزيدا من التفتح . فحذف الملكية الخاصة وتأميم وسائل الانتاج ، ربما يقضيان على جوانب من الاستلاب الاقتصادي المتجسد في سيطرة راس — المال على العمل . لكن هذا لا يزيح من طريق التحرر حرما آخر ، هو استلاب عالم التصنيع . ان قضية الحرية مرتبطة بارضاء حاجات المواطنين ، الا ان الرغبات والنزعات من صميم الحاجات الملحة الاصيلة .

وفي فرنسا، خلافا لرجال الاقتصاد الكلاسيكيين الذين غضوا الطرف عن العواقب المجتمعية



هيجـــل

للتصنيع ، كانت لـ « سان سيمون Saint Simon و (بردون Proudhon و (فــورى Fourier نظرية عقلية ، او عقلانية ، عن ازمات وشقاء هذا العصر ، الا انهم لم يصلوا الى تشاؤم يشمـــل الحاضر والمستقبل (كما هو الحال عند رجال الاقتصاد الكلاسيكيين) بل يعتبرون الشر غير محتم ولا خالد : ان اقتصـــادا محكـم التنظيم سيقضى على هذا الشر .

للعامل الاقتصادى قدرة على التأثير فى ســير التاريخ العام ، بحيث ان العلوم والفنون والعقائد لما جرياته ، كما ان السلوك الاخلاقى والحالات النفسانية، لدى الفرد والجماعات، ما هى ايضا الا رد فعل للبنيات الاقتصادية . فنحن ، وان كنا نحيا بالعنديات ، لا نستغنى ، مطلقـــا ، عن « اشياء » اخرى هى ايضا اصلية ومتجذرة فى الاعماق البشرية ، تؤثر فى سير تاريخنا الفردى وتاريخنا الجماعى ، نصارع من اجلها ونتقبل جسيم التضحيات لتحقيقهـــا ، لانها من كيـــان كينونتنا ، وقد ترغمنا احيانا على ان نزهد فى العنديات دفاعا عنها ، وتضحية للحفاظ عليها : ان سلوك المحب الحق وسلوك المؤمن الصادق ، مثلا ، يعكسان الصراع بين الكينونة والعندية ، كما يعكسان غلبة الاولى على الثانية ، فى الكثير من الحالات .

لم تكتسب فكرة « الملكيـــة » الا خـــلال تطور المجتمع البشرى . فالملكية تتصل بفكرة «الثروة»، فى المعنى الذى يعطيه لها النظريون : كل ما يشبع حاجة بشرية . ففى اليوم الـــذى تصـــل فيـــه « العلوم الانسانية » الى درجة من التقدم بحيث يصبح الشخص اكثر تعرفـــا على حاجـــاته فى مجموعها، ويستطيع ارضاءها بقدر كبير،يتحقق التحام تلك العلول مع « علوم الطبيعة » ويغدو مجموع ثروات العالم ملكا مشتركا بين جميع البشر .

ليس هناك اى مـــانع ، نظرى او مادى ، يتعارض مع هذا الاتجاه . ان تخوفنا مما يخبئه الغد ، وقصورنا عن معرفة تامة للكون ، كل ذلك جعلنا عديمى الثقـــة بالمستقبل ، كثيرى التكالب على الثروة ، شرهين . هذا ما توصل اليه ابن خلدون ، منذ ستة قرون ، اذ يقول :

« ... السبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقـــل بتحصـــيل حاجاته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك . فالقوت من الحنطة ، مثلا ، لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة ، من حـــداد ونجار للآلات ، وقائم على البقر ، واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر شؤون الفلاح ، وتوزعوا على تلك الاعمال ، او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقـــدار من القـــوت ، فانه حينئذ ، قوت لاضعافهم مرات . فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم ، اكتفى منها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتـــاج غـــيرهم من اهل الامصــــار ، ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى » (١١) .

(١١) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل الحادى عشر .

قد سبق لابن خلدون فى باب « الكسب والرزق » (من الفصل الخامس) أن بين أن الكسب انما هى قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بين المنتجين وارتفع مستوى الاستهلاك ، فتكثر مكاسب المنتجين حتما ، وتدعوهم احوال الرفه والغنى الى الترف .

اذا جاز لابن خلدون أن يتفاءل ، الى هذا الحد ، فيرى امكانية وجود اقتصاد يقوم على توزيع عادل للمواد الاساسية للحياة ، بين جميع الناس عل ىالسواء ، وذلك منذ ستة قرون تقريبا ، ألا يكون تطبيق النظرية اكثر الحاحا فى عصرنا الحاضر وقد كثرت وتنوعت الوسائل التقنية ، فى ميدان الانتاج ، وفى ميدان المواصلات والتوزيع ، كما توفرت امكانيات ترقية تلك الوسائل ؟

لكن ، بالاسف ، الاحداث لا تسير طبقا لتلك النظرية . فحتى الامس القريب ، كان لرأس المال الاولية بالنسبة للجهود المنتجة ، وان اضافة « رأس » لكافية فى حد ذاتها لابراز ما للمال من تقدير واجلال فى النفوس ، واسبقية على العمل. حقا ، العمل ، بوصفه فكرة ونشاطا مجتمعيا والمحرك الاول للحضارة ، اصبح يزداد دلالة ويفرض كواقع أساسى . لذلك برزت معارضة شديدة الحدة بين « عالم رأس المال » و « عالم الشغل » . فالحضارة ، حاليا ، تعيش مشاكل المزاحمة والازمات التى احدثتها تلك المعارضة.

ان الحياة الاقتصادية التى تنظم الثروات ، وتخصص الملكية الفردية ، تشمل الانتاج ، والمواصلات ، والتوزيع ، واستهلاك الثروات . فاذا تقدمت اصناف العلوم التى تعمل لمصلحة الانتاج ، نما الانتاج هو كذلك ، بل يمكنه أن ينقلب رأسا على عقب . فبوسع الطاقة الذرية ان تحول الجبال الى سهول ، وان تجعل البحيرات مراعى . يتعلق الاستهلاك بالانتاج وبالمفهوم الذى لدينا عن التوزيع ، ويعنى ذلك ، فى نهاية المطاف ، أن الاستهلاك يتعلق بالكرامة الانسانية وبالتضامن بين الاشخاص .

نجد فى بعض البيئات ، ان نظام التوزيع يتيح لبعض الافراد حظوظا على حساب الاخرين . فالملكية تعفى أشخاصا من الاشتراك ، مباشرة ، فى الجهود التى يستفيدون منها ، وهذا يفترض استلاب حرية للبعض لصالح الاخرين . ان الانتاج لا ينمو حسب حاجات المجتمع بل حسب ما حصل لرأس — المال من فائدة . هكذا ، عندما ينسلخ العمل عما يشخصه ، يفقد قيمته المحررة . فما دام نظام الانتاج لا يرتكز على مبادىء اخلاقية ، مثل العدالة والتضامن ، وما دامت العلاقات الاقتصادية تفضل الاشياء المكتسبة (والتى يمكن اكتسابها) على الاشخاص فان الحضارة ستستمر تعاكس انسنة العالم وانسنة اجهزته . الا تعنى كلمة « عزيز » : من جهة ، نادر وقليل (وبالتالى ثمين) ، وفى نفس الوقت ، حبيب الى نفوسنا ؟ ذلك أن « ثمن » الشىء أو قيمة الكائن تعكس الحب الذى نكنه لذلك الشىء أو الكائن .

يتميز توقف الكائن البشرى عن التشخيص بحالات غير سوية ، اهمها شعور المرء بالعجز عن تملك اى شىء ، وهو شعور بخيبة الاستلاب لان العندية ، عند البدائيين ، مساهمة وجدانية « صوفية » ، اذ امتلاك الاشياء عبارة عن علاقة تربط المالك بما يملكه . فمثلا ، للاراضى قداسة لانها أرض الاجداد ، اى استرسال تاريخى ، فهى بذلك ملك للجماعات ، ومن لا « يملك » لا ينتسب الى الجماعة . فللملكية الوراثية طابع مقدس ، لان الاموات يعيشون فيها وبها الى جانب الاحياء ، رغم الموت .

هذا المثال يظهر لنا أن الملكية تزيل عن الممتلكات شيئيتها وتذوتها (١٢) الى حد بعيد ،

---

(١٢) ذوت « صيره ذاتا » فى مقابل Subjectiver

لان عناصر ، كانت فى الاصـــل خـــارجة عن الاقتصاد ، احاطت مفهـــوم التملك بهـــالة من القدسية الى حد انها صارت من مكونات الملكية. وفى الحقيقة ان هذا المظهر الدينى ، بالنسبـــة للبدائيين ، خير ضمان للتملك .

بعد المرحلة المتقدمة بكثير ، اصبحت الملكية تتمتع بقانون شرعى ، واخذ مفهومها يتطور . فالانسانية ليست مدفوعة بحتمية طبيعة الى التملك ، كما ادعاه (برجسون) ، بل على العكس ، ان الحرب التى تشن بين الغنى والفقر هى التى تحدد الملكية فى كل عصر . ولكى يدافع المـــرء عن ثروته ، يلجـــا احيانـــا الى الدين (الطوطم) ، واحيانا الى المشاركة الجماعية بالعمل فى الارض ، والى المشاركة فى الربح (لكى تكون جماعة منسجمة تركز كل اهتمامها فى الدفاع عن الارض المشتركة ، اكثر مما تندفع بحب للحياة المعشرية) .

المجتمات واقامة العدالة الشـــاملة لجميع الاشخـــاص ، نعنى فرض « احتـــرام كرامة الانسانية احتراما عفويا مضمونا بصورة متبادلة، مهما كان الخطر الذى نتعرض له فى الدفـــاع عنهـــا » (١٣) .

كل القوانين الوضعية تضمن حقوقا مكتسبة وتدافع عن مصالح معينة . وبقدر ما يتسع المدى الشخص لحق مكتسب ، بقدر ما يصبح هذا الحق ذا صبغة اخلاقية ويسهم فى التحرر . وعلـــى النقيض من ذلك ، بقدر مـــا تخضـــع المصالـــح الضرورية لشخص وتعوق التضامن بين البشر ، بقدر ما تعاكس الاخلاق (لانها تعاكـــس مـــبدأ العدالة) وتنافى الفلسفة (لانها تحرم الشخـــص من الانبثاق والتحرر) . ان المصالـــح ترتبـــط بالعلاقات المجتمعية ، وبالقوى المنتجة ، وبالطبيعة الانسانية . فهى لاتنعكس فى وعينا ، بكيفية او باخرى ، الا بعد ان تنشأ وتتكون . فمن البديهى اننا لا ندافع عن اية مصلحة الا بعد ان يكون قد اتصل وجودها بوعينا .

لكن ، يجدر بنا ان نحدد ان المصالح التى يدافع عنها القانون ليست وليدة الوعى الانسانى . ان مستوى الوعى المجتمعى هو الذى يحدد محتوى القانون ويحدد الشكل الذى يجب ان يتـــخذه انعكاس اية مصلحة فى وعينا . وباختلاف العصور، تختلف اشكال ذلك الانعكاس . فالقانون ليـــس من القوى الفيزيائية ، او « الطبيعية » ، نعنـــى انه ليس شيئا يوجد مستقلا عن فعاليات الانسان. بل على العكس ، ان القانون نظـــام يصـــدر عن الناس ولصالحهم . فلا يهم مطلقا ان يكـــون الانسان ، عندما يقوم بأى نشاط ، خاضعا لقانون السببية او ان يعمل اعتباطيا . فبطريقة او باخرى، سواء بالنسبة لقانون السببية او بالنسبة للحرية، القانون لا يتكون خارجا عن فعالية الانســـان ، ولكن بفضلها ، يتكون .

اذا تولد عن الشغل (او عن كل فعاليـــة ، بصفة عامة) مقدر متساو من الحزن والفرح ، فهذا لايمنع العمل من ان يكون تاكيدا أصيـــلا

١٣ Proudhon, de la justice dans la révolution et dans l'Eglise, Paris, 1923.

لكينونتنا البشرية : العمل يثبت لن وجودنا ارادة مستقلة ، وقدرة على الحركة والتغير . بفضل هذه الارادة وتلك القدرة ، نفرض وجودنا على الطبيعة وفى الطبيعة ، اذ نعطيها دلالة ونجعل منا مجتمعا متضامنا يرمى الى التعالى . فالعمل فى مفهومه هذا ، اى بوصفه اداة فعالة للتحرير ، غالبا ما كان مجهولا من لدن القدماء ، كما يشهد بذلك ما يحمله سقراط من احتقار للاعمال اليدوية والتقنية ، طبقا لما رواه عنه تلميذه افلاطون : « كيفما كانت الخدمات التى يمكن ان يؤديها مهندس ما ، فانك تحتقره ، ولن ترضى ، ابدا ، ان يتزوج ابنك بابنته » (١٤) . اما ارسطو (١٥) فقد ارتاى انه لامكان فى المدينة الفاضلة النموذجية للصناع والحرفيين .

(١٥) أرسطو ، كتاب السياسة ، ١٧ ، ٣ .

14) Platon, gorgias, 512 b, ch. premier.

الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

لقد اصبح الشغل الشاغل بالنسبة الى الاقطار النامية وشعوب العالم الثالث هو الازدهار والتقدم ، الا ان هذه الاقطار والشعوب ليس لها الا سهم قليل فى الابتكار والاكتشاف ، ولذلك فان هذه الرغبة الملحة فى الازدهار والتقدم كثيرا ما تنقلب الى نزعة شيئية واعنى بهذه العبارة حرص الدول المتخلفة على كسب جميع « اشياء » الحضارة ومصنوعاتها ، كالسيارة وجهاز الاذاعة وما الى ذلك .. انه لمن الغريب حقا ان يغيب عن اذهان البعض بان الرفاهية ليست كل شىء فى الحياة ، وان لباس البذلة الانيقة وتوفير المرافق الحديثة لا يكفى لكى يرقى بالانسان من وضعية المتخلف الى وضعية المتقدم حضاريا ، فنحن نستورد اكثر مما ننتج .. وبعبارة اخرى ، فنحن ننتمى الى حظيرة الشعوب المستوردة .. وبطبيعة الحال ، نستورد السلع الجاهزة ولا نكلف انفسنا اية مشقة لسلوك دروب الفكر الذى انتج تلك السلع .

من محاضرة الاستاذ / حنفى بن عيسى
الاديب العربى بين التراث والمعاصرة .

نص المحاضرة التى القاها الدكتور عثمان أمين بالملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران

محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي بوهران

د. عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

تصحيح المفاهيم عن اللغة العربية

يطيب لى ان استهل محاضرات هذا « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى » ، فاشكر للقائمين عليه ما بذلوا من جهود لتدبيره وتنسيقه وتحديده . ولا شك ان نظرة الى البرنامج الموضوع له تقنعنا بان ها هنا تقدما حقيقيا ملموسا بالقياس الى برنامج الملتقى الرابع الذى تم فى العام الماضى .

وأول مظاهر هذا التقدم ، فى نظرى ، هو التركيز على القضايا الثلاث الكبرى التى تشغل بال المسلمين فى العالم المعاصر ، واستبعاد قضايا اخرى فرعية قد يكون من شأنها اثارة الخلاف والشقاق بين الاخوة والاشقاء ، وهم أحوج ما يكونون الى التواصل والوئام فى عالم البغى والعدوان . والمظهر الثانى من مظاهر هذا التقدم هو المكان المرموق الذي من حق اللغة العربية أن تستمسك به وان تحافظ عليه، فى امة انزل عليها دستورها بلسان عربى مبين .



د. عثمان امين

والمظهر الثالث للتقدم الذى احرزه هــذا الملتقى هو الانتقال من النظر الى العمل ، ففى حين كانت الفكرة الغالبة على ملتقى العـــام الماضى هى فكرة « التعرف » ، نجد الفكرة الكامنة فى اذهان المشرفين على ملتقى اليوم هى فكرة الثــــورة والتغيير . ربما كان تفسيرى هذا متأثرا الى حد ما بمنهجى فى « الجوانية » . ولكن مظـــــاهر البرانية نفسها تؤيدنى فيما ذهبت اليه ، و‌آية ذلك هى الصيغة الفرنسية التى وضعت لبرنامج هذا الملتقى قد اسقطت او حذفت كلمة «التعرف» ويستوى عندنا ان يكون حذف الكلمة قــد جاء عفوا او عمدا ، والمهــم ا نيكــون الحــذف فى « العقل الباطن » الذى يتحدث عنه علمـــــاء التحليل النفسى منذ النصف الاول من هـــــذا القــرن .

وبعد فيطيب لى ايضا ان اسلك معكـم هذا الطريق الجوانى لحظات ، فأتمثل حصيلة هذا « الملتقى الخامس للفكر الاسلامى » فى صــورة كتاب قيم حافل نقرؤه من عنوانه ، ونتلقــاه فى اوانه . اما عنوانه فهو فى نظرى اقرب ما يكون الى العنوان الذى اختاره الفيلســوف الشاعر « محمد اقبال » : وهو « **تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام** » وتجديد البناء فى ذلك الفكر يقتضــى من المفكرين ان تتجه ارادتهم الى العمل والتغيير ، كما أشرت من قبل . اما اوان الكتاب فهو هذا العصر المفتون المهزوز المكــدود « المحروم من الله » كما وصفه كارل ياسبرز . هذا العــصر الذى ما كاد يفيق من فتنة التكنولوجيا والفرويدية والماركسية والوجودية ، حتى رايناه يقع فريسة للوضعية والذرية والفضائية والالكترونية ! واى عصر هو احوج الى الدعوة الاسلامية من هذا العصر الذى يحق لنا ان نصفه مع كثير من مفكرى الغرب ، بأنه « عصر الجاهلية » ، والعنصرية والغربة ، والعدمية ؟ واعود الى كتابكم كمــا اتمثله قبل ان يعد وقبل ان يطبع وينشر ، فأقول ان من الواضح أنه يشتمل على مقدمة وثــلاثة ابواب وخاتمة . اما المقدمة فقد سمعناها هذا الصباح من وزير الاسلام ، فى جلسة الافتتاح . واما ابواب الكتاب الثلاثة فهى على الترتيب : اللغة ودورها فى الثورة الثقافية ، والاســــلام ومشاكل الاسرة وتربية الجيل،والاسلام ومتطلبات التنمية الاقتصادية . واما الخاتمة فهى القرارت او التوصيات التى يــرى اعضــاء المؤتمر أن يتخذوها او يقترحوها بعد مناقشتهم للقضايـــا المعروضة .

اما الموضوع الذى أود ان اتحدث فيــه هذا المساء فهو عندى اشبه بتمهيد للباب الاول عن دور اللغة فى الثورة الثقافية وهو تمهيد بالضرورة لاننا لا نستطيع ان نناقش اثر اللغة فى الثورة الثقافيــــة الا اذا اثبتنــــا اولا لانفسنــــا ولغيرنا — كما يقــول فيلسوفنــا الفارابــى — ان لدينا لغة متميزة ، وان لدينا ثقافة اصيلة. واذن فعلينا ان نثبت لانفسنا وللعالم ان لغتنا هى العربية ، وان هذه اللغة هى « اقدس ما نملك فى هذه الدنيا » كما يقول الشاعر «هينرش هاينة » ، وعلينا ان نثبت اخيرا — لانفسنــــا ولغيرنا — ان لغتنا ليست على الاطــلاق لغة « متخلفة » ، وانها ليست لغة جامدة ولا عاجزة عن الوفاء بمطالب المجتمعات « المتقدمة » ، بل

هى على الاصالة لغة حية ديناميكية حركية وفلسفية .

وهذا الامر الاخير والمتعلق باللغة هو ما اردت ان احدثكم فيه ، مكتفيا فى مسألة الثقافة بما نبه اليه السيد جمال الدين الافغانى منذ اكثر من ثمانين عاما حين قال : « يتخذ الغربيون فى الشرق اساليب عجيبة للقضاء على الروح القومى ، وقتل التربية الوطنية ، وتقويض الثقافة الشرقية : فتراهم يزينون للشرقيين ان ان ينكروا على قومهم كل مأثرة وكل فضيلة ، ويلقون فى روعهم انه ليس فى لغاتهم العربية او الفارسية او الهندية آداب تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجد يذكر ، ويوهمونهم بأن قصارى المجد للشرقى النابه ان ينفر من سماع لغته ، وان يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وان ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغه من الثقافة الانسانية . الا ليت الشرقيين يدركون انه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهم اساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم »

ولست أستطيع ان ابدا حديثى عن **«تصحيح المفاهيم عن اللغة العربية »** دون ان اشير الى حادثة وقعت لى شخصيا منذ نيف وخمس عشرة سنة ، اذ كنت القى محاضرة عن « اصالة الفلسفة العربية ورسالتها » فى جامعة هارفارد اكبر جامعات أمريكا ، وشاء نفوذ الصهيونية فى الجامعات الامريكية ان يكون المشرف على ذلك الملتقى الدولى للانسانيات هو « مستر هنرى كسنجر » مستشار الرئيس نيكسون الان ، ومفجر القنبلة الدبلوماسية الاخيرة التى لا ندرى اكانت من صنع امريكا أم من صنع الصين . المهم هو أننى كنت اعرف ان « كسنجر » هذا يهودى اكاديمى ، اى صهيونى على الطريقة العلمية ، وانه من اجل ذلك قد عبأ الشبان اليهود بعدد من الاسئلة لاحراجى أمام الامريكان



فختــه

باعتبارى العربى الوحيد الممثل لهذه المنطقة من العالم فى **« ندوة الانسانيات »** هذه . وكان محور الاسئلة جميعها ان العرب لم يصنعوا شيئا فى مجال الفكر عامة وفى مجال الفلسفة خاصة ، وكان ما استطاعوا ان يصنعوه انهم نقلوا بعض التراث اليونانى ، فشوهوه ومسخوه ، لانهم لم يفهموه .... كنت اعلم هذا ، او بعبارة ادق ، حين علمت هذا،اتخذت فى محاضرتى استراتيجية جديدة : احتفظت بالهدوء النفسى طوال المعركة الى ان اشرفت على الخاتمة ، فألقيت القنبلة التى كنت اعددتها واحتفظت بها فى حقيبة أوراقى وهى امامى اراها من حيث لا يرونها ، فقلت فى عبارة مركزة ومكثفة : **« اذا كان للفلسفة العربية على الفلسفة المسيحية فضل واحد ، فللفلسفة العربية على الفلسفة اليهودية فضلان » !**

وتستطيعون ان تتخيلوا مبلغ ما احدثته هذه الكلمة من ارتباك للمستر كسنجر نفسه ، ومن ذعر فى نفوس الشباب الصهيونى فى الجامعة الامريكية . ولما افاق « كسنجر » من هذه الصدمة ، وقف ليستحث صبيانه على التعليق

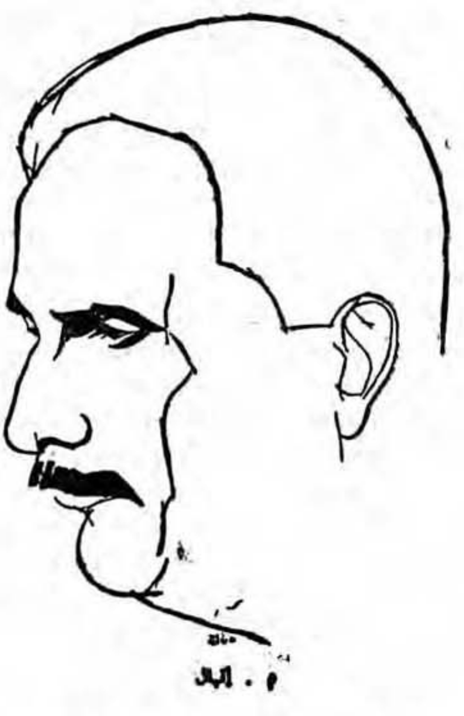
على محاضرتى ، واختار منهم واحدا كان جالسا فى ركن قصى من القاعة . فكان سؤاله طبعا هو ما كنت اريده ان يسالنى ، وكان الجواب الحاسم عليه معدا جاهزا ، وما على الان اخرجه من حقيبة اوراقى الموضوعة على المنصة امامى — كان السؤال خشنا — « كيف تسمح لنفسك وانت فيما يقال استاذ بالجامعة — ان تردد هذا الكلام الفارغ عن فضل الفكر العربى على الفكر اليهودى ؟ » . ولا اكتمكم انى كنت اكاد اطير فرحا عند سماعى هذا السؤال ، وكنت اقول فى نفسى — « والله لقد وقعت فى الفخ يا كوهين » وحمدت الله اذ هدانى الى التكتيك الصحيح فى مواجهة هؤلاء الاعداء ، وهم عصبة — وانا وحدى — واستغفر الله ، واستغفر الله ، لانى لم اكن وحدى ، بل كان الله معى ، وما توفيقى الا بالله .

ولا اطيل عليكم ، فاقول لكم انى طلبت من « المستر كسنجر » ان ياذن لى باستدعاء السائل ليقف على المنصة بجوارى ليوجه السؤال امام المستمعين حتى اتولى الاجابة عليه امام الجمهور فتردد « كسنجر » قليلا،فملت اليه واسررت اليه بانى انما اريده ان يقرا لى شيئا باللغة العبرية التى لا اعرفها ، لاستعين بما يقرأ لى على الرد على سؤاله الوجيه .. وصعد الشاب على المنصة . فاخرجت من الحقيبة كتاب موسى بن ميمون ، شيخ الفلسفة اليهودية ، ومؤلف كتاب مشهور عنوانه بالعبرية « مورى نبوخيم » او « دلالة الحائرين » وطلبت اليه ان يقرا كلام بن ميمون . فاخذ يقرا قراءة متعثرة ، وكنت احاول امام الجمهور ان اصحح له القراءة . وعندئذ اعلن عجزه عن قراءة موسى بن ميمون. فتدخل « مستر كسنجر » ليقول لى ان هذا الاسلوب فى الرد غريب علينا بعض الشىء ، وفى الامر سر اذ كيف تستطيع انت ان تفهم ما يقوله ابن ميمون مع انك لا تعرف العبرية فيما تقول ؟ فقلت له — كلا يا « مستر كسنجر » — ليس فى الامر سر عند العارفين . وضجت القاعة بالتصفيق والضحك . وبعد ان هدأت العاصفة ، وقف احد المستمعين — وظاهر انه لم يكن يهوديا وطلب الى ان افسر لهم هذا اللغز عن الفلسفة العربية والفلسفة العبرية اللتين لا يعرفون عنهما شيئا. فكان جوابى واضحا قاطعا اذ قلت بكل بساطة ان اليهود هنا وفى كل مكان يحاولون ان يخفوا عن العالم هذه الحقيقة الدامغة وهى ان معظم فلاسفتهم فى العصر الوسيط ، وعلى راسهم شيخهم موسى بن ميمون ، انما كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية ، لانها كانت لغة الفكر والثقافة طوال تلك القرون. ولكن المتعصبين اليهود فى محاولتهم طمس المعالم العربية المشرقة زوروا هذه النصوص ، — اذ جعلوا رسمها بحروف عبرية ، بدلا من الحروف العربية ، وموهوا على الناس فى اوروبا وامريكا بل فى البلاد العربية والاسلامية ، ايهاما بان الفكر اليهودى لا صلة له باللغة العربية .

وبعد فاول تصحيح ينبغى علينا ان نقوم به هو ان نكشف عن هذا التزوير ، فنعيد الى مؤلفات اليهود رسمها العربى الاصيل . ولا اكتمكم انى قد نبهت الى ضرورة الاهتمام بهذه المسالة ، والقيام بهذا العمل فى غير ابطاء ، منذ اكثر من ثلاثين سنة . ابان اقامتى فى باريس مبعوثا للجامعة المصرية ، واعدت الكلام فى هذه المهمة بعد عودتى من هارفارد سنة ١٩٥٥ ، وفى مناسبات اخرى كثيرة فى السنين الاخيرة ، حين كتبت الصحافة العربية عن الطبعات الاسرائيلية المزورة للقرآن الكريم . ولكن ما حيلتى ، ونحن نتحمس للاشياء فى حينها ، او بعبارة ادق حين تصدر الاوامر بالكلام فيها ، وسرعان ما ننساها اذا تغيرت الظروف ؟

واعذرونى اذا قلت لكم انى كدت ان افقد الامل فى ان يظهر هذا العمل فى حياتى وانا قد

نيفت على الستين . وقصارى أن انتهز فرصة هذا الملتقى ، سائلا المولى ان يقوى عزائمنا على النهوض بهذا العمل العلمى الخالص ، وهو عمل يسير ايجابى يرد للعربية اعتبارها ، فى وقت نرى فيه ان الشعوبية المتزمة — شعوبية دويلة اسرائيل الجديدة ، لا تؤمن بشىء قدر ايمانها بلغتها العبرية .



واحب ان ابدا كلامى بالتذكير ، فى هذه المناسبة وفى كل مناسبة ، بعبارات من شهادة ابن جنى ، الواردة فى كتابه «فقه اللغة العربية»

« من احب الله تعالى احب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم . ومن احب الرسول العربى احب العرب ومن احب العرب احب العربية ومن احب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها . ومن هداه الله الاسلام وشرح صدره للايمان ، وأتاه حسن سريره فيه، اعتقد ان محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والعرب خير الامم ، والعربية خير اللغات والالسنة ، والاقبال على تفهمها من الديانة ، اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد .

ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها ، والوقوف عند مجاريها ومصارفها ، والتبحر فى جلائلها ودقائقها ، الا قوة اليقين فى معرفة اعجاز القرآن وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة التى هى عمدة الايمان ، لكفى بها فضلا يحسن فيها اثره ويطيب فى الدارين ثمرة .

ان شهادة ابى جنى هى عندى برنامج عمل كامل لهذا الملتقى ، وللرجال المؤمنين الذين لا يحبون من الكلام الا « ما تحته عمل » . وطريق هذا العمل واضح العناية بالعربية ، والمثابرة عليها ، وصرف المهمة اليها ، دون التفات الى تخرصات المغرضين .

على ان القضية الاساسية التى يواجهها المجتمع العربى ليست هى ما يثيره بعض كتابنا من المفاضلة بين الفصحى والعامية ، ولا هى ايجاد لغة وسط بين الفصحى واللهجات الاقليمية ، بل هى أن يبين العرب مكانة لغتهم بين اللغات ، وما تفردت به من خصائص فكرية تجعل لها فلسفة اصيلة متميزة ، وان يوقنوا بأن الملكات الحاصلة للعرب من هذه اللغة الكريمة هى « احسن الملكات واوضحها ابانة عن المقاصد » كما قال ابن خلدون ، وان يذكروا ان القرآن هو الذى حفظ هذه اللغة من الضياع ، فأصبحت بفضله لغة الدين والعلم والفلسفة والاجتماع ، وان العرب اصبحوا بفضله امة واحدة كيفا وكما . ولا نزاع فى ان اللغة ، اية لغة ، « تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين » كما قال الفيلسوف الالمانى « فيشته » .

وبعد فان الامر بالغ الخطر ، لانه متصل اتصالا جوهريا بشخصيتنا كلها وكياننا كله ، ويحتاج الى تصميم لا يتزعزع ، وعزيمة لا تلين، لانقاذ لساننا وفكرنا وضميرنا . لان زوال اللغة فى اكثر الامم يبقيها بجميع مقوماتها غير الفاظها ولكن زوال اللغة العربية ، كما قال المرحوم العقاد ، « لا يبقى للعربى او المسلم قوما يميزه عن سائر الاقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الامم ، فلا يبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان » . واذا كنا بحاجة الى اجنبى لتنبيهنا الى هذا الخطر ، فلنستمع الى المستشرق « ماسنيون » اذ يقول : « ان من حق العرب علينا نحن ضيوفهم الوافدين عليهم، أن نرفع الصوت عاليا ، طالبين اليهم الصمود والمقاومة : فليصمدوا وليقاوموا هذه الدعاية المذلة التى تسول لهم التنازل عن شرفهم وتراث آبائهم ، والاستسلام أمام القوى الاستعمارية ورؤوس الاموال المصرفية التى تطلب اليهم الانسجام فى طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة ، حضارة الانسان الالى ، التى لم تعد تؤمن بنفسها او بالذات الالهية ، وتصبو الى اخضاع العالم لثقافة امريكية بلهاء . ان هذا الانتاج الصناعى المغشوش يوشك أن يسقط ويتردى فى الهاوية . وعلى ابناء العربية ان يصمدوا ، فالعالم فى حاجة اليهم . وواجبنا ان نحثهم على احترام عربيتهم ، هذا النظام اللغوى الصافى ، الصالح لنقل اكتشافات الفكر عبر القرون ، فلا يحيلوها مسخا مقلدا للغاتنا الارية ... لقد كانت العربية وما تزال لغة الحرية العليا ، لغة وضوح الذهن ووحى القلب ، لغة المناجاة ولغة المعجزة .. هـ

الا فليتذكر العرب امرهم . وليتبينوا ان من العار عليهم ان يرددوا مزاعم تقليدية مغرضة عن قصور لغة وسعت كتاب الله لفظا وغاية ، ولا تزال الدرر كامنة فى احشائها . فليسالوا الغواص عن صدفاتها .

ومن هذه المزاعم القديمة المغرضة عن اللغة العربية ما لا نزال نسمعه مترددا على السنة قوم ليس لهم « أنس بتلك اللغة » كما كان يقول ابن جنى . وهى المزاعم التى فندها جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ومدرسته ، أوائل هذا القرن ، ردا على « ارنست رنان »و « هانتو » و « جوتييه » ومن اليهم . وحسبنا هنا ان نورد دفعا لهذه المزاعم ، شهادة من « لوى ماسنيون» مؤداها ان اللغة العربية قد امتازت بخصائص قل ان نجد لها مثيلا فى اللغات الاخرى : ففى تركيبها الداخلى وفى طراز الحلوة الذى توحى به قدرة خاصة على التجويد والنزوع الى الكلية والشمول . وهى قد تفردت بالقدرة على التعبير بجمل قصيرة مركزة عما لا تستطيع اللغات الاخرى ان تعبر عنه الا بالجمل الطويلة المسطحة الفضفاضة .

وشهادة اخرى لمستشرق فرنسى ، « هنرى لوسل » ، توجه نظر الغربيين الى ان : «اللغة العربية والحضارة العربية الاسلامية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة الى العالم » . فهذه اللغة ، فى نظر لوسل ، تقدم لمن يتعلمها معانى لغوية تختلف اختلافا كبيرا عن معانى الفرنسية او اللاتينية أو اى لغة اوروبية اخرى . وتتيح للدارس ثروة من الاشتقاق من الاصل الواحد ، تغنينا عن الالتجاء الى المقاطع او الكلمات الاجنبية أو أى اضافة أخرى خارجية . وتلك خصيصة أساسية من خصائص العربية ، فلم النزول عنها ، جريا وراء المستعار والدخيل ، واغفالا لما هو عندنا اصيل ؟ ويمضى « لوسل » فيقول : « ان صعوبة الكتابة أو القراءة العربية تضطر المتعلم لها ، اكثر مما تضطره اللاتينية أو الروسية ، الى أن يكون على حظ من الانتباه اعظم »

ومسالة الصعوبة هذه التى كثر الكلام عنها فى ايامنا ، هى فى الحقيقة مسالة قديمة قد بنيت على مغالطة . ونود الان أن نصحح وجهة النظر

فيها : فمنذ زمان بعيد تنبه العرب انفسهم الى ما يتطلبه النطق بالعربية الفصحى ، مع كمال اعرابها ، من جهد وحضور ذهن . وكـان أخوف ما يخافونه اللحن فيها حتى قد قيل لعبد الملك بن مروان : لقد عجل اليك الشيب يا امير المؤمنين : فقال شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . « ومنذ اكثر من قرن وربع قرن كتب رفاعة الطهطاوى مذكراته البارسية « تلخيص الابريز الى تلخيص باريز » ، فعقد فيها مقارنة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية، مشيرا الى سهولة تعلم الاولى وصعوبة تعلم الثانية ، فقال : « من جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون بسهولة لغتهم وسائر ما يكملها:فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة فى تعلمها : فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها ان يطالع اى كتاب كان ، حيث انه لا التباس فيها أصلا ، فهى غير متشابهة . واذا اراد المعلم ان يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل الفاظه فان الالفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق الفاظه على قواعد اخرى برانية من علم آخر ، بخلاف العربية . . . »

وتصحيحنا للمفهوم القائم على المغالطة هنا ان « توقع اللحن » الذى يذكره عبد الملك بن مروان ليس عيبا ذاتيا فى اللغة ، بل فى بعض الناطقين بها . والأوائل كانوا يقراون القرآن ويستمعون للحديث دون لحن ، لانهم كانوا يقراون ويسمعون ، فى وعى ويقظة ذهن . اما ما عمد اليه المتأخرون من وضع « الشروح والحواشى والتقارير ، فلم يكن سببه أن اللغة غير مبينة فى ذاتها ، بل لان ملكتها قد ضعفت عند المسلمين كما ضعف شأنهم فى غير اللغة. اما الزعم بأن اللغة العربية لا تعين على «التقدم فى العلوم والفنون » بصعوبتها — وهو ما يشتم من كلام رفاعة الطهطاوى — فزعم غير صحيح، وحسبنا أن نفندهم بما لاحظه « كارادوفو » فيما يتصل بتفوق العربية فى علم النفس وعلم الاخلاق من « ان الفروق المعنوية الدقيقة التى تحملها الفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد الى اللغات الاخرى،وان اللغة العربية تنطوى على قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق » واما اسهام العربية فى مجال العلوم الاخرى فحسبنا أن نذكر شهادة « ماسنيون » فيه اذ يقول : « لقد استطاعت اللغة العربية أن تنمى — من خلال نحوها — القدرة السامية


رينان

على التعبير عن الفكر المجرد : خفى هذا التركيب العربى الموجز الذى اعان على تركيز نتائج الباحثين التجريبية وضبطها ، الى جانب بحوث الاطباء العياديين ، وبحوث الرياضيين ، ومكتشفى الارض وأسرار النفس والرأى والاحلام ، فى مقالات مختصرة حاسمة رصينة . يضاف الى ذلك ملاحظات فى الجبر والمعادلات الكيمائية والزيجات الفلكية ، والسلاسل الحسابية ، ومراحل رحلة النفس الى المجهول. ولا شك ان المنهج العلمى فى الحضارة الغربية قد استطاع ، بواسطة العربية ومن خلالها ، ان يتخلص من الطراز الهندسى الوثنى لاشكال

مغلقة عقلانية ، قد عوقت العلم اليونانى ردحا طويلا من الزمن ، كما استطاع ان يتخلص من الخطوط التى تضاف الى حل المعادلات الرياضية » . ويمضى « ماسنيون » فيقول : « اما فيما يتعلق بالمعجمية الجدلية النفسية والصوفية فان قيمة العربية لا تنحصر فى خلوها من كل نقص ، بل انها على التحقيق قادرة على ان تبعث الحياة والشباب فى الفكر الغربى ، كما استطاعت قصة « الف ليلة وليلة » ان تؤثر فى عقلية السابع عشر التى كانت مليئة بالاقاصيص الماليزية الموروثة من الرومان واليونان » . « ولا مشاحة فى ان كبار رجال الحضارة العربية ، ونوابغ الفكر العربى لم يكونوا ذوى دم عربى خالص ، بل كانوا من الموالى المستعربين . ولكن هذا فى نظرنا ليس ظاهرة ضعف ، بل قوة فريدة ، جعلت من الضيوف ابدالا توافدوا من كل امة ، وهم عارفون لهذه اللغة ايجازا فريدا وقوة فى التعبير نادرة . وهو فوق هذا معجزة لغوية للدراسة العلمية. وقد صرح بذلك البيرونى فى اللغة العربية نفسها ، وهو الغريب عنها والضيف الطارىء عليها » .

واما الراى المشهور عن صعوبة النطق باللغة العربية خالية من الشكل ، مما يحول دون تعلمها والتمكن منها خلافا للغات الحية الاخرى ، فهو الراى الذى اورده « قاسم امين » احد قادة الفكر الاجتماعى فى مصر المعاصرة ، حين قال فى بعض كلماته : « فى اللغات الاخرى يقرا الانسان ليفهم ، اما فى اللغة العربية فانه يفهم ليقرا : فاذا اراد ان يقرا الكلمة المركبة من هذه الاحرف الثلاثة (ع ل م) امكنه ان يقراها (علم) او (علم) او (علم) او (علم) او (علم) او (علم) . ولا يستطيع ان يختار واحدة من هذه القراءات الا بعد ان يفهم معنى الجملة ، فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من اصعب الفنون » .

وقد رددنا على هذا الاعتراض منذ سنين ، فقلنا ونكرر ما قلناه حينذاك بأن ما لوحظ على العربية من صعوبة قراءتها ابتداء ليس بعيب فى تلك اللغة ، بل الاولى أن ينظر اليه على انه ميزة تفردت بها لغتنا عن سائر اللغات ، وهى اعداد قارئها لاستجماع قوى الفكر ، ودعوته الى حسن التأهب لقطع اشواط الفهم: ذلك ان العربية فى ماهيتها لغة تتطلب من كل قارىء او مستمع لها أن يكون واعيا فاهما ، قبل ان ينطق وقبل ان يسمع . وبعبارة اخرى تتطلب منه أن يمارس وظيفة « النطق » على الحقيقة ، وهى خاصية الانسان التى تميز بها عن سائر الحيوان : اعنى الوعى والفهم . وما من شك أن المران على صحة الاعراب هو فى الوقت نفسه مران على يقظة الوعى وجودة الفهم . وجملة القول انه اذا كانت العربية بطبيعة تركيبها وبنائها تتطلب من المرء يقظة واعية وجهدا موصولا وبعدا عن « الالية » فهى قبل كل شىء فن ولا ضير عليها بعد ذلك ان تكون « فنا من اصعب الفنون » .

افنحن بحاجة بعد هذا كله الى ان نذكر أبناء المسلمين فى هذا العصر بما قاله علماؤناالمحققون منذ مئات السنين من أن اللغة العربية ضرورية لحفظ الدين ، فانه لا سبيل الى ادراك معانى الفاظ القرآن والسنة الا بالتبحر فى علم هذه اللغة ؟ واذا كانوا فى ريب من شهادة علمائنا الاقدمين ، فلينصتوا الى شهادة للمستشرق « فان ديك » ، سجلها منذ نحو ٧٥ سنة ، جاء فيها قوله : « ان اللغة العربية من اكثر لغات الارض امتيازا . وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها والثانى من حيث استيعاب آدابها » .

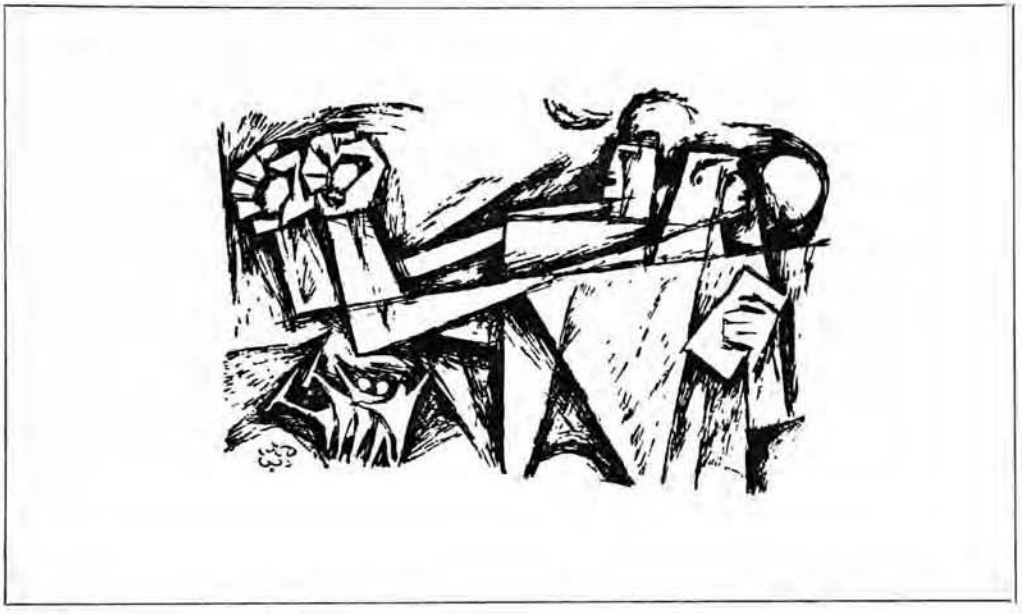
وان لغات انتجت « حضارة الانسان الالى » لا يصح ان تكون باى وجه من الوجوه بديلا من « اللغة الشاعرة » — كما يراها عباس العقاد — « لغة الحرية العليا » و « لغة وحى القلب

وحديث الروح » ، كما يصفها « لوى ماسنيون » تلك اللغة التى تملك ديالكتيقا المعجزة » وترنو الى الابدى ولا يستغرقها الحاضر ، وتصبو الى الوصول الى الفعل الالهى .

واذا عرف المثقفون قـدر لغتهم العـربيـة استطاعوا ان يصونـوها من عبـث الالسنـة والاقلام ، السنة من يجهلونها والاقلام مـن لا يحسنونها ، أو من « ليس لهم انس بها » . وان نظرة الى « العقد الفريد » و « البخـلاء » و « الامتاع والمؤانسة » و « طوق الحمامة » و « حديث عيسى بن هشام » و « فى المرآة » — وغيرها من الروائع الادبية التى تزخر بها المكتبة العربية — تكفى لاقناع ابناء هذا الجيل بـأن اللغة العربية الفصحى ، حتى فى مجال الطرفة والنكتة ، تستطيع أن تقول ، فى ايجاز وتركيز وحصافة ولطافة ، ما لا تستطيعه غيرها مـع الاطناب والتحليل والاحصاء والتسجيل .

نسأل الله أن يهدى شبابنا الى تذوق لغتنا ، والانس بها ، حتى يقولوا فيها قولا سديدا .

الدكتـور عثمـان أمـين
استـاذ الفلسفة بجامعة القاهرة



إبن ناصر بن شهرة

أحد أبطال ثورة 1871 م



أحمد بوزيد قصيبة

في آخر ١٩٧١ وقع احتفال بالذكرى المئوية لثورة ١٨٧١ في مدينة الاغـواط حضرته السلطات المدنية والعسكرية . والقى فيه الاستاذ احمد بوزيد قصيبة مدير ثانوية التعليم الاصـلى بهـذه المدينة هذا الخطاب .

هذا ونذكر بانه كان سبق ان احتفل بالذكرى المئوية لهذه الثورة في كـل من صدوق ، ومجانة ، وقلعة بني عباس بولاية سطيف ، وفي بني مناصر بولاية الاصنام ، وهذه هي المرحلة الثالثة .

احتفل الشعب الجزائرى فى عدة جهات من الوطن بذكرى مرور قرن على ثورة ١٨٧١ م . الخالدة وقد جاء فى خطاب الاخ السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى ٥ مايو ١٩٧١ م . فى قلعة بنى عباس ما يلى (... ولابد للصحراء من الاغواط الى ورقة وحتى عين صالح من احياء امتداد هذه الثورة الى هناك) ، ثم لما زار مدينة الاغواط فى اعياد الربيع الماضى جدد التذكير بوجوب احياء هاته الذكرى ، وكلفنى باعداد محاضرة عن حياة البطل ابن ناصر بن شهرة احد زعماء هاته الثورة الجبارة فشكرا للسيد الوزير على نشاطه المتواصل فى احياء التراث الوطنى ، وبفضل ذلك كله ها نحن نحتفل اليوم باحياء ذكرى هاته الثورة التى كانت حلقة هامة فى سلسلة الثورات المتتالية فى تاريخ كفاح شعبنا الطويل من اجل التخلص من المستعمرين الظالمين .

وجوب تصفية تاريخنا من الاستعماريات

قبل الشروع فى الموضوع احببت ان اقدم له بالتمهيد التالى ، فقد اشرت فى ذكرى يوم المجاهد فى ٢٠ غشت ١٩٧١ م . الى وجوب الاعتناء بتدوين وتسجيل تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى ثورة أول نفمبر ١٩٥٤ م . وما تخللها من بطولات وتنافس فى الجهاد والاستشهاد والتضحية والفداء ، وذلك من طرف مثقفى هذا الجيل الذى عاش الثورة او واكبها واصطلى بنارها واهتدى بنورها ، ليكون ذلك مرجعا صحيحا للاجيال القادمة تستمد منه الفخر والاعتزاز . وخصوصا ان تاريخ الثورة قد اسرع للكتابة عنه اجانب مغرضون يحرفون الحقائق ، او اخوان شرقيون استمدوا اغلب معلوماتهم عن الثورة من هاته المصادر الاجنبية .

وأريد اليوم ان انتهز هاته الفرصة السعيدة لالفت الانظار الى وجوب تصفية تاريخنا من رواسب الاستعمار ودسائسه التى تهدف بصفة عامة الى الحط من قيم الحضارة العربية الاسلامية ، وتمجيد الحضارة اليونانية الرومانية الغابرة وبنتها الحضارة الغربية الحاضرة ، وتصفية تاريخ الجزائر بالخصوص من النزعة الاستعمارية التى تقلل من شان الماضى الجزائرى بل تحتقره وتنكره بالكلية ، وذلك لتبرير احتلال بلادنا واستعمارها واستغلال خيراتها .

وهذا التشويه والدس شنشنة قديمة ابتلى بها الاسلام والمسلمون من اعداء هذا الدين والكائدين له ، حملهم على ذلك الحقد الصليبى الدفين ، والعداوة اليهودية الحاقدة على انتصار الاسلام وسرعة انتشاره فى العالم .

ولم يسلم من هذا الدس حتى كتاب الله العزيز ولاسيما فى قصص الانبياء واخبار الامم السابقة ، وقد تفطن فحول علمائنا من كبار المفسرين لهاته الخزعبلات وسموها (الاسرائيليات) وتصدوا لها بالحرب وطهروا تفسير كتاب الله من اوهامهم ومكائدهم التى تتنافى تماما مع مقاصد القرآن وتوجيهاته الهادية الى سواء السبيل .

فاطلقت على دسائس المستعمرين فى تاريخنا (الاستعماريات) لان افكار المستعمرين متشعبة متنوعة منها الظاهر البين ومنها الخفى كالسم فى العسل ، وكلها ترجع الى اساس واحد هو تبرير الاستعمار وجعله كأنه ضرورة حتمية يجب على من ابتلى به التسليم به كواقع اجتماعى لابد منه .

والحمد لله قد تفطن كتابنا الشباب الى هاته الظاهرة وقرات للكثير منهم ما يدل على اهتمامهم بذلك ، كالاستاذ محمد الشريف ساحلى فى كتابه القيم (ازالة النزعة الاستعمارية من التاريخ) (١)

Décoloniser l'histoire (1)

والاستاذ محمد الميلى ، والاستاذ عبد الله شريط ، والاستاذ عمار الطالبى ، والاستاذ تركى رابح وغيرهم ...

ثم جاءت البشرى السعيدة التى انهت حيرة الحائرين وقلق المثقفين على تاريخ الثورة وتاريخ الجزائر ، فتبنت السلطة الثورية الاشراف على احياء هذا التراث وتصفيته وتطهيره وابرازه للناس تاريخا نقيا صافيا نابعا من اعماق ضمير هذا الشعب المجاهد الكريم ، وهذا العمل عمل ثورى لا يقدر عليه الا الثوار الذين يجعلون مصلحة الوطن العليا فى الدرجة الاولى من اهتماماتهم . فكانت السلطة الثورية عند حسن الظن بها اذ نشرت فى الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية عدد ٦٥ من السنة الثامنة بتاريخ ١٩ جمادى الثانية ١٣٩١ هـ . الموافق ١٠ غشت سنة ١٩٧١ م . أمرا رقم ٧١ / ٥٦ مؤرخ فى ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٩١ هـ . الموافق ٥ غشت ١٩٧١ م . يتضمن تأسيس (المركز الوطنى للدراسات التاريخية) الذى سيكون تابعا لرئاسة الحكومة . ونشر كذلك فى نفس العدد بنفس التاريخ مرسوم ، يتضمن تعيين الاستاذ الكبير مصطفى الاشرف (المستشار بالرئاسة) مديرا عاما لهذا المركز . فتأسيس هذا المركز وتعيين هذا الاستاذ الكفء مديرا عاما له ، هو الحد الفاصل بين عهد التخوفات والتساؤلات وعهد بناء صرح التاريخ الجزائرى الصحيح .

ترجمة البطل ابن ناصر بن شهرة

اثناء اعداد هاته المحاضرة والبحث عن مراجعها ومصادر المعلومات عنها ، وجدت الناس قد جهلوا كل شىء عن هذا الرجل العظيم والقليل منهم لايعرف عنه الا الاسم مع أن الاعداء كتبوا عنه الدراسات واعطوه حقه من التبجيل والاعتراف به والشهادة له (والفضل ما شهدت به الاعداء) بالبطولة والشجاعة النادرة والشهامة . وبحثت عن سبب جهل الناس لتاريخ هذا المجاهد فعلمت ان الاستعماريين كانوا يعاقبون كل من تحدث عن الثورات او الثوار ، وذلك لقتل كل روح وطنية ونضالية فى النفوس . ولنفس الغرض كانت قد جمعت السلطة المحلية هنا بالاغواط جميع نسخ كتاب (تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر) بالشراء ، والاستعارة من طرف الحكام العسكريين .

واول مرة سمعت فيها ذكر اسم ابن ناصر ابن شهرة فى تونس ايام الدراسة بالزيتونة ، فقد قدم اليها المؤرخ السيد دهينة بن الحاج عيسى لتفقد احوال ولده الذى كان معنا فى البعثة التعليمية التى اوفدها الى تونس استاذنا الشيخ مبارك الميلى رحمه الله قبل انتقاله من الاغواط سنة ١٩٣٣ م . وحكى لنا قصة السيد ابن ناصر بن شهرة ، ولعله لم يكن يحكيها فى الاغواط .

واسم هذا البطل هو ابن ناصر كما ذكره كثير من الكتاب ويعرفه الناس بالتواتر ، وليس اسمه (ناصر) فقط كما ذكره لوى رين المؤرخ لثورة ١٨٧١ م . وتبعه فى ذلك الاستاذ ساحلى وكل من كتب عن ثورة ١٨٧١ م .

فهو ابن ناصر واسم ابيه ابن شهرة وحذفت لفظة ابن الدالة على البنوة للتخفيف ، فهو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات . وقد اشتهر جده فرحات بالشجاعة والكرم حتىجعلته قبائل الارباع شيخا ورئيسا لهم . ثم تولى ذلك ولده ابن شهرة الذى كان هو ايضا شجاعا وبطلا وكريما ، وكانت الارباع ترحل الى التل فى الشمال فى الصيف لجلب الحبوب لها ولخيولها . وكان الامن مفقودا ولم يقدر على التنقل الا من كانت له الشجاعة والاقدام على الدفاع عن الاهل والحريم والاموال

والماشية ، فتربى مترجمنا ابن ناصر فى هـذا الجو المملوء بالبارود والفروسية والكر والفر ، فكان هو ايضا من رؤساء قبائل الارباع قبل الاحتلال ، وقد ولد سنة ١٨٠٤ م وتزوج أول مرة بنت السيد احمد بن سالم سلطان مدينة الاغواط قبل الاحتلال وولدت له بنتا ولما جاء الاحتلال الفرنسى ، رفض الخضوع له وتوجه الى اعماق الصحراء فلم توافق زوجته هاته على الذهاب معه الى الصحراء ، فطلقها ، وتوفيت بنته منها ، واثناء جهاده فى الصحراء ضد الاحتلال الفرنسى منذ سنة ١٨٥١ م . توجه الى مدينة ورقلة واتفق مع سلطانها على الكفاح وتزوج بنته المسماة الياقوت من فرقة المخادمة بورقلة ، وقد انجبت له ولدين هما : محمد رجع من الشام ووعدته فرنسا بمنصب قائد وشاع انه قتل مسموما فى ناحية قرية زنينة (الادريسية الآن) وضع له السم فى الشاى . وثانيهما ابن شهرة الذى لما رجع من الشام وسمع بالثورة السنوسية فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الايطالى ، ذهب للجهاد هناك واستشهد رحمه الله فى طرابلس سنة ١٩١٢ م . وبعد وفاة الياقوت الخدمية تزوج ابن ناصر بالمرابطة نوة اخت السيد مولاى عبد القادر ادريسى التى انجبت له ولدين ايضا هما — فرحات الذى توفى بالاغواط بعد رجوعه من الشام وخلف ولدا اسمه احمد بن فرحات لازال حيا يرزق ، وبنتا اسمها الزهرة ارملة الحاج قد بن الحبيب التى توفيت فى السنة الماضية ١٩٧٠ رحمها الله . والثانى يحيى الذى توفى بالاغواط بعد أن رجع من الشام ، وخلف اربعة ابناء ذكور واربع بنات ، مازال على قيد الحياة منهم ، ثلاثة ابناء وثلاث بنات .

وابن ناصر بن شهرة كما وصفه لى بعض كبار من سالتهم عنه ، كان ربعة ، اشقر اللون احمر الشعر كثيف شعر الحاجبين ، سريع الخطا ، كان يلبس (الحائك) من الصوف ، ويعتم مثل الامير عبد القادر ، ويحتذى الحذاء الطويل . وكان ماهرا فى الرماية يضرب بالرصاص من الامام ومن الخلف ولا يخطىء أبدا، وكان اذا حمى الوطيس فى الحرب (يتنقب) اى يتلثم . وكان عالما بدقائق الارض الصحراوية ، يقول لوى رين فى ذلك (كان ابن ناصر بن شهرة الملاح الحقيقى للصحراء) . ومهما حاول المستعمرون حصاره للقبض عليه انفلت منهم باعجوبة وتسلل من الحصار بسبب معرفته التامة بخفايا الصحراء .

وكان رحمه الله بطلا شجاعا ودام كفاحه اكثر من ٢٤ سنة ضد الاستعمار الفرنسى من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٥ م . وقد وجد التأييد فىالجنوب التونسى بصحراء الجريد وخصوصا لدى الزاوية الرحمانية بنفطة . التى كانت ملجا وملاذا للثوار الجزائريين والفارين بدينهم من الاستعمار . يقول رين فى ذلك — (صفحة ٨٨) — (فى نفطة ، كان ابن ناصر بن شهرة الذى خلف اباه كآغا على الارباع سنة ١٨٤٦ م يقوم منذ سنة ١٨٥١ م . بحرب مستمرة ضدنا فى الصحراء الشرقية ، ولم يترك سنة واحدة لم يهاجمنا فيها او قبائلنا التى رضخت لنا) . وكان من انصار ابن ناصر بن شهرة اقاربه من قبيلة المعامرة وقبيلةالحجاج واكثرهم منقبيلة الحرازلية يقول الشهيد بوديسة احد الثوار (من قبيلة أولاد المختار من قصر البخارى الذى سجن بفرنسا وبالاغواط) ، والذى استشهد سنة ١٨٦٤ ، فى بطولة ابن ناصر بن شهرة — ولا يعرف البطل الا البطل ، اذ لا يعرف الفضل لاهل الفضل الا ذووه — وذلك عند الحديث عن الخيل التى كانت الاداة الهامة فى جهاد الثوار ، وعن الشجعان : (فى الخيل عودى وفى الرجال ابن ناصر بن شهرة) . ولما وقعت الحرب (حرب السبعين) بين فرنسا والالمان فرح المجاهدون

والابطال وعزموا على استئناف الجهاد والكفاح، ومن بينهم ابن ناصر بن شهـرة فكـان بطـلا بارزا من ابطال ثورة ١٨٧١ م . ونازل الاحتلال وصاوله الى ان انتهت الثورة فسافر الى بيروت الشام حيث امضى بقية حياته بهـا مـجاورا لصديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر ، وبها توفى رحمه الله سنة ١٨٨٤ م . فيكـون قد عاش ٨٠ سنة .

واثناء اقامته بالارض العرشية للاربـاع فى ناحية المخرق ، كان اذا قدم الى الاغواط لقضاء مآربه او فى مروره بها فى رحلة الصيف الى التل كان ينزل بمكان (الجدر) مركز القاعدة الجوية الآن ، وينزل ايضا فى الضاية القبلية قرب مقبرة اسلافه (أولاد عيسى بن على) ، وكذلك فى مكان (قنيفيد) بين السريجة وبرج السنوسى ، وكان صديقه بالمدينة واحد اقاربه هو المرحوم السيد الحاج احمد الشاوى مقدم الطريقة القادرية ، التى كان ينتمى اليها ايضا ابن ناصر بن شهرة .

جهاد ابن ناصر بن شهرة منذ سنة ١٨٥١ م .

بدأ المجاهد البطل ابن ناصر بن شهرة جهاده سنة ١٨٥١ م . وسأعرض عليكم باختصـار مواقف بطولية فى الجهاد فى ربوع صحرائنـا الجزائريـة —

فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٥١ م . كان ابـن ناصر ابن شهرة وقبائل الارباع تحت الاقامة الجبرية قرب المعسكر بوغار ، ولكنه رفض هذا التصرف من الفرنسيين وتوجه الى الشهبونية حيث لحقـه الملازم اليهودى (كروس) مع فرقة من ٣٠ من فرسان الصبائحية ، لان كروس ادعى انـه صديق ابن ناصر بن شهرة ، وهو سيـاسى ديلوماسى ، يعرف نفسية العرب وكيف يؤثر فيهم ، فلما اتصل به للمفاوضة ، لم ينجـح ، فجردهم ابن ناصر بن شهرة واخوه ابوبكر مـن اسلحتهم والبستهم العسكرية وقال للمـلازم الفاشل — انى اجردك من اسلحتك وخيولـك واطلق سراحك ، وارجع الى من أرسلك فى المدينة وقل له — (ان ابن ناصر بن شهرة قد فارق خدمة الفرنسيين التى كلها مذلة واهانـة ، ويلتحـق بمن يمثل الدين والاستقلال) يعنى بذلك المجاهد البطل شريف ورقلة السيد محمد بن عبد الله ، فرجع الملازم كروس وفرقته الى بوغار مشيا على الاقدام . ثم اتصل بطلنا ابن ناصر باخيـه فى الجهاد محمد بن عبد الله فى ورقلة ، ثم رجـع الى الشمال الشرقى واستولى على قرية قـصر الحيران وحصنها ، وذلك فى ٣١ جويلية ١٨٥٢ م. ولما عزم سكان مدينة الاغواط على الثورة فى وجه الفرنسيين اتصلوا بالبطل ابن ناصر بن شهرة فى وفد عظيم وكان من بينهم احد شيوخ بنى الاغواط السيد يحيى بن معمر الذى كان متفقا معه فى السياسة النضالية ، وبعد مفاوضات التمسوا منه ان يتصل بسلطان ورقلة ليكون قائدا للثورة، فذهب اليه ووافق على ذلك لكنه كان مريضـا فرجع ابن ناصر بن شهرة الى قصر الحيران ثم التحق بـه السيد محمد بن عبد الله ومنها ذهبا معا الى مدينة القرارة للتسليح والتموين . وقبل ذلك كان قد حاول الاتصال به السيد الشريف بن الاحرش الذى كان خليفة الامير عبد القـادر ثم صار باش آغا على اعراش أولاد نائـل ، والتقيا فى مكان اللقحات فى الشبكة قرب بريان فلم تنجح هاته المفاوضـات ، وهنـاك وقـع الفرنسيون فى رهب شديد باتصال ابن ناصر بن شهرة بثوار الصحراء .

وبعد احتلال مدينة الاغواط ، وتمركز الجيش الفرنسى بها ، لجا ابن ناصر بن شهرة الـى الجنوب التونسى ينتظر تطور الاحداث والفرص لاستئناف الجهاد ضد المستعمرين ، وكون فى الجنوب التونسى انصارا واعوانا من ابطال تلك الجهات ، ولما سمع بثورة اولاد سيدى الشيخ فى صيف سنة ١٩٦٤ م جاء بطلنا الى ورقلة واتصل

فيها بالسيد سى العلاء من أولاد سيدى الشيخ وفى ٦ اوت ١٨٦٤ كانا معا على راس جيش عظيم ١٥٠٠ فارس فى عين طاقين ووقعت فيها معركة عظيمة بينهم وبين القوم وعملاء المستعمر. وفى ٢١ اكتوبر ١٨٦٤ م . وصل ابن ناصر بن شهرة الى واد النساء جنوب بريزينة ، ووصل مع أولاد سيدى الشيخ ومرافقيه من الارباع الى سيدى الحاج الدين فى صحراء الساورة ، مارين بواد زرقون ومحيقن والقيمن وتاجرونة والماية ، وقد كانت ملاقاة هؤلاء الابطال فى وادى ميزاب قرب بنى يسقن وفى متليلى ونومرات مما ادى بالسلطة الاستعمارية الى ان يقرر الوالى العام فى نوفمبر ١٨٦٤ حجز جميع قوافل بنى ميزاب وحرمانهم من الحبوب التى تأتيهم من الشمال وذلك عقابا لهم ولئلا يساعدوا الثوار فى الصحراء .

وفى سنة ١٨٦٥ م . رجع ابن ناصر بن شهرة وسى العلاء الى مدينة ورقلة ، وفى ربيع سنة ١٨٦٦ م . توجه ابن ناصر بن شهرة وسى الزبير وابن اخيه سى أحمد بن حمزة من زعماء ثورة أولاد سيدى الشيخ الى مدينة المنيعة ومنها انتقل الى عين صالح لتجنيد المجاهدين من توات ومن اشعابنة ومن التوارق ، وقد دخلت ثورة أولاد سيدى الشيخ الى مدينة عين ماضى التى دخلها سى العلاء فى شهر جانفى سنة ١٨٦٩ م . ومعه سى قدور ابن اخيه واعلنت عين ماضى الثورة فتوجه اليها جيش فرنسى عظيم من مدينة الاغواط بقيادة الكولونيل دى سونى لمعاقبة شيخ الزاوية وسكان عين ماضى ، ولما سمع بذلك المجاهدون جمعوا فى اقرب وقت وبسرعة فائقة ٣٠٠٠ من الفرسان والف من المشاة واستعمل الجيش الفرنسى لاول مرة فى الجزائر احدث الاسلحة فكانت الغلبة للتفوق فى التسلح ، وفى ١٠ فيفرى ١٨٦٩ اعتقلت السلطة الاستعمارية شيخ الزاوية ونفته الى بولوغين بالجزائر ومعه ١٨ من أعيان عين ماضى ، ثم نقلت شيخ الزاوية الى مدينة بوردو . وفى نفس هذه المدينة ظهر فى شهر مارس ١٨٦٩ م . ظهر فى صحراء توات ثائر وزعيم للجهاد جديد هو السيد شريف محمد بن التومى بن ابراهيم الغيشاوى المشهور باسم بوشوشة واعلن انه سيجاهد ضد الكفار المسيحيين حتى يطهر منهم البلاد الاسلامية وتجند تحت لوائه كثير من ابطال الصحراء من التواتيين وشعانبة متليلى وشعانبة المواضى بالمنيعة ، واستولى على المنيعة وسجن قائدها من طرف الفرنسيين ، ولما سمع بذلك ابن ناصر ابن شهرة التحق به وشرعا فى اعداد الناس للجهاد والكفاح حتى اندلعت ثورة الحاج محمد المقرانى فكان من ابرز زعمائها وابطالها ومن المنظمين لها كما سياتى بيانه .

ولذلك نقترح على السلطات المحلية ان يسمى حى (قصر البزائم) (حى ابن ناصر بن شهرة) ، وبناء نصب تذكارى تخليدا لهذا البطل فى مكان (قنيفيد) ، على الضفة اليسرى لوادى مزى . وتسمية قرية « المخرق » (ابن ناصر بن شهرة) .

دور ابن ناصر بن شهرة فى ثورة ١٨٧١ م .

شوه الكتاب الفرنسيون تاريخ ثورة ١٨٧١ م . التى اشتهرت بثورة المقرانى ابرز زعمائها وقادتها وابطالها الميامين . ولاسيما عند تحليل احداثها والتكلم عن اسبابها ونتائجها. وكل ذلك نضرب عنه صفحا ولا نحكى زورهم وبهتانهم ، ويرجع السبب الرئيسى لثورة ١٨٧١ م . الى عزم الشعب الجزائرى على محاولة التخلى مرة اخرى من المستعمرين الظالمين ، واراد اغتنام فرصة انكسار الجيوش الفرنسية امام الالمان ووقع ملكها الامبراطور نابوليون الثالث فى الاسر ، والانقلاب الذى وقع

من طرف اليساريين فاعلنوا الجمهورية الفرنسية الثالثة ، وانتقال الحكومة الى مدينة (تور) ثم الى مدينة (بوردو) . وقد صدرت من بعض هؤلاء الكتاب بعض الحقائق والعبارات التى تشير الى الاسباب الوطنية الشريفة فى اعلان الجزائريين لثورة ١٨٧١ م .

وقد وقعت السلطة الاستعمارية فى فوضى لا نظير لها وتطاحن الحكام المدنيون والعسكريون تطاحنا علينا ، راى فيه قادة الشعب الجزائرى الفرصة السانحة للخلاص ولطرد المستعمر الى البحر .

ولم يكن قرار منح الجنسية الفرنسية بصفة جماعية للاسرائليين الجزائريين الا جزئية من جزئيات آثار السياسة الاستعمارية ، بل راى فيه السكان تطورا جديدا فى هاته السياسة الرامية الى محاولة مسخ كل ما كان قبل الاحتلال من مظاهر ، (وعكس ما ادعاه مؤرخو هاته الثورة الفرنسيون) راى الناس فى هذا القرار اعتداء على حرية الاديان فى الجزائر ، وخشى اهل النظر البعيد أن يكون ذلك خطوة نحو منح المسلمين هاته الجنسية بصفة جماعية وأشار الى ذلك الكاتب لوى رين فى كتابه المذكور صفحة (٩٢)

(... ولكن البعض وهم المرابطون رؤساء الزوايا راوا فى ذلك دليلا على تسامحنا الدينى الذى حملنا على فرض قانوننا المدنى على الاسرائليين بدلا من قانونهم الدينى ، وكانوا يظنون بدون شك اننا يوما ما سنتصرف مثل هذا التصرف بالنسبة للقانون الدينى للمسلمين) ، ويعلق الكاتب مستغربا هذا الفهم قائلا — (وهذا دليل على التفسير الغريب من طرف الاهالى فى بعض الاحيان لبعض اجراءاتنا) . ويقول فى صفحة (٨٥) — (.. فى ذلك الوقت ومدة كامل شهر سبتمبر ١٨٧٠ م . انتشرت انباء مؤلمة عن اندحار جيوشنا النظامية وخصوصا من طرف بعض الجرحى فى معركة (ريشهوفن) من الجنود الجزائريين الذين نقلوا الى الجزائر وبالغوا فى تصوير انكسارنا وضعفنا واضمحلال دولتنا) .

وقال الاستاذ أوقيستان برنار Augustin Bernard فى الجزء الثانى المتعلق بتاريخ الجزائر من كتاب (تاريخ المستعمرات الفرنسية والتوسع الفرنسى فى العالم) صفحة (٣٨١) — (... خلاص الحكومة Khelass El Houkouma انتهت كل سلطة وشرعت القبائل والاعراش فى التسلح ، وصعب قبض الضرائب ، ووضعت المواشى فى مامن فى الجبال) . ولقد كون الشعب تلقائيا مجالس شعبية تتكون من ١٠ الى ١٢ عضوا لها جميع الصلاحيات وسميت الشرطية ، تراقب القياد وتفرض التغريم ، وتحجز املاك المخالفين والخونة للقضية العامة ، وتشترى الاسلحة ، والبارود ، والعتاد ، والخيل ، وتعيد النظر وتنقض احكام القضاة ومجالس التأديب الاستعمارية ، وكانت اول شرطية تأسست هى شرطية السحارى قرب بسكرة وشرعت فى اعمالها فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٠ م . يقول لوى رين فى ذلك (... وقد بلغ ببعض هاته المجالس الشعبية وذلك فى الوادى بسوف ان حكمت بالاعدام على السراق) .

واعتقد الناس فى كامل البلاد ان فرنسا امالنها ستخرج من الجزائر أو تنسحب الى مدن الساحل

وأثناء هاته الاستعدادات النشيطة فى الشمال وخصوصا بعد اعلان الجمهورية الفرنسية الثالثة فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م . كان الامير عبد القادر فى دمشق الشام الواقعة تحت حكم دولة الخلافة العثمانية حليفة الالمان ، يعلم جيدا حقائق الامور ، وراى ان الفرصة سانحة لاستئناف الجهاد لتحرير البلاد ، فارسل ابنه الثانى الامير محيى الدين ليلتحق بأخوانه الثوار فى داخل الوطن ، وعزم الجميع على اعلان الثورة بمجرد انتهاء شهر رمضان المعظم سنة ١٢٨٧ هـ . الذى بدا فى ٢٤ نوفمبر وانتهى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٠م

يقول فى ذلك الاستاذ سعد الله فى ندوة ثـورة ١٨٧١ م . العدد الثانى من مجلة (الاصالة) شهرمايو ١٨٧١ م . صفحة (٥٨) مايلى — (.. ففى احد الاصياف كنت فى سوريا والتقيت مع جماعة من احفاد الامير ومنهم حفيد كان كبير السن وجدته على الفراش ... وقد توفى الان ، ومما قال لى وانا اسجل هذا فى مذكراتى الخاصة بأن الامير عبد القادر هو الذى ارسل ابنه محيى الدين عن طريق طرابلس التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، جنوب تونس ، ودخل محيى الدين الى الجزائر عن طريق الجنوب الشرقى) .

جاء الامير محيى الدين الى تونس ولكن احتجاج القنصل الفرنسى بها لدى الباى حمله على الامتناع عن اى اتصال ، وادعى المرض ، واعلن انه ينوى الرجوع الى سوريا عن طريق مالطة وابحر من تونس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٠ ولكنه بعد ايام قلائل نزل بمدينة طرابلس ومنها توجه برا الى توزر ثم الى مدينة نفطة . وفى نفطة التى كانت مركزا وماوى للثوار الجزائريين وملجا لكل الذين قد هاجروا اليها لالسبب كما يقول لوى رين نفسه (سوى الرغبة فى العيش فى ارض اسلامية ورفض أن يكونوا رعايا للمسيحيين) . صفحة (٨٨) . وقد التقى الامير محيى الدين فى نفطة باخوانه فى الجهاد الثوار ابن ناصر بن شهرة ، ومحمد بوعلاق التونسى ، واولاد البطل الشعانبى السوفى بوطيب بن عمران وكانوا جميعهم فى ضيافة واكرام ومساعدة رئيس زاويتها الرحمانية الشيخ مصطفى بن عزوز الجزائرى .

بدأ الامير باعداد الاعراش والقبائل وتسليحهم وتكوين القوم وشراء الاسلحة والعتاد ثم ارسل هو وابن ناصر بن شهرة اول رسالتيهما الى القبائل والاعراش ، وكانت رسائلهما ترسل اثنتين اثنتين ، الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة يعرف بها بحضور الامير محى الدين ابن الامير عبدالقادر والثانية من الامير محى الدين نفسه يدعو الناس فيها الى الاستعداد للجهاد واتخاذ كل الوسائل من اجل الكفاح . وهذه ترجمة الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة عن الفرنسية التى كانت مترجمة عن العربية والتى لم نعثر عليها : فى راس الرسالة ختم مربع قطع جانب منه ، معروف فى كامل الصحراء ، (ان مولانا الامير محيى الدين ابن الامير الحاج عبد القادر قد جاء بامر من السلطان نصره الله ، انه يريد نصر الدين ، وان شاء الله سيذهب من هنا الى الجزائر ليلتحق بأبيه الذى سيكون فى حاجة اليه . وان الجيش المرسل من طرف السلطان قد وصل الى طرابلس . فاذا عزمتم على القدوم نحونا (اذا كنتم تحبونه حقا) ، فارسلوا له وفدا من طرفكم . والا فلا تلومن الا انفسكم لما سيحدث (وحامل هذا اليكم سيكمل لكم بصوت رفيع جميع المعلومات كتبه الامير ابن ناصر بن شهرة والسلام . ٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . (٣٠ ديسمبر ١٨٧٠ م)

اما رسائل الامير محيى الدين فكانت تحمل من فوقها ختما كبير مستديرا (قطره ٣٥ ملمتر) وهو حجم اميرى . وهذا نص الرسالة الاولى : (وما النصر الا من عند الله . من طالب العون من القوى القاهر ، الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر فى سنة ١٢٨٧ هـ . جئنا الى هنا قصد الدفاع عن الدين وحماية الوطن . اننا نعلم انكم ترغبون فى الجهاد (وباسم الدين نجد فيكم الاخ الحميم والمؤيد) . ان الله قد سحق اعداءنا ولم يبق لهم لا وطن ولا جيش . كونوا مستعدين ليوم قدومنا نحوكم . وانكم تعلمون ان الدين لا يسمح الا للعاجزين عن القيام بالقتال . كل رجل صحيح يجب ان يشارك فى الجهاد ، سواء بنفسه اوبماله استعدوا اذن لرفع شان الدين وانى اعرف ان ذلك دائما هو املكم وانكم كرماء ، ان وقت الذهاب قد حان ، ووقت تحريركم قد قرب . فاستعدوا والسلام) .

ارسلت هاته الرسالة الاولى وكثير فى معناها الى جميع رؤساء القبائل والى جميع السكان . والتحق الارباع بقائدهم لما جاءتهم رسالته وكان برفقة الامير محيى الدين السيد ابن هلال احد كتاب والده القدماء والسيد سى محمد زروق ابن سيدى صالح احد الاشراف من ناحية بسكرة واحد ابطال معركة الزعاطشة والذى كان لاجئا فى طرابلس الغرب ، والسيد ابراهيم بن عبد الله مقدم الطريقة القادرية واحد ابطال ثورة ١٨٦٤ والسيد محمد بن الحشانى من قرية بوعزيز فى بسكرة والسيد سليمان سلطان تقرت سابقا .

وشاع فى الجنوب فى تلك الايام قدوم الجيوش التركية والمصرية لنصرة المسلمين فقد كتب السيد سى محمد زروق بن سيدى صالح من نفطة الى قائد بسكرة محمد الصغير بن قانة الذى احالها الى الادارة الفرنسية ، جاء فيها ما يلى — (ان مولانا الامير محى الدين ابن الامير عبد القادر قد جاء الى ابن ناصر بن شهرة ليقوم بالجهاد المقدس . ان سلطان اسطنبول قد ارسل جيشا الى طرابلس ، وجعل الايالة التونسية والجزائرية تحت امارة اسماعيل باشا نائب الملك فى مصر . عدة دول وافقت على التقسيم وبعضها لم توافق . والسلطان يريد ان يتخلص عرب الجزائر من عدوهم قبل ان يكثروا . وعندما اتفق مع سى محيى الدين ساعطيك اخبارا هامة فى هذا الشأن .) يقول لوى رين — (ارسل الينا الرؤساء الموالون لنا عددا كثيرا من هاته الرسائل وقد تجمع لدى القائد العسكرى لناحية بسكرة نحو (٤٤) رسالة كلها محفوظة فى وثائق الولاية العامة وكان على بعضها ختم الامير محيى الدين وعلى بعضها ختم ابن ناصر بن شهرة ، وقد كانت مرسلة الى رئيس زاوية تماسين ، والى السيد على باى آغا تقرت وورقلة والى رؤساء واعيان الطرود بسوف ، والى الاغواط ، ومتليلى ، ومزاب ، والى الشريف بوشوشة ، والى المخادمة والشعانبة ، وسعيد عتبة بورقلة وغيرهم . .) ويقول رين أيضا : (وكل هاته الرسائل متشابهة فى القول والاسلوب ويظهر انها امليت على كتاب عديدين) .

وكانت السلطات الفرنسية تجهل اولا وجود الامير محيى الدين بجنوب الجزائر ثم كذبت الخبر واشاعت انه شخص آخر منتحل لاسم الامير ، ثم روجت اشاعة براءة الامير عبد القادر منه ونشرت عدة رسائل فى الجريدة الرسمية المبشر وفى الاسواق على انها من الامير يحذر فيها الناس من اتباع ابنه العاق ، وأنه غير راض عنه ولا موافق على تصرفاته . والصحيح ما قدمناه من ارسال الامير لابنه للجهاد وقد ارسل رسالة واحدة فقط الى حكومة بوردو بواسطة قنصلها العام فى دمشق يخفف من وقع الحادث ، وقال فيها : انه أرسل ابنه المريض للمعالجة بمدينة الاسكندرية ولتبديل الهواء هناك .

وكان اثناء هاته الاستعدادات قد قام البطل المجاهد محمد بن التومى الشهير باسم بوشوشة الفيشاوى باعلان الجهاد فى الصحراء واستولى على مدينة المنيعة وطرد قائدها جعفر ، ثم استقر بمدينة عين صالح فى شهر مايو ١٨٧٠ م وكون جيشا عظيما من قبائل الشعانبة المواضى ، وشعانبة متليلى وشعانبة طرود سوف ، واجتمع فى الصحراء ثوار اولاد سيدى الشيخ بزعامة سى الزبير وثوار الشعانبة بقيادة بوشوشة ، وثوار الصحراء الشرقية بقيادة ابن ناصر بن شهرة والامير محيى الدين وفى نفس الوقت كانت الثورة مشتعلة فى الشمال بقيادة المجاهد الحاج محمد بن الحاج احمد المقرانى ، والشيخ ابن الحداد رئيس الزاوية الرحمانية فى صدوق ، ثم تحت قيادة بومزراق المقرانى والسيد عزيز بن الشيخ الحداد وقد استولى الثوار على برج بوعريريج ومجانة ووصلت الثورة الى ناحية الاخضرية (باليسترو)

والى بنى مناصر قرب شرشال ، واستولى الامير محيى الدين على نقرين وتبسة وانتشرت الثورة من الساحل وفى الجبال الى اعماق الصحراءحيث استولى ابن ناصر بن شهرة على تقرت وورقلة وتحمس الناس للجهاد والدفاع عن العقيدة والوطن وكان المرحوم المقرانى قد استشهد فى ٥ ماى ١٨٧١ م فى مكان سوفلات قرب عين بسام ، وفى ١٣يوليو ، جويلية سنة ١٨٧١ م القى القبض على الشيخ الحداد ، وتكبد الفرنسيون خسائر كبيرة واضطرو الى خوض اكثر من ٣٤٠ معركة اشتبكت فيها ثوارنا الابطال وجنودهم ضد الجيوش الفرنسية والعملاء الجزائريين الذين كانوا فى خدمة ركابهم ولعل وجود هؤلاء العملاء فى الشمال والجنوب هو السبب الرئيسى فى فشل ثورة ١٨٧١ م وعدم نجاحها رغم الاستعدادات زيادة على عدم وجود التنظيم العسكرى والقيادة الموحدة ، والتكوين السياسى للقيادة والشعب ، وكذلك مجىء الامدادات من العتاد والسلاح والجيوش من فرنسا بعد تفرغ جيوشها من حرب السبعين .

ولما انقلبت الحال فى الشمال قرر آل المقرانى الاعتصام بالصحراء فتوجه ركبهم نحو الجنوب على طريق المسيلة ثم واصلوا السير ووصلوا الى عقلة البيضاء على شط زاغز بعد ان مشوا ليلا اكثر من ٨٠ كلمترا وهناك اجتمعوا فى ١٠ اكتوبر ١٨٧١ م . ليقرروا مصيرهم ، وكان اغلبهم قد اشار بالاتجاء الى الايالة التونسية الشقيقة ومنهم الزعيم بومزراق وكان عددهم بين ١٥٠ و ١٦٠ من بينهم ١٧ رجلا من اعيانهم وكبرائهم وهم ، السيد احمد بومزراق ، السيد السعيد بن بوداود ، السيد على بوزيد ، السيد ابن عبد الله بن الحاج احمد ، السيد الشريف بن عبد الرحمن ، السيد دحمان بن القندوز ، السيد الحاج بن عبد الرحمن ، السيد الاخضر بن عبد الرحمن ، السيد محمد بن قويدر ، السيد الصغير بن بورنان ، السيد أحمد بن بورنان ، السيد أحمد بن عبد الله ، السيد احمد بن محمد بن عبد الله ، السيد عبد الرحمن بن القندوز ، السيد محمد بن عبد السلام ، السيد احمد بن الشلالى . وقرروا الدخول الى تونس عن طريق تقرت ، وسوف ، ونفطة ثم توزر ، ولكن جاءتهم الاخبار بأنه لايمكنهم الذهاب الى سوف لعدم الامن هناك ، فعدلوا عن ذلك وقرروا الالتحاق بابن ناصر بن شهرة فى ورقلة ، فمروا بقرية العلية قرب تقرت فأبوا ان يضيفوهم وامتنعوا حتى من بيعهم اللحم والتمر خوفا من انتقام بوعكاز ، بل قابلوهم ببرودة ، خلافا لعادات العرب فى الكرم والضيافة مما جعل لوى رين يتعجب من هذا التصرف ازاء ابطال وعظماء ، أمثال المقرانى واقرابه وانصاره . ولما سمع بهم ابن ناصر بن شهرة ، والبطل بوشوشة ، والبطل سى الزبير من أولاد سيدى الشيخ ، وكان ذلك اليوم (٢٠ اكتوبر ١٨٧١ م .) يوما مشهودا بالغ الابطال فى الحفارة واكرام اخوانهم حتى انسوهم همومهم وقرروا البقاء فى الصحراء، بل وضعوا أنفسهم تحت رئاسة السيد بومزراق . وهذا الموقف الرائع الدال على الاخوة فى الاسلام وفى الجهاد يبرهن بكل وضوح على ان الشعب الجزائرى كان شعبا واحدا متآخيا متضامنا فى السراء والضراء لا فرق بين سكان شماله ولا بين سكان جنوبه ولا فرق بين العرب والامازيغ ووحدت الدماء بينهم،وهوبرهان على ان الاستعمار هو الذى احدث فى صوفنا العداوة والبغضاء والعقلية الجهوية ، وكانت مدينة بنى يسقن فى وادى ميزاب المستودع الحصين الذى وجد فيه الثوار السلاح والتموين والعتاد والسلاح والبارود (يقول الاستاذ اوقستن برنار) المذكور ، (فى سنة ١٨٨٢ م . باستلائنا على

المزاب قضينا على عش الثورة الدائم ، والمستودع الذى كان يجد فيه الثوار ضدنا الاسلحة والعتاد والتموين) . فبفضل مركز نفطة الهام ومركز وادى مزاب الممتاز تمكن الثوار من مصاولة الاستعمار والمحافظة على روح النضال والمقاومة فى نفوس شعبنا ، كما ان ذلك برهان على روح الاخاء بين اقطار المغرب العربى الكبير .

وبفضل ابن ناصر بن شهرة تمكن آل المقرانى من الدخول الى تونس ، ومنها اتصلوا بالباى الذى اشترط عليهم تحت ضغط فرنسا ان يتفرقوا فى البلاد وان لايسكنوا فى جهات الحدود الجزائرية وقد بلغ عددهم من بعد نحو ٥٠٠ لاجىء سياسى وبقوا بها الى ايام الاستقلال فمنهم من رجع الى الوطن العزيز ، ومنهم من بقى هناك . ولكن زعيمهم السيد بومزراق كان قد اتجه الى ناحية للبحث عن طريق اللحاق بتونس ، وكان يرافقه خادمه فقط ، فلم يهتد للرجوع الى الركب وبقى يمشى مدة ستة ايام بدون ماء ولا زاد الا الاعشاب حتى وصل الى ماء فى ناحية الرويسات قرب ورقلة وهناك عثر عليه الجيش الفرنسى مغميا عليهما هو وخادمه ، وذلك فى ٢٠ جانفى سنة ١٨٧٢ م . فنقله الجنرال لاكروا الى قسنطينة وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ثم نقل الى جزيرة كليدونى الجديدة التى كانت معتقلا لدى فرنسا . وفى ١١ جانفى كان قد حاول احد الخونة قتل السيد بوشوشة وتركه قريبا من الميت فعثرت عليه جنود الفرنسيين جريحا فى ناحية الميلق قرب عين صالح ونقلوه الى سجن قسنطينة وحوكم بها كمجرم لا كثائر حربى ، وحكمت عليه المحكمة الاستعمارية بالاعدام ونفذته فيه صباح يوم **٢٩ جوان ١٨٧٥ م .** على الساعة الخامسة صباحا فى معسكر الزيتون قرب قسنطينة . ومما قال للمحكمة ما اكثر ثرثرتكم وركاكتكم انكم قاتلى لا محالة فاسرعوا بقتلى واريحونى من سخافاتكم ، اننا ثرنا وها انا بين ايديكم . وواجه الرصاص والموت بكل شجاعة رحمه الله .

وبلقاء القبض على قائد الثورة بومزراق ، والقاء القبض على زعيم الثورة فى الصحراء الغربية والشرقية ، بوشوشة وباستلاء الجيش الفرنسى على مدينة تقرت ثم ورقلة ، يئس الناس من نجاح الثورة ، وتفرق المجاهدون ، منهم من لجا الى طرابلس ومنهم من لجا الى تونس ، وبقى ابن ناصر بن شهرة وحده يقوم ببعض المناوشات يشنها من الجريد ونفزاوة . وفى شهر جوان لجا الى باى تونس الذى اذن له بالركوب من مرسى حلق الوادى الى بيروت وذلك فى يوم ٢ جوان ١٨٧٥م . وكان برفقته رفيقه فى الجهاد الشيخ الكبلوتى ، وفى بيروت استقر بجوار صديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر الى سنة ١٨٨٣ م . هو والكبلوتى ، ثم توفى رحمه الله رحمة واسعة وجازاه هو وجميع اخوانه ممن ضحوا قبله ، او معه ، او بعده ، احسن الجزاء ..

احمد بن ابى زيد قصيبة .

القاضي

سعيد العقباني التلمساني

رابح بونار

تمهيد : لقد سجل القرن الثامن الهجري بتلمسان وغيرها من مدن الجزائر ازدهارا كبيرا في الدراسات الفقهية القانونية كما سجل نشاطا كبيرا في مختلف العلوم كالتاريخ وعلوم اللغة والادب ومباحث الكلام والرياضيات وغيرها وقد كان لكتاب الدراسات القانونية والفقهية المقام الاول في هذا العصر ، وكانت لهم الاسبقية والايثار على رجال الثقافة الذين يعاصرونهم واهم ما تنبغي ملاحظته هنا ان اعلام القانون في هذا العصر لم يكونوا من النقلة الحفاظ لا غير ، وانما كانوا يميلون الى اعمال الراى الى الاجتهاد في دائرة المذهب المالكي ومنهم المترجم سعيد العقباني واذا رجعنا الى كتب التراجم وتصفحنا تراجم بعض الشخصيات الفقهية اللامعة وجدنا من بينهم ابني الامام ابي موسى عيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وابا زيد عبد الرحمن (١) المتوفى سنة ٧٤٣هـ ومحمد ابراهيم الآبلي (٢) المتوفى سنة ٧٥٧هـ وابا عبد الله محمد بن احمد العويني الشريف التلمساني (٣) المتوفى سنة ٧٧١هـ .

وابا عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق بن مرزوق التلمسانى الشهير بالخطيب (٤) المتوفى سنة ٧٨٦ ه ونجد الى جانب هؤلاء الفقهاء الاعلام شخصيات اخرى لا تقل عنهم شانا فى الابحاث الفقهية والدراسات القانونية الواعية منهم عمران بن موسى المشذالى البجائى (٥) الذى هاجرها الى تلمسان وانتصب فيها للتدريس الى ان توفى سنة ٧٤٥ ه ومنصور ابى على الزواوى المتوفى بعد سنة ٧٧٠ ه (٦) وغير هؤلاء ممن كانوا بتلمسان او ببجاية وقد نبغ مترجمنا سعيد العقبانى فى تلمسان فى هذا العصر وكان فى طليعة اعلامه ممن يفتخر بهم عصره ، وتزدان بهم حاضرته تلمسان ، وقد حفزنى باعث التعريف به وبنشاطه العلمى على ان اخصه بهذه الترجمة وبدراسة مقتضبة حول بعض انتاجه العلمى .

ترجمته : سعيد بن محمد العقبانى التلمسانى ولد سنة ٧٢٠هـ وتوفى سنة ٨١١هـ (٧) والعقبانى نسبة لعقبان وهى قرية من قرى الاندلس التى يعود اليها اصله وقد هاجرت اسرته الى تلمسان واستقرت بها . يقول فيه معاصره يحيى بن خلدون : (٨) انه اول نجباء بيته وهو ذو نبل ونباهة ودراية وتفنن فى العلوم ومهارة فى الحساب والهندسة واما صاحب الديباج فانه يذكر لنا شيوخه ومؤلفاته فيقول فيه انه امام فاضل فقيه فى مذهب مالك متفنن فى العلوم .

شيوخه : اخذ عن ابنى الامام ابى زيد وابى موسى وتفقه عليهما واخذ الاصول عن الامام الابلى . ويذكر انه ولى القضاء ببجاية والعلماء يومئذ متوافرون كما ولى قضاء تلمسان وله فى القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة .

ويزيد صاحب نيل الابتهاج قائلا (٩) : ان اصله من الاندلس تجيبى النسب وهاجر الى



تلمسان ومن شيوخه الحافظ السطى الذى اخذ عنه الفرائض وكان يقال له رئيس العقلاء ونقل عن ابن صعد انه كان فقيها علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان .

تآليفه : ذكر مترجموه له جملة مؤلفات فى موضوعات مختلفة :

١) ففى الفقه له شرح جليل على ابن الحاجب الاصلى .

٢) وفى الفرائض له شرح على الحوفى لم يؤلف عليه مثله

٣) وفى التفسير له تفسير سورة الفتح او الفاتحة اتى فيه بفوائد وزاد عليه صاحب نيل الابتهاج تفسير سورة الانعام (١٠)

٤) وفى الكلام له العقيدة البرهانية فى اصول الديـــن

٥) وفى اللغة له شرح بردة البوصيرى فى مدح النبى ص

٦) وفى الرياضيات له شرح التلخيـص فى الجبر والمقابلة لابن البناء وشرح قصيدة ابـن الياسمين فى الجبر والمقابلة ايضا .

٧) وفى المنطق له شرح جمل الخونجى .

تلاميذه : اخذ عنه طائفة من الاعلام كولـده قاسم العقبانى ، والامام ابى الفضل ابن الامام، والامام الحجة ابـن مرزوق الحفيـد والـولى العارف سيدى ابراهيم المصمودى والامـام العارف ابى يحيى الشريـف والشيـخ ابى العباس بن زاغو ، واخذ عنه بالاجازة الامـام المحقق النظار محمد بن عقاب الجذامى .

قضاؤه : اشتهر الامام سعيـد العقبانـى بمهارته القضائية وبتفوقه فى المباحث القضائية وكان اول نجباء بيته كما يقول يحيى بن خلدون وقد شغل القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة كمـا قدمنا . فتولى القضاء ببجاية ومراكش وسـلا ووهران وتلمسان وحمدت سيرته وكان فى عهد يحيى بن خلدون حوالى (٧٦٠ — ٧٨٠) يتولى قضاء الجماعة بتلمسان وامامة الجامع الاعظم فيها . وقد اكسبه القضاء ومهارته فى الرياضيات قوة على الجدل والمناظرات وصل فيـها الى درجة الشريف التلمسـانى وكـان كلاهمـا يستشرف الى درجة الاجتهاد المذهبى .

ونريد ان نذكر هنا صورة عن مناظر طريفة وقعت بين المترجم وبين الامام احمـد القبـاب الفاسى (١١) وكان علامة جليلا وهى تعطينا صورة جلية عن النشاط الفقهى والتعمـق فى مباحثه ومحاولة الاجتهاد فيما لا نص فيه للايمة السابقين وكان أعلام القانون فى هذه الفتـرة يستشرفون الى الاجتهاد المذهبى ومناقشة آراء الفقهاء السابقين كما نجد ذلك عند المترجم وعند الشريف التلمسانى وابن عرفة بتونس وابن لب والشاطبى بالاندلس وغيرهم وهذه المناظـرة التى دارت بين هذين العلمين من اعلام المذهب المالكى بعد منتصف القرن الثامن الهجرى تبدو فيها محاولة الاجتهاد واضحة جلية، لان موضوع المساجلة لم يتعرض له الفقهاء قبل ذلك ولـم تكن هناك احكام سابقة تتضمن البت فيها هذا ما دعا الفقيهين سعيد العقبانى واحمد القباب ان يجتهدا فى استنباط الحكم الشرعى المناسب وان يستعمل كلاهما مختلف الادلـة النقليـة والعقلية لابراز الحقيقة وافحام الخصم .

ومن الطريف ان نذكر ان موضوع هذه المناظرة يتصل بضرب من ضروب **التامـين الاجتماعى** وصلت اليه بعض النقابات الحرفية فى هذا العهد الاسلامى كما ورد فى مسألة المناظرة ولا يبعد ان يكون هذا النمط شائعا فى جميع حواضـر المغرب الاقصى والادنى وتونس ولعل فى هذا النموذج ما قد يطلعنا على تنظيم محكم للتجارة والصناعة التقليدية وينمى معلوماتنا عن النشاط التجارى وأنظمته الاجتماعية الدقيقة فى عصر ما بعد الموحدين .

وقد كان الباعث على احداث هذا النوع من التأمين الاجتماعى للتجار هو ما كان ينصـب عليهم احيانا من ضرائب تفرضها الدولة عليهم فكان هذا التنظيم موسيلة لتخفيف هذه الضرائب وتحمل اعبائها أما المنتجون من الحاكة وغيرهم فقد كانوا كما تبدو لنا حالتهم الاقتصادية مـن خلال المناظرة قليلى الارباح ، عديمى الثروة ، واثمان منتجاتهم كانت لا تزيد على لوازم نفقاتهم ومعاشهم بخلاف التجار فانهم كانوا احسن منهم حالا ، واكثر اموالا .

موضوع المناظرة : جاء فى الدرر المكنونة فى نوازل مازونة (١٢) : ان جماعة من التجـــار بمدينة سلا بالمغرب الاقصى اتفقوا على اخراج درهم عن كل بضاعة يشتريها واحد منهم لتوضع عند **امير التجار** ، وعند الحاجة اليها فى دفـــع الضرائب يستعان بـــها ، واشتكى الحاكـــة البائعون من ذلك واستفتوا سعيـــد العقبانى وكان قاضيا بسلا فأجابهم بالجواز ثم استفتوا الفقيه أحمد القباب بالرباط فأجابهـــم بالمنـــع ووقعت مناظرة كتابية بينهما وعقبتها مناظرات أخرى جمعها القاضى العقبانى فى كتاب دعـــاه (الباب اللباب فى مناظرة القباب) ووجهة نظر العقبانى تتلخص فى أن هؤلاء التجار قد اتفقوا فيما بينهم عن تراض على ان يجمعوا هـــذه الدراهم لوقت الحاجة وهى مملوكة لهم ملكيـــة مشتركة فى صندوق أشبه ما يكون بصنـــدوق تضامن لهؤلاء التجار فهى لذلك جائزة ومشروعة

اما القباب فانه رأى فى هذا الاتفاق تواطؤا على الحاكة البائعين ولذلك افتى بأن الدراهم المجموعة هى ملك لاولئك البائعين لا للتجار .

ولاعطاء صورة واضحة عن هذه المناظـــرة الطويلة وبسط حجج الفقهيين معا بايجـــاز نوردها فى صورة حوار فيما يلى :

سعيد العقبانى : ان هذا الدرهم المخرج من ثمن السلعة المشتراة هل يستوجب نقصـــا لاثمان الحاكة أم لا وهل يتعلق للبائعين بذلـــك حق ؟ مع علمهم بما اقدم عليه التـــجار اثنـــاء التعاقد ، وأن البائع منهم لا يبيـــع الا بعـــد أن يستوفى حقه من السلعـــة ، والمشتـــرى اذا اشتدت رغبته فقد يشترى بأكثر من الثمن الذى يدفعه فى حال فتور رغبته ، وعلى العكس من ذلك اذا كان البائع أحرص على البيع فقـــد يتساهل فى الثمن ، فما الذى يشوب بيعا وقع مستوفيا شروطه واركانه ولو كان ثمن البضاعة غاليا أو رخيصا ؟

على اننا نفرض ان المشترى لو تقاعس عن الزيادة فى السلعة لزهده فيها فان شراءه مـــن البائع المضطر يكون صحيحا لانتفـــاء عيوبـــه المبطلة ؟ (١٣)

وايضا فان فقه المسألة يظهر فى أن البائعين لا حق لهم فى ذلك الدرهم المخرج ولا فى منـــــع التجار المشترين من توظيفه على انفسهم لان البيع وقع صريحا بثمن مسمى وعليه سلم البائع منهم بضاعته ورضى بذلك فلا حجة لـــه بعـــد ذلك !

القباب : لا يجوز للتجار ان يتواطؤوا على ان لا يزيدوا على ثمن معين لان فى ذلك ضـــررا لهؤلاء الحاكة ؟ وكل اضرار بالمسلم حرام . وقد قال الاما ممالك : لا **ينبغى للنفر** ان يجتمعـــوا فيقولوا لا نزيد فى الثمن على كذا .

العقبانى : انه لا دليـــل على أن التجـــار تواطؤوا على أن لا يزيدوا فى السلع وذلك غير مسلم وانما اتفقوا على اخراج درهم من كـــل سلعة يشتريها أحدهم (١٤)

القباب : لا يمكن التسليم بعدم التواطؤ بـــل ان كل تاجر يضع حسابا للدرهم المدفوع عنـــد شرائه فيحاول ان ينقصه من ثمن السلعة وفى هذه مضرة واضحة للبائع (١٥) .

العقبانى : اذا سلمنـــا بمضـــرة البائعـــين فليتواطأ هؤلاء البائعون ايضا ليدفعوا هـــذا النقص عن انفسهم على أن لا يبيعوا الا بزيادة هذا الدرهم ما دام المشترون قد اتفقوا وكل من الطرفين حر مختار فى تعاقده واتفاقه .

القباب : لو سألنا اهل المعرفة فى هذه المسألة لقالوا ان التحامل يقع على الباعة دون التجار .

العقبانى : لا نسلم ذلك فقد نجد التاجر الشديد الحرص من هؤلاء قد يتحامل على نفسه فى شراء سلعة ويقدم على شرائها بثمن غال باهض فأين التحامل فى هذا ؟

القباب : ان التجار يعملون دائما على الحطيطة من ثمن البضائع المشتراة .

العقبانى : لاشك ان البائعين من الحاكة قد يعرضون سلعة بالسوق ويساومها غير التجار من المستهلكين ثم يتدخل التجار ويتزايدون فيها حتى يأخذوها بأكثر مما دفعه المشترى العادى فكيف يمكن الادعاء بعد ذلك من ان التاجر قد اخذها بأقل من ثمنها وانه لجأ الى الحطيطة .

ولنا صورة توضح لنا هذا الايراد وهى ان رب السلعة لو باع سلعته بـ ١٠ دراهم لمن لا وظيف عليه ولم يلتزم باخراج الدرهم من كل سلعة يشتريها ، ثم ان وكيلا له باع نظيرها بـ ٢٠ درهما من احد هؤلاء التجار الملتزمين لهذا الوظيف فهل فى امكان المعترض ان يقول ان الواجب على التاجر ان يزيد درهما على ٢٠ درهما آخر مما يتقدمه الى صندوق التضامن فان قال نعم فقد طلب ما لا يقبله عقل لان التاجر زاد على المشترى العادى نصف الثمن وان قال بأنه لا يزيد فقد نقض حجته من اساسها (١٦) .

القباب : ما قول المعترض فيما قاله مالك كما جاء فى كتاب ابن المواز لا بأس ان يقول الرجل للرجل كف عنى لا تزد على فى هذه السلعة ، واما العامة اهل السوق فلا يجوز لهم ان يتفقوا جميعا على ذلك ، وفى عمل التجار ما يشبه هذا !

العقبانى : لا اسلم ان التجار يمتنعون من الزيادة والواقع انهم رغم التزامهم باخراج هذا الدرهم يتزايدون فيما بينهم واذن فأين الامتناع من الزيادة المزعومة ؟

اما مسألة الموازية فانما تشمل تمالؤ اهل السوق على ترك الزيادة ومسألة النزاع يوجد فيها هذا النوع من الاتفاق .

القباب : ان البائعين مضطرون للبيع وتواطؤ التجار ثابت فكيف نبيح لهم ذلك ؟

العقبانى : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ ! فان لم يكلفوا بشرائها وهذا ما تتطلبه عقود البيع والمعاملات ، فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما اوجب الله على الاغنياء ان يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها والبيع من شروطه الطوع والاختيار ، على اننا مع هذا نقول بأنه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان معطلا لامر البياعات لانها من لوازم الحياة الاجتماعية .

القباب : ان البائعين ضعفاء مضطرون للبيع بأى ثمن وجدوا والمشترين له مفضول أموال الا ما يوافق اغراضهم وبالاثمان التى يستيقنون منها جلب الارباح ، ومن بواعث المواساة التى دعا اليها الاسلام ان لا يجحفوا بحقوقهم فى البيع .

العقبانى : ان امر المواساة شىء والبياعات شىء آخر الا ترى ان المسافرين قد يبيعون فى حالة الحاجة بأثمان رخيصة وتمضى عقودهم عند جميع الفقهاء ولا يقول واحد منهم ان المشترين قد ظلموهم وايضا لو تصورنا ان البائعين قد اتفقوا على اخراج درهم عن كل سلعة يبيعونها لتوظيفهم افلا يكون المشترون ملزمين بشرائها بهذا الثمن الذى يريده

البائعون ؟ وهل يسلم المعترض فى هذه الصورة بأن الدرهم المخرج هو ملك المبتاع أم انه يزعم بأنه ملك للبائع ، فان قال لاحق للمبتاع فيه فقد نقض حجته فى مسالة النزاع وان قال انه حقه فقد وافقنا فى وجهة نظرنا وهذا هو المطلوب . واخيرا يختم العقبانى مناظرته قائلا بأن العلامة القباب قد أذعن لحجته ، وسكت عن اثارة اعتراضات أخرى حول فتياه ، وقد حاول العقبانى ان يعطينا حلا لهذه المشكلة التى استعصت على الانظار الفقهية أن تجد لها حكما قاطعا فقال : ان سر هذه المسالة ان ما يفعله التجار من مثل هذا الاتفاق ان كان غرضهم منه هو الاضرار بالحاكة البائعين فانهم يمنعون منه عملا بالمبدأ العام لا ضرر ولا ضرار ، وان كان غرضهم نفع أنفسهم والضرر انما جاء تبعا غير مقصود فلا معنى لمنعهم منه .

تعليق : واذا تتبعنا هذه المناظرة بتأن وامعان استشففنا منها النشاط الذهنى لفقهاء القرن الثامن والتحرر الفكرى الذى كانوا يمتازون به فى خوض مباحث جديدة لم يطرقها من سبقهم من الفقهاء ، ومحاولة الاجتهاد فى ايجاد سند قانونى لاباحتها او حظرها وهذا ما تقدمه الينا هذه المناظرة الطويلة التى لخصناها فى الصفحات الماضية وهى تظهر لنا كلا الفقيهين المتناظرين واسعى الاطلاع ، معتمدين على أعمال العقل غير اننا نجد العقبانى طويل الباع فى جدله ، واسع التصرف فى ايراد مختلف الحجج لتبرير وجهة نظره القانونية المحضة ونجد القباب من جهة اخرى يحاول أن يدخل العنصر الانسانى فى التعاقد حتى لا يقع اجحاف على المتعاقدين وهو لا يكتفى بصورة العقد الشكلية وانما ينظر الى الغاية والنتيجة هل تسلم من نتائج الاستغلال التى يحاربها الاسلام .

ويبدو لنا ان القباب كان يتصور بأن كل اتفاق يصدر من جماعة ما تتعامل مع جماعة أخرى قد يشوبه التواطؤ وتشمله الحرمة بالتالى ، ولكن العقبانى قد أوضح لنا بأن كل اتفاق لم يكن ضد الاخرين وانما كان لمصلحة المتفقين فهو جائز رغم ما قد يلحق اولئك من بعض الضرر غير المتعمد .

والعقبانى نجده فى هذه النتيجة يقترب من نظرية التعسف فى استعمال الحق وهى موجودة فى الفقه الاسلامى ولكنها لم تنسق مباحثها كما فعله كتاب القانون فى العصر الحديث وهذه النظرية تنقسم الى معيار شخصى ومعيار مادى (١٧) والمعيار الاول يرى اصحابه أن التعسف لا يوجد الا اذا توافر قصد الاضرار بالغير لدى صاحب الحق ، والمعيار المادى واصحابه يرون انه يتجلى فى الخروج عن الهدف الاجتماعى ، وقد استند العقبانى ــ كما رأينا فى اتفاق التجار الى انهم لم يريدوا الاضرار بالحاكة وانما أرادوا نفع انفسهم وتخفيف وطأة الضرائب عنهم .

ولو ذهبنا الى البحث عن صور الغبن فى هذا التعاقد لوجدنا ان هذا النوع من الغبن الذى ينصب على الباعة المنتجين ليس فيه غبن بمعناه الفقهى المعروف لان الغبن هو عبارة عن تفاوت كبير بين التزامات أحد العاقدين والتزامات العاقد الاخر ناشىء عن استغلال هذا العاقد الاخر طيشا بينا وهوى جامحا لدى العاقد ، وحد الغبن لا يكون الا اذا بلغ الخمس (١٨) وهو ما لم يصل اليه الغبن الواقع فى قضية النزاع السابقة ، كما أن الاستغلال لا يوجد له اثر فى هذا التعاقد .

واذا جارينا بعض الفقهاء حول موضوع الغبن فانهم يقولون : ان الغبن الفاحش وحده فى العقود لا يعيب الرضا ما لم يصاحبه شىء من الخلابة وعلى هذا استقرت معظم الاجتهادات ذلك لان الغبن المجرد عن كل خديعة لا يدل الا على تقصير العاقد المغبون فى تحرى الاسعار ومعرفة حد البدل العادل ، ولا يدل على مكر

من العاقد الاخر ، ولكل انسان ان يطلب المزيد من المنفعة بالطريق الحر المشروع دون غـش واحتيال (١٩) .

ولكن على شرط ان لا يضر ذلك بالجماعـة كما فى الاحتكار ، وقد انتبه العقبـانى الى ان التجار لو تواطؤوا على ان يشتروا تلك السلعة المعينة لحكـم على اتفاقهـم بالحرمـة ، ولكن اتفاقهم انما انصب على اخراج نسبة ماليـة معينة كلما اشتريت وحدة سلعية لتوضـع فى صندوق تعاونى احتياطى دفعا لمضرة متوقعـة لهم لا ارادة الاضرار بالباعة رغم ما قد تنتج عنه مضرة تبعية غير مقصودة للباعة . وقد اهتدى القباب اخيرا الى أن جميع الاعتراضـات التى اوردها على فتيا العقبانى لم تجد لها سنـدا قانونيا يدعمها ولذلك عدل عن متابعة الاعتراض كما اشار الى ذلك العقبانى فى آخر مناظرته .

على اننا رغم تقديرنا للعلاقة العقبانى فاننـا نجد فى بعض حججه الطابع الجـدلى الـذى يستهدف افحام الخصم ، لا اظهار الحقيقة كما فىقوله : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتـوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلـك السلع ؟ فان لم يكلفوا بشرائها ــ وهـذا مـا تقتضيه عقود البيع الرضائية فكيف يلزمـون بثمن معين ؟ وانما اوجب الله على الاغنياء ان يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها ؟ وفى هذه الحجة طابع جـدلى والا فكيف يتأتى لهؤلاء التجار ان يتفقوا عـلى عدم الشراء وفى هذا اضرار صريح بالباعة ؟ وايضا يقول أن المواساة لهؤلاء الباعة لا تكون بطريق الشراء ؟ ولماذا لا تكون المواساة فىتعاقد يعتمد على التعويض والحديث « بع سمحـا واشتر سمحا » يشير الى هـذا النـوع مـن المواساة ، وقد تكون المواساة مع منتج ضعيف ليست لديه قدرة على التسويق افضـل مـن اللجوء الى مواساته عـن طريـق الصدقـة والاحسـان .

وايضا فقوله لا نشترى سلع هؤلاء الحاكـة ولو ماتوا جوعا ــ هو التزام حرفى لشكلية عقود البيع واغفال للعامل الانسانى الذى يستهدف التعامل فى الشريعة الاسلامية مما قد تدعـو الضرورة ــ تحت تاثيره الى اغفال حكم ما عن التنفيذ كاغفال حكم السرقة فى عام المجاعـة وكتضمين دية من وجد ميتا جوعا فى عرصة قوم الذى اخذ به الخليفة عمر بن الخطـاب رضى اللـه عنـه .

وكان سعيد العقبانى قد شعـر بضعـف ايراداته السابقة فاستدرك ان ذلك الافتراض لا يقع لانه لو تمالأ اهل الوجـود من بائعـين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان ذلك معطلا لامر البياعات لانها من ضـرورات الحيـاة ، واخيرا نلاحظ ان هذه الخصوبـة الفكريـة فى الابحاث الفقهية التى لمسنا لمحات منهـا عنـد العقبانى والقباب ونلـمس نظائـرها لـدى معاصريهم من الفقهاء كالشريف التلمسانى وابن مرزوق الخطيب وعمـران البجائى والمشـذالى والشاطبى وابن عرفة وعند من خلفهم من علماء القرن التاسع الهجرى قد تراجعت فى القـرن العاشر وما بعده حتى صار الامثال من الفقهاء فيه هو من يحفظ النصوص من المختصرات لا غير ، واما الغوص عند دراسة الاحكام فى امهات الكتب والرجوع الى اقوال الامام مالك بـدون واسطة ومحاولة الاستنباط من القرآن والسنة واعمال الفكر كما فعله العقبانى ومعاصروه فلم يكن يفكر فيه احـد .

وقد تبدو الان حاجة طلاب الفقه والقانـون شديدة لربط دراستهم الفقهية الحديثة بدراسات اعلام الفقه فى القديم كما قد يجـدون لديهـم ابحاثا طريفة وعميقة قد لا تقل أو تفوق عن بعض ابحاث فقهاء العصر الحديـث .

هوامش :

(١) احمد بابا السودانى التنبكتى : نيل الابتهاج . مصر ١٣٥١ هـ — ص ١٦٦
ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢٠ —
المقرى احمد : نفح الطيب ج ٧ ص ٤٤٤
يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ١ ص ٧١ — ابن مريم البستان ص ١٢٢
البستانى فؤاد افرام : دائرة المعارف بيروت ١٩٥٨ م — مج ٢ ص ٣٤٩
الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف الجزائر ١٩٠٦ م ج ١ ص ٢٠١ — ٢١٣

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢١ — ابن خلدون عبد الرحمن : التعريف تحقيق ابن تاويت ص ٣٣ — نفح الطيب ج ٧ ص ١٦٧ — جذوة الاقتباس لابن القاضى ج ٢ ص ٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٧

(٣) نيل الابتهاج ص ٢٥٥ — البستان ص ١٦٤ — ١٨٤ والتعريف لابن خلدون — تحقيق ابن تاويت القاهرة ص ٦٢ — وبغية الرواد ج ١ ص ٥٧

(٤) السيوطى : بغية الوعاة مصر ١٣٢٦ هـ ص ١٨ — ابن فرحون الديباج المذهب مصر ١٣٥١ هـ ص ٣٠٥ — نيل الابتهاج على هامش الديباج ص ٢٦٧ — نفح الطيب ج ٣ ص ٣١١— ٣١٩ — البستان ص ٣٠٥ — ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٠ — ٣٦١ — كحالة عمر رضا : معجم المؤلفين ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ . (٥) نيل الابتهاج ص ٢١٥ — ٢١٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٧٢ — نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٨

(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤٥ — ج ١ ص ٧٤ — ابن خلدون شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٣٤

(٧) ابن مريم — البستان ص ١٠٦ — الديباج المذهب ص ١٢٤ — نيل الابتهاج ص ١٢٥ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — معجم المؤلفين لكحالة ج ٤ ص ٢٣٠

(٨) بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — (٩) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١٠) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١١) احمد القباب كان فقيها حافظا علامة تولى قضاء جبل الفتح ودخل غرناطة سنة ٧٦٢ هـ ومن تآليفه اختصار أحكام النظر لابن القطان اسقط فيه الدلائل والاحتجاج وشرحه على القواعد فى غاية الاتقان وله مباحث مشهورة مع الامام الشاطبى فى مسألة مراعاة الخلاف فى المذهب احسن فيه غاية ، ويذكر عنه انه لما حج واجتمع فى تونس بابن عرفة واوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهى فقال له صاحب الترجمة ما صنعت شيئا فقال له ابن عرفة : ولم ؟ فقال لانــه لا يفهمه المبتدىء ولا يحتاج اليه المنتهى ، فتغير وجه الشيخ ابن عرفة والقى عليه اسئلة اجابه عنها ، وهذا ما حمل ابن عرفة على بسط العبارة فى اواخر مختصره .

واشار صاحب نيل الابتهاج الى هذه المناظرة التى وقعت بينه وبين العقبانى وهناك مناظرات اخرى وقعت بينهما وقد جمعها العقبانى فى كتاب سماه لباب اللباب فى مناظرة القباب (راجع نيل الابتهاج ص ٧٣)

(١٢) المازونى : الدرر المكنونة فى نوازل مازونة مخطوط المكتبة الوطنية .

نسخ محمد بن الصديق المشرفى ١٢٤٥ هـ ج ١ الورقات ٤٧٣ — ٤٩٠

(١٣) الدرر المكنونة الورقة ٤٧٤

(١٤) المصدر السابق الورقة ٤٨٧

(١٥) المصدر السابق الورقة ٤٧٩

(١٦) المصدر السابق الورقة ٤٨٢

(١٧) هشام القاسم : المدخل الى علم الحقوق ، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٧١

(١٨) هشام القاسم : محاضرات فى القانون المدنى : دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٨ م ١٩٦٩ م ص ١٤١

(١٩) مصطفى احمد الزرقاء : المدخل الفقهى العام بيروت . دار الفكر ١٩٥٢ م ج ١ ص ٤١٧

(٢٠) الدرر المكنونة فى نوازل مازونة المصدر السابق ج ١ الورقة ٤٨٢

مشكلة

الصّدق والكذب فى الأدب

د : رشيد مصطفاى

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

تعرض القدماء لهذه المشكلة فانقسموا الى ثلاث فرق احداهما تستحسن الكذب او الغلو والاغراق والثانية ترده وتميل الى الحقائق والثالثة تتوسط بينهما فتقبل الافراط بشرط .

من الفريق الاول قدامة بن جعفر الذى يقول فى نقد الشعر : « وهو انى رايت الناس مختلفين فى مذهبين من مذاهب الشعر وهما الغلو فى المعنى اذا شرع فيه والاقتصار على الحد الاوسط فيما يقال منه . »

ثم يقول بعد ذلك : « ان الغلو عندى اجود المذهبين وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وقد بلغنى عن بعضهم انه قال : احسن الشعر اكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم ومن انكر على مهلهل والنمر وابى نواس قولهم المقدم ذكره فهو مخطىء لانهم وغيرهم ممن ذهب الى الغلو انما ارادوا به المبالغة وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم **فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت** وهذا احسن من المذهب الآخر » .

لا شك ان قدامة وامثاله ممن يستحسنون الغلو نظروا فى شعر المحدثين فوجدوه كله يذهب مذهب الاغراق فى المعانى يقول الجرجانى صاحب الوساطة وهو من الفريق الذى يرفض الافراط ما يلى : « فاما الافراط فمذهب عام فى المحدثين وموجود كثير فى الاوائل والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته

الحال الى الاحالة وانما الاحالة نتيجة الافـراط وشعبه من الاغراق والباب واحد ولكن له درج ومراتب . » ولذلك يذكر قول ابى نواس :

واخفت اهـل الشرك حتى انـه

لتخافك النطف التى لـم تخلق

ويراه « من المحال الفاسد وله باب غير هذا وكل هذا عند اهل العلم معيب مردود ومنفى مرذول وان كان اهل الاغراب واصحاب البديـع مـن المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به ولسنا نذهب بما نذكره فى هذا الباب مذهب الاحتجاج والتحسين »

ويرد المعرى فى لزوميته هذا المذهب قائـلا : « كان من سوالف الاقضية انى انشات ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكـذب والميط » ويقول بعد ذلك : « فان جاوزت المشترط الى سواه فان الذى جاوزت اليه قول عرى من المين » .

اما الخفاجى صاحب سر الفصاحة فيتخذ موقفا وسطا فيقول بعد ما ذكر اختلاف الناس فى مذهب الغلو والافراط : « والذى اذهب اليه المذهب الاول فى حمد المبالغة والغلو لان الشعر مبنى على الجواز والتسمح لكن ارى ان يستعمل فى ذلك **كاد** وما جرى فى معناها ليكون الكلام اقرب الى حيز الصحة كما قال ابو عبادة :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كـاد ان يتكلما

ويذهب ابن رشيق فى العمده مذهبه فيقول : « واحسن الاغراق ما نطق فيه الشاعر او المتكلم **بكاد** او ما شاكلها نحو كان ولو ولولا وما اشبه ذلك مما لم يناسب ابيات ابى الطيـب المتقـدم ذكرها فى البشاعة الا ترى ما اعجب قول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم بأحسابهم او مجـدهم قعدوا

فبلغ ما اراد من الافراط وبنى كلامه عـلى صحـة . »

ويلخص المرزوقى هذه المذاهب الثلاثة بقوله : « فمنهم من قال « احسن الشعر اصدقه » قال لان تجويد قائله فيه مع كونه فى اسار الصدق يـدل على الاقتدار والحذق ومنهم من اختار الغلو حتى قيل « احسن الشعر اكذبه « لان قائله اذا اسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيمـا يأتيه الى اعلى الرتبة وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الصناعة واتسعت مخارجه وموالجه فتصرف فى الوصف كيف شاء لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل لا المصادقة والتحقيق وعـلى هذا اكثر العلماء بالشعر والقائلين له وبعضهم قال : « احسن الشعر اقصده » لان على الشاعر ان يبالغ فيما يصير به القول شعرا فقـط فمـا استوفى اقسام البراعة والتجويد او جلها من غير غلو فى القول ولا احالة فى المعنى ولم يخـرج الموصوف الى ان لا يؤمن لشىء من اوصافه لظهور

السرف فى آياته وشمول التزيد لاقـــواله كان بالايثار والانتخاب أولى »

نلاحظ ان المحدثين لما اختاروا الغلو والاغراق انما كانوا ينحون نحوا مثاليا فى وصفهم معرضين عن الوصف الواقعى الموضوعى الذى يحملهم على بناء شعرهم على الصـــدق ولا سيمـــا فى مدحهم للملوك وقد تعرضنا له فى محله من هذه الدراسة ورأينا اتفاق النقاد على استحسان الغلو والاغراق فى وصف الملوك .

ولذلك قال قدامة بن جعفر : « وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجـــود ويدخل فى باب المعدوم **فانما يريد به المثل وبلوغ النهـــاية** فى النعت وهـــذا احســـن من المذهب الآخر . »

ويرى رأيه المرزوقى فيقول : « ... حتى قيل احسن الشعر أكذبه لان قائله اذا أسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف **امتد فيما يأتيه الى اعلى الرتبة** وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الوصف كيف شاء **لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل** . » ويوافقهما على ذلك ابن رشيق فيقول ناسبـــا قوله الى الحاتمى الذى يكون قد نقل ما يلى عن قدامة بن جعفر : « وقالوا : اذا اتى الشاعـــر من الغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلـــوغ الغـــاية فى النعت . »

تأخذ هذه المثالية عند البحترى شكلا خاصا اذ تحتوى عنده على حقائق ثابتة شبيهة بحقائـــق افلاطون أو مثله العليا وعلى هذا تكون موصوفاته مظاهر تلمح الى هذه الحقائق وهكذا قوله بهـــا واعتقاده لها يحملان كلامه على الصدق كما حمل كذبه » اذ صار ما يراه غيره غلوا واغراقا حقيقة هى فى نظره ، أحق من الحقيقة الواقعية لان الاولى جوهر والثانية عرض والاعراض متغيرة زائلـــة فوظيفتها عند الرمزيين والمثاليين ان تشير الـــى الحقائق الجوهرية الخالدة .

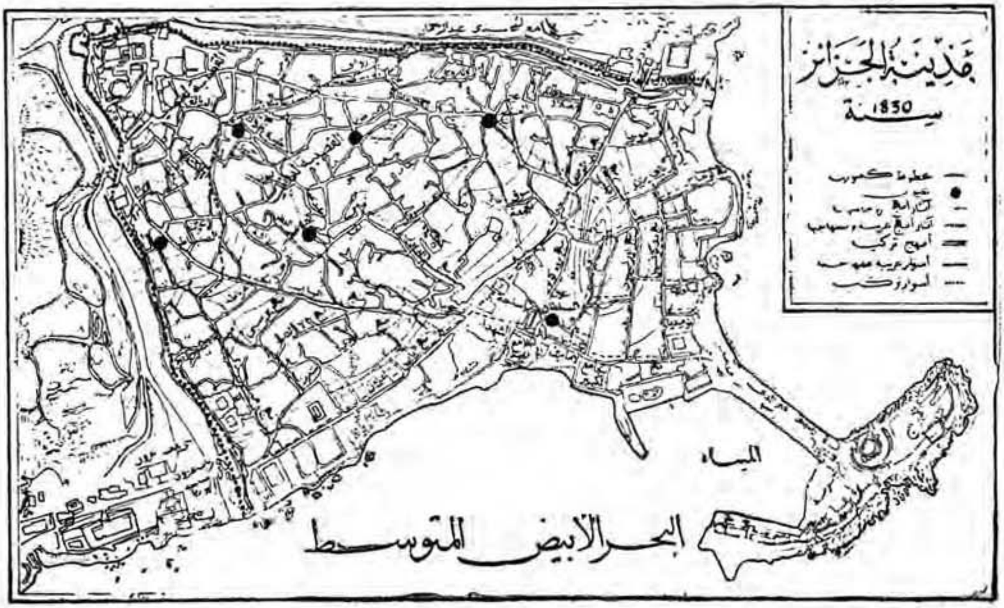
ثم يرى ان النفوذ الى هذه الحقائق المثلـــى لا يكون عن طريق التعقل والمنطق لانها لم تكن طريق امرىء القيس اليها وانما تكون عن سبيل الطبع او الوجدان والتلقى .

أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر

عبدالقادر حليمي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ان الموضع الذى بنيت عليه مدينة الجـزائر القديمة قبل الاحتلال الفرنسى ينقسم علـى اساس التضاريس الى منبسط ضيق على نحر البحر ، والى ربوة يزيد ارتفاعها عن المائـة متر تشرف على البحر . أما المنبسـط فهـو الموضوع الاول الذى خطط فيه الفينقيون الاولون المدينة العتيقة او ايكوسيم التى اندثرت وعفـا رسمها الى الأبد . وربما كانت تمتد ايكوسيم الفينيقية حتى الجزر القديمة،ولا ندرى عن انهجها وتخطيطاتها الا الشىء القليل الذى يزداد غموضا كلما تعمقنا فى التاريخ . اما الربوة فهى التـى



بنى فوقها الاتراك ومن قبلهم العرب حى القصبة .
وتتالف الربوة من تكوينات الشيست اللماع كانت تنحدر منها مسيلات وجداويل وشعاب عديدة نحو شارع باب عزون ـ باب الوادى او المنبسط ، اهمها شعبة تنطلق من قمة ربوة القصبة وتمر بالقرب من نهج ميدى Medée **لتخرج فى باب عزون وبذلك تمثل هذه الشعبة الحد الطبيعى الغربى والجنوبى للمدينة ، ثم شعبة تنطلق من قمة القصبة ايضا لكنها تنحرف الى الشمال لتمر بالقرب من نهج القصبة لتخرج فى باب الواد وبذلك تمثل الحد الطبيعى الشمالى للمدينة .**
والشعبتان المذكورتان اعطتا لمدينة للجزائر القديمة شكل المثلث المتساوى الاضلاع ، قاعدته تسير وخط الشاطىء ، وقمته تنطبق على قمة القصبة ، او تنطبق على النقطة التى كانت تنطق منها الشعبتان .

وكانت مياه الامطار تتبع فى جريانها تلك الشعاب وكذلك المسيلات على ان نسبة من الامطار كانت تتسرب خلال الشقوق والفوالق لصخور الشست على الربوة قبل وصولها الى البحر فتتحول بذلك الى مجارى باطنية والى عروق مائية باطنية لا تلبث أن تظهر من جديد فى شكل عيون عند مجارى البطون الدنيا للشعاب ، او عند ساحة الشهداء بالخصوص ، مثل عين السلطان قرب الجامع الكبير وعين العطش ، وعين السباط فى منخفض نهج البحر الاحمر ، وعين الشيخ حسين فى منخفض نهج الزرافة ، والعين الجديدة فى منخفض نهج ريقار ، وعين العلج فى نهج حيدرة . وهى عيون قد استفاد منها السكان القدماء من اهالى وفينيقيين قبل نشأة السواقى .
وقد مرت مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى بانواع مختلفة من التخطيطات منها التخطيط

الشطرنجى الذى يرجع الى العهد الرومانى ، ويتميز بشوارعه وانهجه المستقيمة والمتبعة فى اتجاهاتها لخطوط التسوية مثل شارع الكاردو، وشارع الديكيمانوس . ويظهر ان الشارع الاول او الشارع الرئيسى (كاردو) كان ينطبق فى امتداده من الشمال الى الجنوب على شارع باب عزون . اما الشارع الثانى (ديكيمانوس) فكان يمتد من الشرق الى الغرب وينطبق تماما على نهج لامارين الحالى . وتتصل بالشارع الاول والشارع الثانى انهج مستقيمة فى كل الاتجاهات تنتهى عند الاسوار .

ولقد سن الرومان لهذه الانهج والشوارع قوانين صارمة منها معاقبة الذين يرمون الاوساخ بها ، وكلفوا موظفين لاصلاحها وترميمها ومنع السكان من نشر الملابس فوق الشبابيك المقابلة لها .

والتخطيط الثانى هو التخطيط الاختباطى الذى حدث للمدينة فيما بعد العهد الرومانى فوق الربوة الى الاعلى من خط كنتور باب عزون — باب الوادى ، فيه تسلقت المبانى وتدخلت الانحدارات فى امتداد الانهج وتصنيف المنازل ، واتبعت الانهج فى امتدادها بطون الشعاب مرة ، والاذرع مرة اخرى ، ذلك ان هذا التخطيط الاختباطى لم يكن خاضعا لبرنامج معين او لتسطير مسبق ، بل ان العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا فى بناء المنازل ومد الانهج ، دون مراعاة للمستقبل وما يفرضه النمو العمرانى ، لذلك ساد التشابه فى التخطيط لهذه الفترة بين القرى الجبلية فى جبال الاطلس وبين حى القصبة فى مدينة الجزائر اى ان التخطيط كان قرويا بريا او جبليا معقدا اكثر منه مدنيا وحضاريا منظما . فالانهج اتبعت فى سيرها ، للمرحلة الاولى ، لما بعد العهد الرومانى ، خطوط ، الارداف اولا اى اصبحت تتقاطع وخطوط الكنتور بدلا من سيرها مع خطوط الكنتور . وفى المرحلة الثانية او فى العهد التركى عندما اشتد نمو السكان وعاقت الاسوار اتساع وانتشار المبانى التى زحزحت الانهج من الارداف الى بطون المسيلات واصبحت اسرة المسيلات والشعاب تصرف مياه الامطار الى جانب فضلات المنازل ، فهى قنوات طبيعية مزدوجة الصرف ، ثم خزنت قنوات لصرف اوساخ المنازل لتنتهى دائما فى الشعبات . ولما زاد عدد سكان المدينة ظهرت مشكلة السكن ، فرفعت لذلك المنازل حتى فى بطون الشعاب والمسيلات ، وعندئذ اضطر السكان على اطالة وتمديد قنوات الاوساخ المخزونة ، وانشاء مجارى باطنية للفظلات تسير والانحدار العام للمنطقة وتتبع فى اتجاهاتها انحناءات الشعاب لتصب فى البحر ، وكذلك الانهج اخذت تلتوى بالتواء الشعاب وهذا ما يفسر لنا كثرة الدروب والانهج الملتوية لمدينة الجزائر فى العهد التركى ، وحى القصبة فى الوقت الحالى ، وكذلك حى باب الجزيرة قبل الحرب العالمية الثانية ، وهى حرب خربت هذا الحى ثم اعيد بناؤه من جديد لكن على الطراز الحديث من شوارع مستقيمة وواسعة ولم يبق من حى باب الجزيرة القديم فى الوقت الحالى الا خرقة صغيرة محصورة ومنعزلة على الشاطىء . ويلاحظ على دروب القصبة ان الكثير منها واقع فوق قنوات قديمة لصرف الاوساخ وانها كانت مرصوفة بالحجارة الجيرية الزرقاء حتى مطلع الاحتلال الفرنسى ثم اعيد ترصيفها بالحجارة وبناء الادراج بها ، فيما بعد ١٨٣٤،وهى الادراج التى تكثر فى دروب القصبة فى الوقت الحالى حتى يمكن ان نطلق عليها حى الادراج والسلاليم .

وعلى اساس التخطيطات المختلفة التى مرت بها مدينة الجزائر من العهد الفينيقى الى سنة ١٨٣٠ يمكن تحديد اتساعها فى العصور المختلفة. ومن المسلم به ان المدينة اعيد ترميمها وتجديدها

وتوسيعها عدة مرات . فاعاد العرب بناءها اولا فى الموضع الذى اختاره لها الفينيقيون والرومان من قبلهم لاسباب : منها أن الموضع توجد به شوارع وانهج قديمة لا تحتاج الى تخطيط جديد بل يكفى استصلاحها وترميمها لتؤدى وظيفتها على اكمل وجه ، ثم ان الموضع تتوفر به مواد البناء من حجارة كانت لاسوار ومنازل رومانية ، فاستعملها العرب فى بناء منازلهم ورفع اسوار المدينة من جديد . ومنها أن الموضع جيد للتجارة وقريب من البحر وهو النقطة الاولى للمواصلات بين البر والبحر ، تتوفر به مياه الشرب ، والخضر من بساتين وحدائق القصبة . ولقد ادى ازدهار تجارة جزائر بنى مزغنة الى زيادة عدد سكانها وحينئذ اخذ الشعور يزداد نحو توسيعها ، وكانت الاسوار العتيقة المحيطة بها تحول دون ذلك فاتجه السكان اولا ، نحو اعلى الربوة الواقعة الى الجنوب الغربى من خط كنتور شارع باب عزون — باب الوادى — واخذت المبانى والديار تحل محل الحدائق والبساتين ، ويظهر ان اول موضع اتجه نحو العمران فى العهد الاسلامى الاول هو الموضع الذى يوجد به جامع سيدى رمضان ، حيث توجد به عين السباط وتقل به الانحدارات وهو موضع ملائم تماما لامتداد العمران ويساعد عليه .

وفى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد زادت هجرة الاندلسيين من اسبانيا نحو جزائر بنى مزغنة وبذلك زادت ضرورة التوسع العمرانى مرة اخرى وزادت حاجة الحضر الى المساكن . واختار الاندلسيون المواضع العالية من القصبة التى يظهر منها البحر جيدا . وبذلك اشتد ازدحام المبانى فوق الارداف ومتون الروابى وبطون المسيلات،ورفعت المنازل فوق السفوح وفى مواضع الحدائق . ولا شك ان منازل متون الروابى ظلت تحتل الميزة المطلوبة ، والقيمة المرتفعة لدى السكان نظرا لموقعها المشمس والجميل ، اذ من شبابيكها المطلة على البحر يمكن الاشراف على مساحة واسعة من البحر والبر ورؤية القادمين من بعيد .

وبعد سنة ١٥١٦ بدات الجزائر تستقبل افواجا من المهاجرين زيادة عن افواج الاندلسيين اذ جاءها هذه المرة عروج ومعه عدد من الاتراك وعدد آخر من سكان شرق الجزائر الذين آزروه وناصروه فى شرق البلاد ومنهم سكان قبيلة تكسانا Texana من جيجل الذين اوكل اليهم الاتراك تموين الانكشارية طيلة العهد التركى بالجزائر اما الاندلسيون فقد بلغ عدد منازلهم سنة ١٦٠٩ حوالى ٣٠٠ منزل . ونتج عن هذه الهجرات الضغط السكانى مرة اخرى على المبانى الواقعة داخل اسوار المدينة ، وهى اسوار كانت ضرورية لحماية المدينة من حقد العدو المسيحى الذى هاجت عصبيته فى هذه الفترة بالذات . وحينئذ تعارضت مصلحة الحماية ومصلحة التوسع لمدينة الجزائر التى انتقل عدد سكانها من ٢٠ الف نسمة سنة ١٤٥٠ الى ٣٠ الف نسمه سنة ١٥١٨ ثم ٦٠ الف سنة ١٥٨٠ ثم ١٠٠ الف سنة ١٦٣٤ ثم الى اكثر من مائة الف نسمة سنة ١٧٥٥ . وبدا عروج سنة ١٥١٦ مشروع توسيع المدينة الذى استمر طيلة ٨٥ سنة فيها مدت المبانى نحو الجهات العليا من القصبة وهى الجهات التى ما زالت تحمل اسماء اثرية للاتراك مثل نهج المماليك ونهج الانكشارية . وراى المخططون الاتراك ضرورة تشييد اسوار المدينة مرة اخرى واطالتها نحو الجهات الجنوبية الغربية بالخصوص بدلا من الجهات الشرقية التى يحميها البحر وبدلا من الجهات الشمالية التى تحميها الانحدارات الشديدة ، ثم ان الجهات الجنوبية الغربية بحكم شدة ارتفاعها تساعد اكثر من الجهات الاخرى على مراقبة سفن العدو ورغم هذا التوسع فان مشكلة السكن ظلت قائمة

لتكاثر السكان وتعقيد المنطقة اذ ليس من السهل ايواء عدد كبير من البشر فى منطقة محصورة وحمايتها من العدو الذى يتربص بهم الدوائر . ولذلك بدأت المساكن تتزاحم واخذت الديار ترتفع فى كل شبر ممكن من المدينة ، فعمرت الحدائق والشعاب واسرة المجارى المائية. ثم تسلقت المبانى فوق بعضها البعض مثل حبات عنقود العنب بعد ان غزت حتى الانهج القديمة منها والحديثة ، ببناء طابق ثانى أوسع فوق الطابق القديم وركز الطابق الثانى على اضلاع مائلة مركزة على الطابق الواقع فى الاسفل بحيث تحولت معظم الانهج فى الاخير الى انفاق ودروب لا تظهر منها الشمس بمجرد قلب النظر الى السما الا بمشقة بل منها ما لاترى الشمس طوال اليوم . فعامل الحماية وتوفير المساكن دفعا بالاتراك الى بناء حى شديد التسلق والتركيب فوق القصبة العليا بدلا من القصبة الدنيا التى بناها بلكين سنة ٩٥٠ م . وبذلك نلاحظ قصبتين فى مدينة الجزائر قصبة بلكين وقصبة عروج .

اما قصبة بلكين فكانت تمتد فيما بين خط يتبع شارع باب الوادى — باب عزون ، وخط نهج بالى وانبال ، أى بين خطى كنتور ٢٠ و ٨٠ مترا تقريبا وكان السور المحيط بمدينة بلكين ينطلق من باب عزون مارا بالانهج التالية : Medée Centaure Palmiers Anibal - Ramadan des Dattes ثم ينحنى جنوبا ليخرج فى باب الوادى بالقرب من حديقة سيدى عبد الرحمان الحالية . والمتتبع لخط هذا السور يلاحظ انه كان لايسير فى استقامة واحدة بل كان عبارة عن خط منكسر يشبه اضلاع مثلث راسه عند نقطة التقاء نهج بالى ونهج انيبال وهما النهجان اللذان حلا محل السور الصنهاجى بعد ان هدم الاتراك سور بلكين لتوسيع المدينة الى هذه الجهات العلوية . ويظهر ان اهم انهج نشأت فى العهد الصنهاجى هى انهج المتون و الاذر المتقطعة مثل نهج الباب الجديد ونهج القصبة حاليا اللذين تولدا عن سبل بسيطة كانتا تمثلان المدخلين الرئيسيين للمدينة من الجهات العلوية. ويظهر ايضا ان المنازل كانت فى اول الامر متباعدة عن بعضها تتخللها او تنفصل بينها مزارع وحدائق لتموين سكان المدينة بالخضر والفواكه، وتضمن لهم الارزاق اثناء الحصار. ولقد اختار بلكين لبناء قصبته موضعا يتشابه الى حد بعيد والموضع الذى انتقاه ابوه الامير الصنهاجى زيرى بن مناد فى القرن ١٠ للميلاد لبناء مدينة آشير ، ذلك أن البربر فى بنائهم للمدن كانوا ينتقون الروابى التى تتوفر بها مياه الشرب وتكثر بها العيون الجارية ، وتشرف على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد والاستعداد له قبل الوصول وكانوا يراعون فى تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل اسوار المدينة حتى اذا دهمهم العدو او حاصرهم لا يمكنه ان يقطع عنهم مياه الشرب ، ويستحسن أن تكون العيون فى الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقى لتموين السكان وادخال المياه الى المنازل ولهذا اختار زيرى لبناء مدينة آشير فى جبل تنبجس من اعاليه عيون غزيرة المياه مثل عين سليمان وعين تلة تيراخ . وكذلك فعل بلكين فى تجديده وتوسيعه لجزائر بنى مزغنة فاختار موضعا تتوفر به مواد البناء ومياه الشرب، قريبا من البحر ، على ربوة مشمسة ، يمكن الاشراف منها على مساحة واسعة من البر والبحر . ومن خريطة العيون القديمة لمدينة الجزائر نلاحظ ان الصنهاجيين اختاروا عين النزاوقة عند التقاء نهج بالى وهانبال والغزالة حدا غربيا لمد اسوار القصبة ، ولاداء تلك الوظائف السابقة ، اذ تنبجس هذه العين على خط ارتفاع ٨٠ م تقريبا وبالتالى يمكن ادخال المياه منها عن طريق الجاذبية الى المنازل الواقعة فى اسفل العين . ولا شك ان عين النزاوقة كانت تقع داخل اسوار المدنة مثلها فى ذلك مثل

بقية العيون التى كانت تمون سكان القصبة وحى البحرية مثل عين العطش وعين العلج وعيـن السلطان والعين الجديدة ، وكانت مياه هـذه العيون تكفى لسد حاجات السكان قبل اكتظاظهم ثم حفرت الابار فى ساحات المنازل عندما زاد عدد السكان . وهذا يظهر ان الاختيارات الصنهاجية كانت موفقة فى توسيع مدينة الجزائـر .

اما قصبة الاتراك فقد بنيت الى اعلـى مـن القصبة الصنهاجية وفى موضع اكثر ارتفاعـا من الموضع الذى اختاره الصنهاجيون من قبل اى فوق القمة الحقيقية لربوة القصبة . والـذى دفع عروج الى ذلك هو ان الموضع الذى اختاره بلكين لتوسيع جزائر بنى مزغنة فى القرن العاشر للميلاد اصبح لا يؤدى وظيفته الكاملة فى القرن السادس عشر للميلاد عندما اشتد طمع الاسبان لاحتلال جزائر بنى مزغنة التى تحولت الـى عاصمة البلاد ، وتدفقت نحوها موجات من الهجرة الداخلية والخارجية ، فالظروف التاريخية وعامل الحماية ، والنمو الدموغرافى املت على عروج ان يصعد بالمدينة نحو القلة اى القمة الاكثـر ارتفاعا ، فاتسعت المدينة نحو الجبل بدلا مـن الشريط السهلى الشاطـىء الضيـق واتجهت المبانى نحو الروابى اكثر من اتجاهها نحو بقية الجهات ، وانشئت انهج اخرى ، زيادة على الانهج القديمة ، وينبغى ان نلاحظ ان اغلب الانهـج لقصبة العهد التركى كانت تتبع فى سيرها بطون الشعاب على عكس اغلب الانهج فى العهـد الصنهاجى التى كانت تتبع خطوط الذرى . وقد ادت زيادة المساكن وانحصارها بين اسـوار القصبة للحماية ، الى التسابق نحو الجـو واقتراب الديار من بعضها البعض وبالخصـوص السطوح التى كثيرا ما تعانقت فى الهواء وغطت الانهج التى تحولت بطول الزمن الى انفاق مظلمة وضيقة مفروشة بالحجر الجيرى ، لا يزيد عرضها عن المترين الا نادرا ، بل ان بعض الانهج تحولت الى ازقة لا يمكن العبور منها الا الى ابواب المنازل وهى ابواب ضيقة ومتينة رصعت بالمسامـير وشدت بالالواح السميكة ولا يمكـن فتحهـا الا بمشقة ، وربطت اغلبها بحبال يتدلى منها ثقل يساعد على فتح الباب او غلقها آليا . وقد تبلغ عدد الازقة فى اواخر العهد التركى حوالى ١٥١ زقاقا ، لا يتسع الزقاق الواحد لمرور حملين فى اتجاهين معاكسين ، بل منها مالا تتسع لمـرور جمل واحد نظرا للطوابق التى بنيت فوق النهج وبهذا كان لا ينطبق عليها القانون العربى القديم للعمران الذى ينص على ان النهج يجب ان يكون اتساعه يكفى لمرور جملين محملين على الاقل . ولم يسن الاتراك قانونا تخطيطيا يمنع السكان من البناء فوق الانهج بل تركوا الامر للسكـان الذين راوا فى ذلك حلا لمشكلة السكن من جهة ودرءا لخطر ضربة الشمس واشتداد الحـرارة من جهة اخرى فى فصل الصيف .

فالازقة الضيقة والانهج الملتوية والـدروب المغطاة تقى المارة من حمارة قيض الصيف وتجلب لهم الدفء ، ثم ان حاجة سكان القصبة فى العهد التركى لم تدع الى توسيع الانهج لان التنقـلات كانت تقع اكثر ما تقع على الارجل ، ولا تدخل دواب تكفيها الانهج الضيقة ، اما الجمال والبغال دخلت اقتصرت على الحمير لنقل الاوساخ وهى دواب تكفيها الانهج الضيقة ، اما الجمال والبغال والخيل التى كانت تمثل اهم وسائل النقـل فكانت تترك فى اسطبلات بالقرب من اسـوار المـدينـة .

والى جانب تلك الانهج الضيقة بالقصبة كانت توجد بمدينة الجزائر فى العهد التركى انهج واسعة فى الجهات السفلى من المدينة واخرى تمتد بالقرب من لاسوار منها نهج باب عزون ، ونهج القصبة ونهج الباب الجديد ونهج باب الوادى ونهج بـاب البحر وكان اتساعها يزيد عن المترين ومنهـا

ما كان يصل الى اكثر من اربعة امتار مثل نهج الاسواق التى كا يزدحم فيها المارة كنهج باب عزون ونهج الجامع الكبير الذى كانت تتركز فيه عدة حرف مثل الصياغة والحدادة والرصاصة والنحاسة ، والنحاة والنجارة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان اسماء الانهج والازقة الحالية لمدينة الجزائر العتيقة بما فيها حى البحرية وحى القصبة من وضع الاستعمار الفرنسى الذى جمعها واختارها لضبط الانهج لذلك نلاحظ عليها انها غريبة عن العربية ، لان الادارة الفرنسية انتقتها من بين اسماء لعظماء فرنسيين او اوروبيين بصفة عامة ، او هى اسماء ترجع الى مدن اوروبية مثل نهج تولون . وقليلا ما ضبطت الادارة الفرنسية النهج باسم الحرفة التى كانت سائدة فيه قبل الاحتلال . وفى العهد التركى ومن قبله فى العهد العربى ، كانت الانهج تعرف باسم الحرفة السائدة فيها او باسم الطائفة التى كانت تسكنها او يطلق على النهج باب السور المجاور لها ، ومثال لذلك نهج السوق الكبير الذى كان يمتد من الجنوب الى الشمال على طول شارع باب عزون — باب الوادى الحالى ، وكانت المحلات التجارية والدكاكين المختلفة تصطف عن يمينه وشماله . وبالقرب من باب عزون كان يمتد نهج السمارين فى الموضع الذى يقع فيه المسرح الوطنى حاليا . وموقع نهج السمارين بالقرب من مدخل باب عزون يساعد كثيرا اصحاب الدواب والقادمين من الريف على ترك حيواناتهم لدى السمارين لاصلاح حدواتها بينما اصحاب الدواب يذهبون راجلين نحو داخل المدينة لقضاء مصالحهم . والمتنقل من باب عزون نحو ساحة الشهداء تعترضه اسماء لنهج سوق الرابعة ، ونهج خدم الخيل ، ونهج سوق الخراطين ، والمتنقل من نهج السوق الكبير نحو قمة القصبة تعترضه عدة انهج يطول ذكرها منها نهج ينطلق من الباب الجديد ، ويعرف هنا بنهج الباب الجديد ثم يمر بمسجد ابن شمون ويعرف هنا بنهج جامع ابن شمون ، ثم يخرج فى سوق السمن فيعرف بنهج السمن ثم ينتهى بسوق الكتان . ويلاحظ على هذه الاسماء انها كانت كثيرة التغير ، لتغير عامل اشتقاقها ، فنهج بالمير فى عهد الاحتلال الفرنسى عرف بنهج القبائل سنة ١٥٦٣ ثم نهج سوق الملح سنة ١٦٥٠ ثم بنهج السوق الكبير فى مطلع القرن التاسع عشر وقبل الاحتلال الفرنسى .

اما اطوال الانهج الضيقة والشوارع فقد قدرت سنة ١٨٣٠ بحوالى ١٥ كيلو مترا واغلبها كانت لا تصلح لمرور العربات ولا زالت حتى الوقت الحالى تتقاطع وخطوط الكنتور وتكثر بها السلاليم .

مصطفى عباده

المنعكس الشرطي في ضوء

النظرية والتطبيق

قبل ان نتطرق الى الحديث عن موضـــوع المنعكس الشرطى كنظرية وكتطبيق لابد من تعريف المنعكس وكيف يحدث ؟

المنعكس هو ردود افعال بسيطة فى شكـــل سلوك آلـــى ويوجد بشكل فردى او بشكـــل مجموعات معقدة فى الافعال وفى مظاهر السلوك البشرى المختلفة وهذا التعريف يؤدى الى الكلام عن سلوك الكائن الحى،ويكون هذا السلوك عادة على نوعين سلوك ثابت موروث وآخر متغـير مكتسب وعليه فالانسان مثل الحيوان يكون سلوكه مكتسبا وموروثا الا ان السلوك المكتسب اكثـر بكثير من السلوك الموروث .

وتزايد المكتسب يتماشى طرديا مع التقدم فى سلم التطور وكذلك فى زيادة التعقد والتخصص فى الجملة العصبية ، ويتبع هذا المدة المتزايدة فى مدة الطفولة فطفولة الحيوان قصيرة جدا حيث ان بعض الحيوانات تستطيع مواجهة الحياة منذ اللحظة الاولى لانها مجهزة بوسائل تعمل بشكل آلى فى حين ان الانسان والحيوانات الراقية وخاصة الانسان تحتاج لبعض الوقت لكى تتهيأ للحياة وتستعد للاعتماد على النفس .

كيف يحدث هذا المنعكس ؟ ان القابلية للتهيج هى مقدرة الكائن الحى للرد او للاستجابة على التنبيهات بطرق مختلفة من الحركات وبالوان متعددة من الانفعالات والسلوك اذ لا توجد حركة تلقائية على الاطلاق تحدث دون ان تكون مسبوقة بتنبيه وهذا التنبيه اما ان يكون داخليا او خارجيا والتنبه الداخلى سواء اكان فسيولوجيا عضويا أم معنويا شعوريا كالجوع والعطش ، وكالحاجة الى البحث والتنقيب يكون مصحوبا بحركة وهذه الحركة مستمرة ودائمة دوام المنبه واستمرارها يجعلها تستهلك الطاقة المخزونة فى الجسم وخاصة فى العضلات ، والحركات العضوية نفسها تؤدى الى تعويض هذه الطاقة المستنفذة ولا تنقطع هذه العملية الدورية عمليه الأيض « البناء والتهديم » الا بموت الكائن الحى .

اما التنبيه الخارجى فمصدره البيئة الخارجية والكائن الحى لا يكون أبدا مستق لاتمام الاستقلال عن البيئة الخارجية وعما يصدر عنها من تنبيهات شتى ونظرا لتمايز اعضاء الاستقبال الحسى وتعدد المراكز العصبية والمسالك تستتبع تلك التنبيهات حركات متميزة موجهة ولكن الجهاز العصبى ليس من الشروط الاساسية لاحداث ارجا عالحركية اى اعزاء الحركة الى مسالك عصبية ومراكز بدليل ان الاحياء التى يخلو بناؤها العضوى من كل عنصر عصبى مميز ترد على التنبيهات الخارجية من تماس او حرارة أو تنبيه كيمائى بحركات معينة يترتب عليها انتقال الحيوان فى محيطه الطبيعى ، فالاميبا مثلا تتوقف قابليتها للتهيج على التفاعلات الكيماوية التى لا تنفك تحدث فى جزئياتها « البروتوبلازمية » وعلى ما ينجم من هذه التفاعلات من تغير فى درجة التوتر الفسيولوجى وخاصة توتر سطح الغشاء الخارجى ، وتتخذ الحركة فى الاميبا شكلين متعارضين اما بسط واقدام او انقباض واحجام اما فى الحيوانات المتعددة الخلايا والتى يتركب جسمها من انسجة مختلفة وغير متجانسة فنشاهد تركز قابلية التهيج فى نسيج معين وهذا النسيج الذى يتصف بقابليته للتقلص او الانقباض يكون العضلات والغدد ويحدث الانقباض وبالتالى الحركة ردا على تنبيه خارجى استقبله النسيج العصبى الحاس ثم ينتقل التنبيه عن طريق العصب الحاس او المورد الى مراكز عصبية ومنها الى عضلة او الى غدة عن طريق العصب المحرك او المصدر وهذا الطريق المعين الذى يسلكه التنبيه حتى يتحول الى حركة يسمى بالقوس المنعكس والحركة الناتجة عن التنبيه تسمى بالفعل المنعكس والفعل المنعكس فى حد ذاته ينقسم الى قسمين اما فعل منعكس محض واما فعل ارادى ، ذلك اننا كلما ارتقينا سلم الحيوانات متدرجين من اللافقريات الى الفقريات ومن ابسطها تركيبا الى أعقدها تركيبا نلاحظ تعدد طرق التوريد والتصدير وكذلك تعدد المراكز العصبية وينتج عن هذا التعدد نماذج مختلفة من الاقواس المنعكسة ومن الافعال المنعكسة .

والجدير بالذكر انه كلما ارتقى الجهاز العصبى وتمايزت مراكزه وتفاضلت بحيث تخضع بعض المراكز لبعضها الاخر اخذت خاصية جديدة تظهر وهى مقدرة بعض المراكز كاللحاء على منح الحركة وكفها علاوة عن مقدرتها على تنظيم الحركة وتعديلها من اسراع وابطاء ، وتكون عملية

التعديل لا ارادية او ارادية ، ويمكن أن تكون الحركة نفسها فى شكلها الظاهر منعكسة أو ارادية مثلا اذا وضعت اصبعى على سطح ساخن جدا ارتدت يدى بسرعة وتراجعت وتكون الحركة فى هذه الحالة منعكسة ولكنى استطيع ان احاكى هذه الحركة وان اسحب يدى بمجرد لمس سطح معتدل الحرارة وفى هذه الحالة تكون الحركة ارادية فمن حيث الشكل الظاهر للحركة فلا فرق بين هذين الحركتين ولكن الفرق بينهما يرجع الى اختلاف المراكز العصبية المحركة التى تنبهت ومراكز الافعال المنعكسة مرتبة ترتيبا تصاعديا فى النخاع الشوكى والنخاع المستطيل وبعض النوى الدماغية الموجودة مباشرة تحت اللحاء من اهم هذه النوى التلاموس والجسم المخطط الذى هو مركز الافعال المنعكسة كحركات المشى الالى .

اما الحركة الارادية فلا تتم الا بتنشيط المراكز الموجودة فى القشرة الدماغية او اللحاء وهذه المراكز تسيطر الى حد كبير على المراكز السفلى وهذا ما يفسر لنا عملية الكف والمنع ، فمن المثل الاول الذى ضربناه يكون فى امكانى ان اتجلد ولا اسحب يدى مباشرة بعد الاحساس بالحرارة على الرغم من الالم الذى اشعر به وليس جميع الافعال المنعكسة مصحوبة بالشعور مثل الحركات التى تعترى حدقات العين عندما تتغير شدة الضوء .

وبعد الكلام على المنعكس كمنعكس وكيف يحدث هذا الاخير نأتى الى الحديث عن المنعكس الشرطى ، والمنعكس الشرطى كثيرا مايقرن باسم العالم الفسيولوجى الروسى بافلوف ١٨٤٩ ــ ١٩٣٦ ــ لانه اول من استخدمه بتوسع ، والمنعكس الشرطى هو الفعل الذى ينوب فيه المنبه الغير الطبيعى عن المنبه الطبيعى بعد اقتران الاول بالثانى لعدة مرات ، وقد انطلق بافلوف من دراسته للسلوك الحيوانى أو ما اسماه بالاجزاء العليا للجهاز العصبى المركزى وكانت له نظرية خاصه فى دراسته هذه والتى اسماها « بالنيوريزم » ويعنى بها التنظيم العصبى للسلوك ، او هيمنة الجهاز العصبى على كل مظاهر السلوك ، ومن دراسته للتنظيم العصبى للسلوك انطلق الى الفعل المنعكس بنوعيه الشرطى وغير الشرطى وهذا الفعل فى رايه يمثل **اللبنة** الاساسية للسلوك الحيوانى والبشرى وكرس قرابة خمسة وثلاثين سنة من حياته العلمية لدراسة السلوك أو نشاط الاجزاء العليا للجهاز العصبى على هدى منهجه الجديد منهج الفعل المنعكس الشرطى وقام بتجاربه العلمية على العديد من الحيوانات واساسا الكلب ومن خلال تجاربه هذه نما فكره وتطور فهمه للجهاز العصبى .

ان الاستجابات الشرطية لوحظت منذ قرون لكن لم يفهم علماء النفس دلالتها النظرية والعلمية اى التطبيقية الا فى القرن العشرين ، والفضل كما ذكرنا سالفا يرجع الى بافلوف اذ هو أول من قام بدراسة منظمة لردود الفعل هذه واثناء دراسته للافرازات الهضمية لاحظ أن هناك افرازا يتم عندما يقترن منبه ما بتقديم الطعام ، ورأى أن اللعاب والعصارات الهضمية تفرز لرؤية الطعام بل وحتى لسماع خطوات مساعده الذى كان يعنى بالكلاب التى يجرى عليها دراسته ، وفى البداية سمى بافلوف هذه الافرازات « افرازات سيكولوجية » تمييزا لها عن الافرازات العادية التى كانت تحدث فى الاصل فى حالة وضع الطعام فى الفم،وبعد هذه الملاحظة قام بدراسة عمليةعلى ظاهرة التكيف نفسه فبعملية جراحية بسيطة فى خد كلب تنقل فتحة قناة الغدة اللعابية من داخل وجه الكلب الى خارجه حتى يمكن ان يرى سيل اللعاب ويقاس بدقة والمنبه الاصلى او غير المشروط الذى يحدث سيلان اللعاب هو فى معظم

الاحوال الطعام فتقديم منبه محايد « الجرس مثلا » مع تقديم الطعام لبضعة محاولات يصل الجرس او المنبه المشروط فى النهاية الى ان يقوم بدور البديل للطعام وينشأ عنه سيل اللعاب حتى ولو لم يقدم الطعام لانه يكون قد نشأ اتصال او ارتباط او اقتران بين المنبه المشروط ونشاط الغدة اللعابية فسيل اللعاب الذى يثيره الجرس فى هذه الحالة هو استجابة جديدة تماما لهذا المنبه ، هذه الاستجابة هى الاستجابة اللعابية الشرطية او المنعكس الشرطى اللعابى ، وقد وجد « بافلوف » وغيره « كبختريف » أثناء تجارب مختلفة ان أشياء كثيرة يمكن ان تستخدم كمنبهات شرطية كالصفارات ، والاضواء ، ولمس جانب الكلب والصدمات الكهربائية الخفيفة كما هو الشأن لدى « بختريف » .

كان بافلوف يضع الحيوان فى غرفة منعزلة ويقدم له الطعام بواسطة كوة صغيرة لكى يسجل العلاقة بين تكرار الصوت وتقديم الطعام من جهة وحجم افراز اللعاب من جهة أخرى ، عند تقديم الطعام للكلب يحدث منبهات صوتية او ضوئية يتحصل خلالها على اللعاب بواسطة فتحة فى خد الكلب بحيث يسيل اللعاب منها ويقيس كميته المفروزة ، وقد لوحظ انه عندما كان الصوت يدق لاول مرة كان الكلب لا يفرز ومع تكرار هذا الى تسع مرات مع اقتران هذا التكرار بتقديم الطعام يؤدى الى سيلان ١٨ قطرة من اللعاب وبعد ١٥ مرة يقدم فيها الطعام كان المجتنى من اللعاب ٣٠ قطرة وبعد ٣١ مرة كان الحصول ٦٥ قطرة من اللعاب تسيل بمجرد رنين الجرس .

والجدول الاتي يوضح هذه العلاقة :

« تقديم الصوت والطعام »	« عدد قطرات اللعاب فى ٣٠ ثانية »
١	٠
٩	١٨
١٥	٣٠
٣١	٦٥
٥١	٦٩

ولقد حاول بافلوف أن يفسر عملية الاستجابة اللعابية لمنبه شرطى بقوله « ان هناك مسالك عصبية جديدة كانت تشق بين الاذن او الانف او الجلد بحسب المنبه الذى كان يستخدمه او الفم من جهة اخرى وكانت هذه المسالك فى رايه تشرك اللحاء وللحاء دور اشرافى على قيام هذه المسائل العصبية المرتبطة بظهور المنعكسات الشرطية .

لذلك فقد وصف بافلوف ابحاثه بأنها تحريات عن الفاعلية الفزيولوجية للحاء ويمكن تعطيل الفاعلية الدماغية عند حيوان ما واحداث منعكسات شرطية عنده بمنبهات وقد اجريت هذه العملية التجريبية على حيوانات عطل فيها الدماغ وبقيت تكسب منعكسات شرطية .

لم يكتف العلماء بالناحية النظرية فقط للمنعكس الشرطى بل اخضعوه لبعض التطبيقات العملية من ذلك ان علماء الطب النفسى استخدموا ظاهرة المنعكس الشرطى لتفسير بعض الامراض النفسية وكثير من انواع الشذوذ وهذه الامراض تتمثل فى الانحرافات وانواع الخوف كالهلع والنفور من بعض الاطعمة وانواع اخرى من السلوك العصابى هذا ولقد كتب بافلوف كتابه عن المنعكسات الشرطية والطب النفسى او الفعلى فأوضح كثيرا اسباب الشذوذ النفسى وانواع العصابات والذهانات .

ثم ان الاشراط كثيرا ما يستعمل وسيلة للقضاء على السلوك الغير المرغوب فيه ولنضرب مثلا على ذلك فالتبول اللا ارادى له دلالة نفسية فهو نتيجة الشعور بالحرمان او الغيرة مثلا ، ويفسره علماء الفيسيولوجية بعدم تحكم الطفل فى مثانته ، ان الطفل الذى يبلل فراشه فى عمر يتجاوز العمر السوى لأمثاله بالنسبة لهذا الامر انما يبلل فراشه لان المثيرات الصادرة عن ضغط المثانة وهو نائم ليست من القوة بحيث توقظه فى الوقت المناسب « قبل التبول » ويمكن القول بأنه لا يملك حساسية كافية للاثارات الواردة من مثانته فهو لم يكيف للاستجابة لهذه الاثارات ان هذه الاثارات غير قادرة على ان تصبح ناجعة فعالة بواسطة المنعكس الشرطى ، ويتم ذلك بانامة الطفل على فراش فيه اسلاك رفيعة وما يكاد الفراش يبتل حتى ينطلق تيار كهربائى يقرع جرسا وتعطى التعليمات للطفل بأنه يتوجب عليه عند سماع الجرس ان ينهض من فراشه ويذهب الى المستراح سواء اكان بحاجة الى التبول ام لا وقبل الذهاب الى المستراح يقطع التيار بادارة زر كهربائى يوقف صوت الجرس وبعد مضى عدة ليال على هذا النحو يصبح ضغطالمثانة قادرا على ايقاظ الطفل قبل قرع الجرس ،

وهكذا فانه على الرغم من ضعف المثيرات الاتية من المثانة فان التكيف ساعده على التقاط هذه المثيرات والاستجابة لها .

وهناك تطبيق آخر للمنعكسات الشرطية يستعمل فى القضاء على المخاوف مثلا الاشخاص الذين يخافون من الامكنة المظلمة أو المصاعد او القطط او ما شابهها يمكن القضاء على امثال هذه المواقف التى تخيفهم بيد أنه لا بد من الملاحظة بأن هذه الطريقة يجب أن تستعمل بحذر شديد وذلك على اعتبار ان بعض الاشخاص تزيد مخاوفهم اذا قسروا او اجبروا على ممارسة المواقف التى تخيفهم بدلا من محوها .

وهناك طريقة ثالثة طبقها علماء النفس على بعض الطلاب اكتسبوا عادة قضم الاظافر — وهى ناتجة عن توتر عصبى — وغيرها من العادات غير المستحسنة عن طريق مبدأ المحو التجريبى ولقد تم العلاج بالفعل بواسطة الفصل بين التوتر العصبى وقضم الاظافر ، وذلك باجبارهم على قضم اظافرهم عندما تصدر لهم أوامر بقضمها ولما كانوا مجبرين على قضمها حتى عندما يكونون لا يشعرون بحاجة الى قضمها اذ أن هذه الحاجة هى نتيجة توتر عصبى ، ونتج عن هذه التجربة الفصل بين التوتر العصبى والعادة غير المتحسنة

كما يمكن استخدام المنعكس الشرطى للكشف عن وجود القدرات الحسية عند الطفل الوليد او الحيوان او المصابين بالتخلف الفكرى أو العقلى .

مثلا طفل يعتقد أنه اصم فهو لسبب ما لا يستجيب لاى صوت اطلاقا اما حين يدغدغ اخمص قدميه فانه يسحبها ولذلك يعمد المجرب الى قرع الجرس عدة مرات قبل ان يدغدغ القدم فاذا صار الطفل يسحب قدمه ساعةقرع الجرس كان معنى ذلك ان جهاز السمع عند الطفل سليما وأن ثمة سببا نفسيا لعدم استجابته للمؤثرات الصوتية غير الصمم .

الثورة الزراعية

وبعض مشاكل الفلاحين

جمال مصباح

ان مجرد زيارة الى اريافنا وتراثنا يظهر لنا مدى تخلى الشبان عنها • وبالفعل يبدو ان المدينة تستقطب معظمهم بحثا هناك عن عمل قار يوفر لهم الاطمئنان والوقاية من الاحتمالات التى جرتهم الى هجرة البادية •

وفى الواقع ان هذه الظاهرة لم تكن حديثة العهد بل انها ترجع الى مايزيد عن ستين أو سبعين سنة على الاقل • ان النظام الاستعمارى لم تكن له آثار سياسية وثقافية فحسب بل انه احدث ايضا آثارا مختلفة على مستوى الانتاج • ان المستعمر الى جانب الوسائل التقنية التى ادخلها على خدمة الارض التى اغتصبها قد حول الاقتصاد تحويلا آخر فوجه محاوره نحو المدن ثم جعله تابعا للعاصمة الفرنسية اضف الى ذلك انه ادخل اساليب جديدة راسمالية فى التعامل الاقتصادى وفى طريقة الانتاج لانه اولا هو المشرع الذى يسن القوانين التى يجب ان تتمشى بمقتضاها المعاملات الاقتصادية والتجارية على مستوى القطر وثانيا ان الرغبة فى تحقيق اغراضه تجعله مضطرا الى البحث عن اليد العاملة الزهيدة الامر الذى يدفعه الى تحويل انظاره نحو البوادى ويجعله يقضى على الهياكل التقليدية لكى لا يصبح فى وسع الفلاح الاستغناء عنه •

ان التوازن الذى كان موجودا قد انقطع اذ ان المساحات الشاسعة التى كانت تؤدى دورا معينا مثل التموين فى الحبوب قد غيرت وظيفتها واصبحت تؤدى اغراضا اخرى لا يستفيد منها الا الاستعمار ، ان هذا من شأنه ان يحدث تغييرا فى العلاقات التقليدية وان يدفع الفلاحين الى تغيير انماط معيشتهم وايجاد وسائل اخرى لتنظيم اقتصادهم . الا ان المنطق الاستعمارى لم يسمح لهم بالابتكار وانما يفرض عليهم حلين لا ثالث لهما اما الرضا بتدهور معيشتهم والاستسلام الى القضاء والقدر ، واما الهجرة من الريف الى المدينة او نحو مزرعة المعمر .

وبالفعل فان الفلاح سيتخذ السلوك الاول احيانا وتارة السلوك الثانى ولكن وان كان قد نجح فى الاحتفاظ ببعض من قيمه فان مقاومته فى المجال الاقتصادى ستكون اقل توفيقا . وتراه ينجر تدريجيا الى خدمة الاقتصاد الاستعمارى وتوابعه والتخلى عن اوضاعه التقليدية . واذا عاد الى الريف فانما يعود للاستراحة ، او الزيادة او بعد ان يستنفد منه الاقتصاد الراسمالى طاقته الانتاجية .

ان اندلاع الحرب التحريرية قد عمق الوضع ولا سيما ان مدار الثورة المسلحة قد كان فى البوادى والجبال . ان اصحاب الاراضى الفقيرة سوف يهملونها لمساندة الثورة أو عندما يطردهم المستعمر منها ويفرض عليهم اماكن للاقامة ظنا منه ان ذلك سوف يعزل الشعب عن الثورة .

وعندما يأتى الاستقلال تكون الاراضى قد اهملت وتكون المزارع قد اتلفت وتعرضت للحرق والفساد . فلميبق فى وسع الذين ليس لهم امكانية احياء اراضيهم سوى البحث عن العمل فى المدن او فى الاراضى المسيرة ذاتيا ، او عند كبار الملاك الذين لهم القدرة على استخدام وسائل جديدة واحيانا عصرية لخدمة الارض .

ان الامر الذى يدفع الشبان الى تجنب العمل فى الريف هو عدم الاطمئنان الى المستقبل . لان الضمانات التى كان آباؤهم يجدونها اصبحت اليوم مفقودة . ان عدم الارتياح ينبع اولا من العوارض الطبيعية التى احيانا تكون مواتية واحيانا اخرى غير مواتية . ومن الصعب ان يشاهد المرا عمل سنة كاملة ، لا يعول صاحبه ولو شهرا واحدا . ومن الصعب ان ينتج المنتج وهو يعرف انه لايجد فى السوق من يأخذ عنه بضاعته ، التى سوف تقدم له الثمن الذى سوف يمكنه من سد المصاريف الاخرى ما عدا الاكل . ثم ان الامكانيات قليلة وزهيدة بالقياس للعمل الذى يجب القيام به من اجل احياء الاراضى وذلك على الرغم من المساعدات التى تقدمها الدولة لبعضهم . واخيرا ان كبار الملاك اصبحوا يسيطرون اكثر من السابق على الميدان الفلاحى فانهم يعرضون عليه العمل عندهم ولكن بدون الضمانات الاجتماعية التى يجدونها فى المدينة .

وهكذا سيصبح العمل فى المدينة هو المصدر الاساسى للرزق بينما يبقى العمل فى الريف مجرد ملء للفراغ ثم ان العمل فى المدينة يضيع طاقة العامل مدة معينة من الوقت ويتركه حرا يهتم باشغال اخرى خارج ذلك الوقت فليس له ان يهتم بمصير انتاجه فما عليه الا انتظار آخر الشهر لاخذ راتبه .

ولكن ما كل متوجه الى المدينة يجد فيها عملا . اذ ان سوق العمل ضيق ومع ذلك يعود الفلاح الى ارضه ويستمر الكد فيها ونادرا ما يفعل ذلك ان انقطاعه الطويل عن خدمة الارض يجعله يفضل اى عمل آخر على عمل الارض . بل انه كثيرا ما يتوهم بانه قادر على النجاح فى التجارة ، وبعد ان يحصل على راس مال زهيد يشترى بضاعة معينة ويجول فى الطرقات لبيعها . وهكذا يصبح

ماشيا لا يعمل فعلا لافى التجارة ولا فى الفلاحة ولا فى الصناعة ، فهو نصف بطال مقنع بشبه عمل

واذا حاول الاندماج من جديد فى الريف يجد صعوبات مختلفة تجعله غير مطمئن الى مستقبله وعلى فرض انه وجد عملا هناك يبدو او يتصور له ان ذلك العمل لن يدوم الا بمقدار دوام صحته وان حاول الاندماج فى المدينة افتقر الى عمل منتظم قار يوفر له الاطمئنان .

فمن الناحية الفكرية يصبح قلقا مذبذبا سريع التغير والانقلاب . فلا يستقر على راى اوعلى حال فاحيانا يظهر فى ثوب المتدين القانت واخرى يكون فى طريق الجحود والقنوط .

ان علاقات جديدة اخذت تظهر فى الريف تزيد من وضعية الفلاحين سوءا وذلك على الرغم من القروض التى قدمتها لهم الحكومة فى فترات مختلفة ولكن تلك القروض كانت موجهة بالخصوص الى اولئك الذين مازالت لهم القدرة على المواجهة والصمود . واما الذين يئسوا فانهم لازالوا ينتظرون حلا لمشاكلهم ولعل ذلك الحل سوف ياتى حالما يتم تنفيذ مقررات الثورة الزراعية الذى سوف يحدد من مساحة الملكية الكبيرة .

وفى الواقع ان الثورة الزراعية ضرورة اقتصادية تقنية واجتماعية فى نفس الوقت . ان ضرورتها الاقتصادية ترتبط بانجاز متطلبات المخطط الرباعى ، وضرورتها الاجتماعية تتعلق بتحسين وتنظيم احوال واوضاع الفلاحين وتخفيف الضغط الملحوظ على المدن .

واما جوانبها التقنية فانها ترجع الى تسهيلها ادخال الوسائل التقنية الحديثة على الريف . بحيث ان نظام التعاونيات والتعاضديات من شانه ان يدخل الالة الى الريف لتنمية الانتاج وفقا لاساليب عصرية وعقلية . ان المهندسين الشبان الذين تكونوا بعد الاستقلال فى مختلف جامعات العالم متفقون على ذلك ان رايهم يخالف راى الذين يتذرعون بتجربتهم للتخويف من تطبيق الثورة الزراعية والواقع أن هؤلاء قد اكتسبوا تجربتهم ضمن اطار معين هو الاطار الاستعمارى انهم تعودوا العمل والتفكير ضمن ذلك الاطار فلاغرابة ان تخوفهم بالدرجة الاولى كل محاولة لاحداث علاقات جديدة . واما الثورة الزراعية فانها عامل مساعد على استغلال المياه وعلى تحسين الاراضى وعلى تمكين الفلاحين فى التعاضديات والتعاونيات من استصلاح مساحات اخرى اوسع الامر الذى يعجز عنه الفرد الواحد .

ان الثورة الجزائرية تواجه فى نفس الوقت مشاكل مختلفة ولكنها لن تنسى الاهتمام باولئك الذين كانوا قاعدتها الاساسية .

التربية والشخصية الجزائرية

كانت مرحلة التعليم الابتدائى فى جميع دول العالم يجرى التعليم فيها باللغة القومية وحدها لان هذه المرحلة هى مرحلة تكوين الــذات اوالشخصية لدى الاطفال الصغار . واللغــة القومية هى الاداة الصالحة لبنــاء شخصياتهم بناء متكاملاً وسليما من جميع النواحى . هذا كله فيما يخص العامل الاول فى بناء الشخصيــة القومية للافراد وللامم على السواء وهو اللغة وقد اطلنا الحديث فيه لانه العامل الرئيسى الذى تقوم عليه سائر العوامل الاخرى او تستند اليه كل العوامل الاخرى فى بناء الشخصية القومية .

2

تركي رابح

ثانيا — التاريخ المشترك :

والعامل الثانى : فى بناء الشخصية القومية هو التاريخ المشترك فالذكريات التاريخية التى يشترك فيها ابناء الامة الواحدة تحملهم على الشعور بأن اجدادهم واسلافهم قد قاموا بدور عظيم فى التاريخ الانسانى وادوا رسالة عظيمة للحضارة البشرية تستحثهم على أن يبذلوا اقصى الجهود لتكملة ما قام به هؤلاء الاجداد والاسلاف .

فالتاريخ المشترك هو الوسيلة الفعالة التى تجعل من ماضى الحياة حافزا لحاضرها ومستقبلها .

هذه الذكريات التاريخية بما فيها من انتصارات وهزائم . وبما فيها من عزة ومذلة ، وبما فيها من نجاح او اخفاق ، كلها تغذى افراد الامة بالوعى الاجتماعى ، وتدعم شعورهم بالوحدة والتماسك وتشحذ عزائمهم بالقوة والصلابة .

وتحفزهم على الوقوف صفا واحدا فى ساعة الخطر المحدق بهم وبوطنهم غير أن الاعتزاز بالتاريخ المشترك ينبغى ان ينظر اليه بحذر واحتراس فكما يستطيع التاريخ المشترك مثلا ان يدفع الحاضر ، ويتطلع للمستقبل ويحمل ابناء الامة على مزيد من التقدم والتطور ، فهو يستطيع ايضا ان يكبل الحاضر بأغلال ثقيلة ويجعله دائم الالتفات الى الماضى ، فحيث تفخر الامة بحاضرها وتتخذ من ماضيها دافعا لها فقط فى الحياة ، ودافعا فقط لها الى التقدم فى سلم الحضارة والرقى، فهى فى صعود وتطور، وحيث يتراكم هذا الماضى حتى يثقل كاهلها فانها تبدأ فى الهبوط والتدهور والانحلال بدون ان تشعر بذلك .

ومن هنا فان علينا ان نجعل دائما ماضينا يعيش فى حاضرنا لا ان نجعل حاضرنا يعيش فى ماضينا فان هذا يعتبر هروبا من مواجهة الواقع الى العيش فى احلام الماضى الوردية . كما يهرب الفاشل فى الحياة ، ومن خابت آماله فى حاضره الى ذكريات الماضى الجميلة يعيش فيها ويجترها فى شبه غيبوبة ، مستعيضا بها عن تعاسة وشقاء حاضره وهو ما يعبر عنه علماء النفس بأحلام اليقظة لذلك فالتاريخ عامل هام من عوامل المحافظة على الشخصية القومية لكل شعب ولكن بشرط ان يبقى دائما كعامل يدفع الى الامام ، ولا يتحول الى عامل يجذب الى الوراء أو الى الماضى الذاهب فقط .

ومن هنا تجب العناية بالتاريخ القومى فى مختلف مراحل التعليم وبالخصوص فى المرحلة الابتدائية والثانوية حتى يشب ابناؤنا وبناتنا على الاعتزاز بتاريخ امتهم ووطنهم اعتزازا ايجابيا يحفزهم الى مواصلة رسالة الشهداء الامجاد فى الدفاع عن الوطن والعمل على بنائه وازدهاره فى سائر المجالات الحيوية .

ثالثا — الثقافة المشتركة :

أما العامل الثالث فى بناء الشخصية القومية فهو الثقافة المشتركة بين ابناء الامة الواحدة والوطن الواحد ، وقد سبق أن ذكرنا تعريف الثقافة لغة واصطلاحا فى بداية هذه المحاضرة أما الآن فاننى سأتحدث عن خصائص الثقافة العربية التى هى ثقافتنا القومية فما هى هذه الخصائص ؟ هناك مجموعة من الخصائص المميزة لثقافتنا العربية الاسلامية التى حفظت كياننا وشخصيتنا من الذوبان فى غيرنا ، وجعلتنا أمة متميزة بين الامم الاخرى يمكن تلخيصها فى الخصائص الاربعة التالية :

اولا : ان هناك ثقافة عربية تشكل اللغة العربية اطارها العام، وهى لغة ذات تاريخ عريق متصل الحلقات . وقد سايرت الحضارة ونظمها ،

وكانت اداة طيعة فى الزيادة من انتاجها الثقافى فى ميادين الادب ، والعلم والفلسفة ، والموسيقى، والفن ، فى عصور الازدهار الثقافى للامة العربية

ثانيا : ان التراث الفكرى لهذه الثقافة تراث خصب غنى اتسعت آفاقه لثمار الثقافات القديمة التى احتك بها العرب فى أيام نهضتهم الفكرية ما بين ثقافة اغريقية ورومانية وفارسية ، وهندية وآشورية وفرعونية ، وقد دام العصر الذهبى للثقافة العربية حوالى خمسة قرون منذ بزغ فجره فى اوائل القرن التاسع الميلادى حتى افل نجمه فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد أضاء نور هذا العصر الذهبى جميع الممالك التى فتحها العرب المسلمون فى شرق الوطن الاسلامى وفى مغربــــه .

ثالثا : لم تكن حواضر البلاد العربية مراكـز لحركة النقل والترجمات عن الآثار والثقافـات المختلفة للحضارات القديمة فحسب ، وانمـا اصبحت تلك الحواضر ينابيع للفكر والنبـوغ العربى وموردا خصبا للثقافة العربية بكـافـة مظاهرها فتاريخ الحضارات الانسانية لم يعـرف حركة للانتاج الثقافى والفكرى اشـد واعظـم واخصب من تلك التى نشأت فى الاقطار العربية ، والديار الاسلامية فى عصرها الذهبى مثل بغداد ، والكوفة والبصرة ودمشق ، والقاهرة ، وقرطبة ، والقيروان ، وبجاية ، وتلمسان ، وفاس والرباط.

ففى المساجد الاسلامية وهى جامعات المسلمين وكلياتهم الكبرى كان يجتمع عدد عظيم ممن سحر عقولهم التعليم وجذبهم التثقيف فجاءوا ليستمعوا الى محاضرات الاساتذة الكبار كالامام الاسفرانى، والغزالى ، وابن رشد ، والكندى، والامام مالك ، وابى حنيفة ، والشافعى ، وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والكسائى ، وسيبويه وغيرهم من عباقرة الفكر والدين والادب والفلسفة والعلوم .

رابعا : ان لهذه الثقافة العربية آدابها وفنونها وآثارها التى انطبعت بطابعها الخاص وتأثـرت بظروفها ومزاجها وترجمت عن اطوار حياتهـا وتاريخها وهذا واضح لدينا فى عدة أصول ومظاهر لهذه الثقافة . فالفكر العربى كما هو معروف قد تأثر اولا اشد التأثر بالقرآن الكريم الذى يعتبر اساسا لجميع العلوم الاسلامية كما كان أساسا لجميع ما كان يعلم فى حلقات التعليم فى المساجد والمدارس سواء اكان نحوا اوصرفا ومنطقا وعروضا او لغة وبلاغة او فقها واصل تشريع او فلسفة وحكمة او فلكا وطبا الى آخر العلوم والفنون فهذه الثقافة العربية ــ كانت ولازالت من اقوى العوامل فى المحافظة على الشخصية القومية لاقطار الامـة العربية ومنها الجزائر . ولذلك تجب العنايـة بالثقافة العربية فى مناهجنا الدراسية والعمـل على بعث هذه الثقافة بعثا جديـدا بواسطـة الدراسات الجامعية الحديثة والمناهج العلميـة الحديثـة .

فالتراث الثقافى العربى فى الجزائر هو التراث الوحيد الذى لا يزال يعيش فى المخطوطات تحت اكوام من التراب والعنكبوت ولذلك نرجو مـن شبابنا الجامعى ان يتجه الى تراث بلاده فيعمل على التنقيب عنه اولا ثم جمعه ثانيا ثم دراسته دراسة علمية منهجية فى المرحلة الاخيرة وبذلك نقوم بواجبنا نحو ثقافتنا القومية ونعمل فى نفس الوقت على ازدهار واثراء شخصيتنا القوميـة ازدهارا واثراءا يتناسب مع دورنا العظيم فى اثراء وازدهار هذه الثقافة فى العصور الماضية . ان العناية بتراثنا القومى عملية ضرورية لبقاء كياننا وشخصيتنا بين الامم وهو عملية تربوية بالدرجة الاولى ثم هو من ناحية ثانية عملية ضرورية باعتبار اننا لا يمكن أن ننجح فى معركة التحرر من التبعية الفكرية للثقافة الفرنسة اللاتينية التى نخوضها اليوم بدون ان يكون هذا التراث القومى او الثقافة القومية موضع اهتمامنا وعنايتنا وحرصنا عـلى

سيادتنا الفكرية تجنبا للتبعية للثقافات الاخرى التى تعنى فيما تعنيه طمس هذا التراث والاندماج او الذوبان فى الغير كما اشرنا الى ذلك من قبل . ان مدارسنا العليا وجامعاتنا الثلاث مدعوة للقيام بهذا الدور التاريخى العظيم دور جمع التراث ودراسته دراسة علمية منهجية تمهيدا لبعثه من جديد فى ثوب عصرى يتمشى مع التطور الفكرى والحضارى للتراث العالمى .

رابعا : الوطن المشترك :

والعامل الرابع والاخير فى تكوين الشخصية القومية هو العامل الجغرافى او الوطن المشترك الذى نسكنه ونعيش تحت سمائه وننعم بمناظره وناكل من خيراته ونتغذى بحبه منذ الصغر فأصبحنا نحبه حبا فائقا ونحن اليه اذا نحن تغربنا عنه ونغار عليه ان مس احد كرامته بسوء ونعيش من اجل خدمته ونموت فى سبيل الدفاع عنه وحمايته ضد كل عدوان من أى مصدر كان .

ولذلك فان العامل الوطنى او الجغرافى لا يقل اهمية عن العامل اللغوى والعامل التاريخى ، والعامل الثقافى ، فى تغذية الروح القومية بين الاطفال ومن هنا فلابد للناشئين من ان يعرفوا جغرافية وطنهم معرفة جيدة لانه من العبث او السذاجة ان ننتظر منهم أن يحبوا وطنهم والحال انهم لا يعرفونه ويرون بعيونهم ما يدره عليهم من منافع وخيرات ونظرا لمكانة هذا العامل فى بناء شخصية الفرد بناء سليما كان الاستعمار يحرم على ابنائنا تعلم جغرافية بلادهم ويعلمهم بدلا منها جغرافية فرنسا بتوسع كبير كى يضعف فيهم الروح الوطنية ، هذه بصفة اجمالية هى العوامل الرئيسية التى ينبنى عليها الكيان القومى او الشخصة القومية لشعبنا كما يتفق على ذلك رجال التربية واغلب الباحثين الاجتماعيين .

اما الامام عبد الحميد بن باديس رحمه الله فهو يرى ان العوامل التى تقوم عليها الشخصية القومية للشعب الجزائرى هى ثلاثة عوامل رئيسية فقط يلخصها لنا فى الشعار المنسوب اليه وهو « الاسلام ديننا ــ والعربية لغتنا ــ والجزائر وطننا » فهو يرى الاسلام عاملا جوهريا من عوامل بناء الشخصية الجزائرية وحفظها من كل عوامل المسخ والتشويه التى قد توجه اليها ــ وانا شخصيا من انصار ابن باديس فى هذا الاتجاه بالنسبة للجزائر لظروفها الخاصة . فالدين الاسلامى فى الجزائر يعتبر احد المقومات الاساسية لشخصيتنا القومية لانه لولا الاسلام لكانت الجزائر اليوم غير الجزائر بالامس ، فالاسلام هو الذى جعل الجزائريين يصمدون هذا الصمود الرائع العظيم فى وجه سائر محاولات الابادة والمسخ التى سلطها الاستعمار الفرنسى على الشخصية الجزائرية طوال ١٣٢ عام .

دور التربية فى المحافظة على الشخصية القومية :

اذا تساءلنا بعد هذا كله عن دور التربية فى المحافظة على مقومات الشخصية القومية التى ذكرناها ؟ فان الاجابة عن هذا السؤال هى ان التربية تلعب دورا بالغ الاهمية فى المحافظة على الكيان القومى ، والشخصية القومية لكل شعب . فالمدرسة كما ذكرنا منذ قليل هى قبل كل شىء مؤسسة اجتماعية انشأها المجتمع لكى تقوم نيابة عنه بتربية ابنائه وفق فلسفته الخاصة ، أو بعبارة اوضح وفق عقيدته أو آيديولوجيته الخاصة .

وقد كانت رسالة المدرسة فى بلادنا فى عهد الاحتلال مثلا هى العمل على تنفيذ خطة واسعة النطاق لنشر الفرنسية بين ابناء الجزائر، وتحريف التاريخ الجزائرى ، وطعن الثقافة العربية ، والعمل على تحطيم كيان الشخصية الجزائرية ، اما اليوم فقد تغيرت رسالة هذه المدرسة تغييرا جوهريا فأصبحت رسالتها هى العمل على بناء الشخصية القومية او هكذا يجب عليها ان تكون وبناء على ما ذكرنا تجب العناية بالامور التالية :

اولا : العناية الكافية بتعليم اللغة القومية لابنائنا فى مختلف مراحل التعليم حتى يتقنوها اتقانا جيدا قراءة وكتابة وتذوقا ادبيا ، ومن هنا ينبغى العمل بكل سرعة على تعريب التعليم وخاصة فى المرحلة الاولى تعريبا شاملا وذلك بترجمة تقرير لجنة اصلاح التعليم الخاص بتعريب التعليم الذى نشر فى الصحافة الوطنية فى هذه الايام الى خطط وقوانين رسمية . لان هذه المرحلة هى اخطر مراحل التعليم على الاطلاق لانها مرحلة تكوين الذات او الشخصية لدى الاطفال ، ولذلك فان هذه المرحلة يجرى التعليم فيها باللغة القومية وحدها فى سائر دول العالم كما سبق ان ذكرنا .

ثانيا : ضرورة العناية بتدريس التاريخ الجزائرى والتاريخ العربى لابنائنا فى سائر مراحل التعليم خاصة حتى يشب هؤلاء الابناء على محبة وطنهم وقوميتهم . والاعتزاز بدور امتهم الحضارى ومساهمتها الفعالة فى ترقية العلوم والآداب والفنون وازدهار الحضارة الانسانية طيلة قرون عديدة .

ثالثا : العناية بدراسة المجتمع الجزائرى بصفة خاصة والمجتمع العربى بصفة عامة وكذلك العناية بتدريس مادة التربية الوطنية فى مختلف مراحل التعليم حتى يعرف أبناؤنا مجتمعهم الجزائرى معرفة جيدة فى مشاكله الاجتماعية ، وفى عاداته وتقاليده وفى طموحه وتطلعاته الى التقدم والرخاء والسعادة والازدهار .

رابعا واخيرا : العناية بتدريس جغرافية الجزائر بصفة خاصة ، وجغرافية الوطن العربى بصفة عامة حتى يتمكن ابناؤنا من معرفة وطنهم الذى يعيشون فوق اديمه معرفة جيدة ، ثم معرفة الوطن العربى الكبير الذى يعتبر وطنهم الصغير جزءا لا يتجزأ منه ، معرفة جيدة كذلك سياسيا ، واقتصاديا ، وطبيعيا ، وبشريا . وليس معنى هذا اننى ادعو الى عدم الاهتمام باللغات الاجنبية فى التعليم او عدم الاهتمام بالتاريخ العالمى أو بالثقافات الانسانية ، أو بجغرافية العالم كلا والف كلا . فنحن جزء من العالم الكبير الذى نعيش فيه. كما ان تراثنا الثقافى والحضارى يعتبر هو الآخر جزءا لا يتجزأ من التراث الثقافى والحضارى للانسانية قاطبة ولكننى انبه فقط الى ضرورة العناية بالامور الجوهرية فى بناء الشخصية القومية لابنائنا وبناتنا ولكافة المواطنين فى هذا الوطن المناضل حتى لا نستمر فى هذا الاندفاع الجارف فى العناية بكل ما هو اجنبى عنا لغة وثقافة وحضارة وموضة الى آخره دون الاهتمام الكافى بتراثنا الثقافى والحضارى لاننى اخشى ان يجرفنا هذا التيار اذا لم نعمل على التحكم فى مجراه بكل سرعة ومهارة وحذق وتبصر . ولعل تفسير بعض مظاهر القلق والحيرة وتفسير بعض مظاهر البلبلة التى تبدو فى تصرفات البعض من شبابنا وفى شخصياتهم وسلوكهم العام انما يعود معظمها الى ان هؤلاء الشباب قد تكونوا عندما كانوا صغارا تكوينا اجنبيا غريبا عن بيئتهم الاجتماعية — وغريبا عن ثقافتهم القومية ، وبعيدا عن جذور شخصية امتهم العربية المسلمة . لذلك نراهم اليوم فريسة سهلة لكل التيارات الفكرية والعقائدية الوافدة علينا من الخارج ، حيث لا يجدون لديهم الحصانة الكافية من ثقافة قومية ، ولغة وطنية وعقائد أو آيديولوجية وطنية تقهم من مخاطر تلك التيارات الهدامة وتجعلهم فى مناعة كافية ضدها .

وفى ختام هذه الكلمة .. أريد ان ابدى ملاحظة تتصل باعمال ونشاط اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم .

(يجب وضع حد للتعليم التبشيرى فى الجزائر) :

لقد قامت هذه اللجنة الموقرة فى وقت قصير نسبيا بعمل جليل وهام للغاية من اجل تقييم نظامنا التربوى ونشرت تقارير ضافية بخلاصة عملها فى صحافتنا الوطنية فى هذه الايام وقد

قرات ــ تلك التقارير بكل امعان وبالخصوص تقرير اللجنة الفرعية للتوجيه ، وتقرير اللجنة الفرعية لديموقراطية التعليم ــ ولم اجد اشارة واحدة فى التقريرين المذكورين الى مسألة « التعليم التبشيرى » الذى لاتزال تباشره الهيئات التبشيرية فى الجزائر بكل حرية ، واصبح الكثيرون من موظفى الدولة يرسلون ابناءهم وبناتهم الى التعليم فيه بدل ارسالهم الى مدارس الدولة الجزائرية كى يتلقوا فيها تعليما وطنيا كبقية ابناء الشعب الآخرين .

ان التعليم التبشيرى الذى يجرى فى المدارس التبشيرية المختلفة ليس تعليما خالصا لوجه الله وليس تعليما خالصا لوجه العلم للعلم كما يظن بعض الناس الطيبين ، ولكنه بكل تاكيد وسيلة سيطرة ونفوذ ومحاولة خبيثة من الاستعمار الجديد للعودة الى البلاد مرة اخرى عن طريق النافذة بعد أن طرد من الباب . انه نوع من الاستعمار الفكرى والثقافى يحاول أن ينفذ الى اعماق وجدان أطفالنا الصغار كى يبسط عليهم سيطرته ونفوذه الفكرى والتوجيهى .

لقد جرت عملية فرنسة مدارس التعليم العربى الحر وثانويات التعليم المزدوجة اللغة منذ عام ١٩٦٤ بدعوى توحيد المدرسة الجزائرية ، وكانت هذه العملية غلطة لا تغتفر فى حق اللغة العربية والثقافة القومية وقد تنبهنا الى هذه الغلطة فى المدة الاخيرة كما اشار الى ذلك تقرير اللجنة الفرعية لتعريب التعليم لاننا قضينا بهذا القرار على المنبع الوحيد الذى كانت تستقى منه مدارس المعلمين وبعض الاقسام المعربة تلامذتها والمتعلمين فيها .

والغريب اننا بعد أن فرنسنا المدارس الحرة والثانويات المزدوجة رجعنا الآن الى محاولة تعريبها من جديد والاغرب من كل ذلك هو اننا قمنا بفرنسة مدارس التعليم العربى الحر التى انشاها الشعب فى أيام الاحتلال والتى ادت دورا كبيرا فى المحافظة على اللغة العربية والثقافة العربية من عام ١٩٣٠ ، وفى نفس الوقت تركنا المدارس التبشيرية تواصل عملها فى بث سمومها فى عقول ووجدان اطفالنا الصغار .

لقد تعجبت كثيرا بعد قراءتى لتقارير لجنة اصلاح التعليم الوطنية من عدم الاشارة الى ذكر هذه المدارس مع انها اشارت فى اكثر من موضع الى وجوب توحيد المدرسة الجزائرية ــ ووجوب اشراف الدولة على التعليم اشرافا كاملا .

لذلك نرجو أن يتدارك اعضاء اللجنة الوطنية الموقرة هذه المسألة الخطيرة فى اقرب وقت كما نرجو مخلصين أن يوضع حد للمدارس التبشيرية أو على الاقل تشدد الرقابة عليها وعلى كل ما يدرس فيها ومايجرى بداخلها من اعمال ونشاطات مما لا يخفى علينا جميعا الهدف من ورائها .

وهكذا .. لاحظتم من خلال هذا الحديث مدى العلاقة الوثيقة بين التربية من ناحية وبين الشخصية القومية سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الاجتماعى من ناحية اخرى . مما دعا احد المربين فى القرن السادس عشر الى القول « سلمنى ادارة التعليم فترة من الزمن وانا اتعهد اليك بقلب وجه العالم بأسره » كما دعا الزعيم الالمانى المعروف « بسمارك » الى القول كذلك « ان الذى يدير مدرسة يدير مستقبل العالم » .

ومما لاشك فيه أن للتربية شأنا عظيما فى تغذية النهضات القومية وبناء شخصيات الامم والمحافظة على ثقافتها وتراثها القومى ولذلك فان البلاد التى يغتصب استقلالها ولكن يترك بيدها أمر تعليم ابنائها لا تلبث ان تستعيد ذلك الاستقلال أما البلاد التى تنال استقالها ولا يكون بيدها زمام أمر تعليم ابنائها فانها لا تلبث ان تفقد هذا الاستقلال ويؤول امرها الى السقوط مرة اخرى تحت سيطرة الاحتلال الاجنبى ماديا بعد أن سقطت تحت سيطرته ثقافيا وفكريا .

العلاقات بين الجزائر وايطاليا

خلال العهد التركي

سلفاتور بونو

ترجمة : ابو القاسم
بن التومى

القى الدكتور سالفتورى بونو استاذ بجامعة فلورانس محاضرة بالجزائر عنوانها « العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركى » .

والاستاذ بونو متخصص فى تاريخ المغرب له فى ذلك عدة كتب منها « قراصنة المغرب Corsari Barbareschi

ونظرا لقيمة المحاضرة من حيث المصادر الايطالية والمعلومات والتفاصيل والموضوعية عربنا القسم الاول منها على امل تعريب القسم الثانى ونشره .

ان الموضوع الذى ساطرقه اليوم هو « العلاقات بين ايطاليا والجزائر ، من القرن السادس عشر الى أوائل القرن التاسع عشر » والحديث عن هذه العلاقات يستلزم الحديث عن جملة من الاحداث التاريخية التى تمتد على ثلاثة قرون ، اى من ١٥١٦ الى ١٨٣٠ ... واطار هذه الاحداث هو البحر الابيض المتوسط الذى طالما كان مسرحا للمآسى والصراعات والمعارك البحرية والقتال والغزو ، وما ينتج ذلك من الاسر والفدية والتجارة .

ولكن على اى اساس ، ومن اية زاوية تاريخية سوف نتناول هذه الفترة ؟ وكما هو شأن كل مؤرخ ، ، فان موقفنا سيكون مستمدا من الواقع الملموس ، ومن مثلنا ومعتقداتنا . وقد ادى بنا استعراض الاحداث التاريخية الى ان نضرب صفحا عن العداوة المتأصلة والصراع المستمر بين نمطين من الثقافة ازدهرا فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، وهما الاسلام والمسيحية وتلك العداوة هى التى سيطرت على الاذهان طيلة قرون ، واثرت المؤرخين من حيث الاراء والاحكام وهاهو ذا الواقع يكشف لنا اليوم ، بعد عدة قرون من الكفاح ، وبعد سنوات من سوء التفاهم والخلاف والصراع والبغضاء ... هاهو ذا الوقع يكشف لنا بجلاء ان الشعوب والافراد على قدم المساواة فى الكرامة والاباء ، ويدعونا الى ان نتجرد من العجب والاعتقاد الباطل بالتفوق على الغير ، وان نتخلى عن كل فكرة سخيفة فى استعباد الشعوب .

وكذلك الامر فيما يتعلق بالاحداث الغابرة للبحر الابيض المتوسط من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى يدور حولها موضوعنا ، فالمسألة فى نظرنا ليست عبارة عن صفين متصارعين : الصف المتمسك بمبادىء الشرف من جهة ، والصف المتوحش من جهة اخرى ... صف الحق ، وصف الباطل ... الواحد منهما صاحب الايمان بالعقيدة الصحيحة والاخر صاحب الخرافات والاباطيل . اننا على العكس من هذا نرى بأنه يوجد من كلا الطرفين رجال كانوا ، على حسب صروف الدهر ، يتعاونون فى الكفاح احيانا ، ويحاربون بعضهم بعضا احيانا اخرى ، فكانوا بذلك رجالا اكفاء بأتم معنى الكلمة .

سوف يكون اهتمامنا فى ثنايا هذا الحديث بالرجال ، اى بالجزائريين والايطاليين ، اكثر من الاهتمام بدولتى الجزائر وايطاليا وحكومتيهما خاصة ان هذين البلدين لم يكن كل منهما فى ذلك الحين يشكل وحدة سياسية حقيقية على الصورة التى نعرفها اليوم .

ان هذه التجارب الانسانية الغنية التى سوف اتعرض لها ، لا يمكن أن تفهم على حقيقتها — كما أشرت الى ذلك آنفا — الا اذا درست فى اطار تاريخ البحر الابيض المتوسط الشامل . فهذا البحر اصبح ، منذ ان آل الامر الى الاتراك فى المغرب اى منذ القرن السادس عشر الى السبعينات منه ، أصبح هذا البحر مسرحا لصراع كبير بين المسيحية والاسلام اللذين تولت الدفاع عن كل منهما دولة هابزبورج Habsbourg ودولة الاتراك .

وفى بداية القرن السادس عشر جاء القرصان التركى عروج لحماية مدينة الجزائر بعد أن هددها الاسبان الذين احتلوا مدينة تقع مواجهة لها وهى بينون Penon فاستطاع أن يستولى على الجزائر وان يطورها بسرعة وبكيفية عجيبة حتى انه جعل منها مركزا من اكثر المراكز تنظيما وثراء بالنسبة الى نشاط القرصنة الذى كان سائدا فى البحر الابيض المتوسط كله وقد وضعت الجزائر ، مع بقية الحواضر المغربية امكانيات اسطولها النشيط القوى

الى جانب الاتراك ، فى العقد لاول من القـــرن السادس عشر ، وفى سنة ١٥٤١ نظمت حملـــة كبرى اشترك فيها اكثر من ٥٠٠ سفينة ، ضد الجزائر التى كانت محور القوة التركية المتحالفة مع البربر فى المنطقة الغربية من البحر الابيض المتوسط ، وقاد الحملة الامبراطور شارل كان (الخامس) بنفسه واشترك فيها كذلك الجنـــود والسفن التابعة للامارات الايطاليـــة المتحالفة مـــع الامبـــراطـــور .

وهكذا تجابه الايطاليون والجزائريون . وقد تولى الدفاع عن الجزائر حسن آغـــا الـــذى كان يحكم المدينة من قبل خير الدين حكما ــ كما يقول المؤرخ « هايدرو » ــ بعيدا عن كل شغب وفى ظل الامـــن الشامل والعدالة الحقة .

وكان حسن هذا من مسيحيى (سردانية) اعتنق الاسلام ، وهو ينتمى الى تلك الفئة مـــن الاوروبيين الذين ارتضوا لهم الاسلام دينـــا ، فأطلق عليهم العالم المسيحى لقب مرتديـــــن Renégats وقد وقع وهو فى سن الشباب مع كثير من أمثاله من الشباب اسيرا فى يد خير الدين اثناء غارة شنها على قرية ساحلية مـــن جزيرة (سردانية) ، فأبدى ــ على حد تعبير المؤرخ الانف الذكر ــ ذكاء مفرطا فى كامـــــل الشؤون التى كلفه بها سيده ، حتى وان هذا الاخير ، عندما صار حاكما على الجزائر ، عينه كاهية له وولاه ادارة جميع أملاكه .

ونزل الى البر عدد كبير من القوات المسيحية يقدر بأكثر من عشرين الف جندى احتلوا هضاب الجزائر ، واصبحت المدينة مهددة من طرف العدو الذى اقترب من ابوابهـــا . وفى هـــذه الساعات الرهيبة ، كان حسن آغا ــ بعد ان رفض فى اباء محاولات « شارلكان » الذى اغراه بخيانة وطنه الجديد ــ يجوب المدينة التى انهارت معنوياتها ممتطيا جواده ، وهو يشجع الناس ويمطئنهـــم وبعد الانتصار ، ولما اخذت السفن الباقيـــة للعدو تبتعد عن الجزائر عفا حسن آغا عن عدد غير قليل من الاسرى المسيحيين فبقوا ينعمون بالحيـــاة .

لم تكن هذه الحادثة فريدة فى نوعها ، ولا هـــى حالة طارئة ، ففى ذلك العهد وخلال القرون التى تلت ، وجد كثير من الايطاليين والمسيحيين بصفة عامة الذين وقعوا فى الاسر من جراء حــــروب القرصنة ، فسيقوا الى الجزائر ، وهناك اعتنقوا الاسلام واندمجو فى المجتمع الجزائرى . وآخرون من الاوروبيين ــ وهم كثيرون ــ غادروا بـــلادهم الاطلية عن طيب خاطر وقصدوا الاراضى الجزائرية واصبحوا مسلمين ، ذلك ان العالم الافريقـــى ومدينة الجزائر الغنية القوية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانا يقدمان لهؤلاء كـــــل الامكانيات للحصول على الثروة بسرعة والارتقاء فى السلم الاجتماعى واحتلال اعلـــى المناصب السياسية والعسكرية هناك .

والجديـــر بالملاحظـــــة ان النازحـــين الى الجزائر فى ذلك العهد قدموا من بلاد مثـــل ايطاليا حيث كان اصل الفرد هو الـــذى يكيف الحياة الاجتماعية وحيث كان النبلاء والاغنيـــاء وذووا السلطان يتمتعون بامتيازات ترفعهـــم عن باقى طبقات المجتمع التى لم تكن تصلـــح الا للطاعة والخضوع لهؤلاء الاسياد . وقد انضم الى هذا الاضطهاد الاجتماعى السيطرة الاجنبيـــة التى كانت تخنق البلاد ، فلا عجب ان يرى هؤلاء الجزائر الارض الذى يسود فيها التسامـــح والمســـاواة والحريـــة .

وبعد اندماجهم فىصميم الحياة الاجتماعيـــة الجزائرية ، يفكرون فى اتخاذ مهنة تفتح امامهم آفاقا مغرية ، فيختارون غالبا القرصنة فى البحر حيث يجدون المجال فسيحا لاستثمار مـــواهبهم فهم يجيدون ترتيب الخطط للهجومـــات وشـــن

الغارات والنزول فى السواحل الاوروبية التى يعرفون مواقعها .

ان لدينا بعض المعلومات عن عدد المسيحيين المعتنقين للاسلام الذين استوطنوا الجزائر فى مختلف العصور ، وكان اكثرهم من البلاد الاوروبية ، وخاصة ايطاليا واسبانيا وفرنسا والذى يهمنا على الاخص هو ماذكرته بعض المصادر التى تعرضت لبيان الدور الذى لعبوه فبناء على ما ذكره المؤرخ الاسبانى Diégo Haedo الذى الف كتابا عن « طبوغرافية » الجزائر وتاريخها العام وهو تأليف اساسى لمعرفة الجزائر فى العهد التركى ، فان هؤلاء المعتنقين للاسلام من المسيحيين هم الذين كانت بأيديهم السلطة والنفوذ الادبى والحكم والثراء ، وكانوا يشغلون هم وعائلاتهم ٦٠٠٠ منزل او اكثر ويروى الاب الثالوثى Dan فى تاريخه النفيس عن البلاد الجزائرية أن فى غضون سنة ١٦٣٠ كان بالجزائر ٨ آلاف من المسيحيين المسلمين بالاضافة الى ١٢٠٠ امراة اغلبهن اسبانيات وبرتغاليات وايطاليات ويونانيات وانكليزيات ، ويؤكد صاحب الكتاب ان هؤلاء قد وصلوا الى درجة من القوة عظيمة ، وكانوا احسن رجال الحرب فى البر والبحر واكثرهم عددا . وقد حفظ التاريخ اسماء عدد ضئيل منهم ولم يستطع اثبات موطنهم الاصلى ، فلا يمكننا فى المرحلة الراهنة من بحوثنا ان نحدد بدقة عدد المسلمين الذين هم من اصل ايطالى ، ولنكتف على سبيل الاستشهاد بايراد بعض اسمائهم .

فمن بين ملوك الجزائر (وهو الاسم الذى اطلقه « هايدو » على الباشوات الذين تولوا حكم هذه المدينة) نجد حسن آغا الانف الذكر ثم رمضان باشا وهو من سردانية ايضا تولى الحكم سنة ١٥٧٤ . اسر وهو شاب فى سردانية فعنى سيده ــ وكان تاجرا تركيا ــ بتعليمه لما انس فيه من مواهب وذكاء . ونظرا لخصاله عين « قائدا » فى عدة مدن ، وخلال السنوات الطويلة التى تولى فيها المناصب الادارية ، اكتسب ثروات طائلة وحصل على الجاه والسمعة الطيبة واشتهر عند الناس بالعدل والاستقامة ودماثة الاخلاق والحلم . وكان عهد ولايته على الجزائر عهد سعادة وازدهار .

وكان حسن باشا الحاكم الثانى والعشرون من مسحيى البندقية ، وكان وهو فى سن الطفولة كما يروى « هايدو » يتنقل على ظهر سفينة تدعى Esclavon أو Ragnsain يعمل بها كاتبا للمؤرخ ، وفى احدى المعارك استولى على تلك السفينة Dragnt Rais ملك طرابلس ، وبعد وفاة هذا صار ملكا لعلج على الذى عينه عندما صار باشا على الجزائر امينا عاما للخزينة واسند اليه فى سنة ١٥٧٧ ادارة المدينة ، وشغل هذا المنصب حتى سنة ١٥٨٠ . وقد اشتهر بالدهاء والحزم والقساوة والطموح .

اما علج على فقد كان كلبريا من اسرة تحترف صيد السمك ، ومغامراته العجيبة الخلابة تستحق أن نشير اليها باختصار ، وكأنها تشكل رمزا لمصير اولئك المسيحيين الذين استوطنوا الجزائر واعتنقو الاسلام . فى شهر افريل من سنة ١٥٣٦ أثناء غارة على شاطىء خليج Squillace قام خير الدين بمهاجمة قرية صغيرة تدعى Le Castella واسر اهاليها ومن بينهم شاب يبلغ السادسة عشرة من عمره اسمه Giovani Dionigi Galeni أو Jean-Denis Galeni باعه فى سوق العبيد بالقسطنطينية سيده جيافر ثم حمل كقداف على متن بارجة كانت تجوس خلال البحار الشرقية .

اننا لا ندرى على وجه التحقيق السبب الذى دفع هذا الرجل الى اعتناق الاسلام واتخاذ لقب علج على ولا الظروف التى صيرته من قرصان

البحر الذائعى الصيت . وعلى اثر وفاة Dragnt في الهجوم على جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ عين علج على باشا على طرابلس ثم فى سنة ١٥٦٨ باشا على مدينة الجزائر التى كانت حينذاك تجتاز فترة من تاريخها مفعمة بالنشاط والازدهار واستغل علج على ضعف اسبانيا التى كانت فى وقت ما مضطرة لمواجهة ثورة عنيفة قام بها Les Moricas لتحقيق هدف عظيم هو غزو كامل بلاد المغرب ، وفى سنة ١٥٦٩ احتل فعلا مدينة تونس ، وشارك على راس الاسطول الجزائرى فى معركة Lapante التى خرجت منها القوات البحرية الجزائرية سالمة رغم الهزيمة الشاملة التى لحقت المسلمين ، واعترافا بجميل صنعه عينه السلطان قائدا اعلى للاسطول التركى ، فأعاد علج على تشكيله بأقصى سرعة وانطلق الاسطول العثمانى سنة ١٥٧٤ تحت قيادته لاسترجاع تونس لحضيرة الامبراطورية العثمانية ، وكان الاسبان وحلفاؤهم قد استولوا عليها منذ سنة مضت . وبفضل احتلال الاتراك لتونس تأكدت هيبة الامبراطورية العثمانية من جديد ، وكانت قد تزعزعت على اثر هزيمة Lapante وعاود القلق والهلع قلوب

المسيحيين الا انه لم يحصل تصادم مباشر وعظيم بين الاسلام والمسيحية ، فان انتباه وجهود الباب العالى كانت متجهة نحو الشرق بسبب الحرب القائمة ضد الفرس ودولة اسبانيا التى اتحدت مع البرتغال منذ عام ١٥٨٠ كانت بدورها قد حولت انظارها نحو الغرب ، نحو المحيط الاطلسى والعالم الجديد ، فحدث نوع من التوازن فى البحر الابيض المتوسط الذى أصبح — على حد تعبير Fernand Brandel — خارج نطاق الاحداث التاريخية الكبرى ، ومن ذلك الحين وفى ظرف قرنين ونصف اخذت القرصنة البحرية تهيمن على الحياة اليومية للمحيط الكبير يقول المثل « من تصدى للقرصنة لقى قرصانا ونصفا » وهو مثل يجد مصداقه من صميم الحياة داخل البحر المتوسط. فقد تعرض للقراصنة الجزائريين أول الامر قراصنة اوروبيون لا يقلون عنهم جراة ومهارة ، وهم لم يكونوا على اعمال دفاعية ضد المسلمين فحسب ، بل كانوا يبدون نشاطا قويا اذ ينهبون سفن وسواحل البلاد الاسلامية . ونحن لا نعرف شيئا كثيرا عن الاعمال التى كان يقوم بها قراصنة اوروبا فمؤرخونا لم يكن لهم متسع من الوقت للبحث عن نشاطاتهم وكادوا لا يذكرون عنها شيئا ، ولم يكن الشأن كذلك بالنسبة للاعمال البطولية التى حققها اشخاص آخرون تواترت اخبارهم فى أوروبا زمنا طويلا حتى لقبوا بحماة العقيدة والحضارة ضد الوحشية الاسلامية ، وما هم فى نظرنا — ونحن نسعى لمحو الاساطير والخرافات وطرح الكلام المنمق — الا قراصنة ماهرون وجريئون ، وأعنى بهم « فرسان مالطة وسانتتيين Saint Etienne » . فلنستعرض هنا بعض وقائعهم :

فى سنة ١٥٧٩ هاجمت اربع سفن حربية بقيادة نائب قائد الاسطول
Vice-Amiral Marc Antonio
السواحل الجزائرية قرب مدينة القل واختطفت ٣٦ شخصا .

وفى شهر افريل من سنة ١٦٠٤ كلفت حكومة طوسكان Toscane ضابط البحرية الانكليزى Robert Giffort (روبير جيفور) بتنفيذ مخطط مجازف ، وهو اضرام النيران فى سفن « مراد رئيس » وغيره من القراصنة الراصية بميناء الجزائر . وقد كان لنجاح هذه العملية صدى بعيد فى الآفاق كما تشهد بذلك الاخبار الكثيرة التى نشرت عن هذا الحادث ، وقد شهدت العقود الاولى من القرن السابع عشر عمليات مختلفة قام بها القرصان الطوسكانيون Toscans وقطع من اسطول البلاد الايطالية ضد مدن

ساحلية من أرض الجزائر ، وكان ضحايا هذه القرصنة الرجال والنساء ، والاطفال الذين يتخذون عبيداً في البلاد المسيحية ، وهكذا كان الشأن على السواحل الاطالية من جراء القراصنة الجزائريين .

وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٦٠٧ اخذ فرسان Saint Etienne من مدينة عنابة ١٥٠٠ شخص زيادة على عدد وافر من الغنائم . ونجد هذا العمل الحربى مرويا فى عدة تقارير حررت فى ذلك العهد ، وقد اشيد فيما بعد فى تصيدة عنوانها Bona Espugnata . وفى قرية على بعد ٩٠ ميلا غربى الجزائر اختطف الفرسان الطوسكانيون فى صيف ١٦١٠ ٥٠٠ شخص .

وفى سنة ١٦١٣ انزلت ثمان بوارج صقلية بقيادة Ottavio d'Aragona جالها على الشواطىء الجزائرية ، وفى شهر جوان من تلك السنة نهبت سفن غراندوق طوسكان قلعة ارزيو وحررت ٢٠٠ رقيق من المسيحيين واسرت عددا مماثلا من الجزائريين .

وكانت المعارك بين الجزائريين والايطاليين تدور احيانا فى مناطق بعيدة عن بلادهم . ففى افريل سنة ١٦١٦ هاجمت سفن فرسان Saint Etienne فى مياه Negropont عمارة بحرية للقائد الجزائرى مراد رئيس كانت — فيما يبدو — تقل باشا الجزائر الجديد القادم من الاستانة ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف طويل ومريب انتهى بالاستلاء على سفنتين مسلمتين هما اكبر وحدات الاسطول العثمانى . وفى سنة ١٦١٩ اسر القائد الجديد لجمعية رهبان Saint Etienne الكونت Giulio Barbolani سفينة القيادة الجزائرية فى بحر الشرق ... وفى سنة ١٦٢٤ احرز القائد المذكور على انتصارات جديدة ضد الجزائريين ففى شهر ماى من هذه السنة فاجأ قرب جزيرة سان بيار Saint Pierre فى بحر سردانية غليونا (وهو سفينة حربية تجارية) للقرصان « حميتو » من أزمير كانت قاعدته فى الجزائر وفى اكتوبر من تلك السنة وفى ذلك البحر نفسه بمساعدة سفن Saint Etienne تمكنت سفن اخرى للبابا وحكومة نابولى من الاستيلاء على عمارة بحرية كاملة تضم ست سفن للرئيس الجزائرى « حسن خليفة » .

والجزائريون — ونحن نعرف اى دم كان يجرى فى عروق من يرفعون على سفنهم العلم الجزائرى — كانوا من جهتهم اكثر نشاطا وجراة واسعد حضا فى ممارسة القرصنة البحرية فكانوا يهاجمون السفن من كل حجم وينزلون فى شواطىء ايطاليا وغيرها وياخذون المئات والالاف من الاسرى المسيحيين يحملونهم الى الجزائر . ولا زالت صوامع الحرسة التى شيدت لدفع غارات القراصنة قائمة على سواحل ايطاليا بعضها سالم والبعض الاخر فى حالة انهيار . وتوجد كثير من الوثائق المتضمنة للوقائع التى جرت بالمدن الايطالية والاوراق القديمة التى وردت فيها عدة انباء عن تحرشات ومهاجمات القراصنة الذين ينسبون غالبا الى الاتراك او البربر ، الامر الذى يجعلنا لا نستطيع ان نجزم هل هم جزائريون ام تونسيون او غيرهم ، وسواء احصلت الهجومات والاستلاء على السفن من هذا الجانب او ذاك فقد كانت النتيجة المؤلمة تزايد عدد العبيد المسيحيين او المسلمين على ضفتى البحر المتوسط .

يتبع

عالميّة الإسلام وخلوده

محمد الصالح الصديق

من الحقائق الاولية ، ان الاسلام لا يمثـــل حضارة خاصة بعهد من العهود ، تتجلى فى عمران ذلك العهد ، وفى آثاره ومختلف صوره ومعالمه ولما مضى ذلك العهد مضى معه الاسلام ولم يبق الا على لسان التاريخ ، يردده كما يردد الحضارات البشرية المختلفة التى مرت بهذا الوجود كاليونانية والرومانية وغيرهما ، وهذا اعتقاد كثير مـــن المستشرقين المتعصبين و (انصاف) المسلمين الذين اخذوا من العلم وهما وظنوه حقيقة ،وقشورا حسبــوهـــا لبـــابا .

ان الاسلام دين حى ، ورسالة خالدة ، سيظل يمد بطاقته الحية كل عهد من عهود التاريخ وكل مجتمع من مجتمعات الانسان ، وكل طور من اطوار البشرية مايفى بالحاجة فى الاوان دون تأخر أو قصور ، لانه دين الله الحق ، الذى يساير الحياة فى نموها ، وتطورها ، يراقبهـــا فى تقلباتها ، ويعيدها الى الجـــادة عند انحرافها وزيغها ، ويرشدها فى مشاكلها ، ويعارضهـــا فى اتجاهاتها الفاسدة .

وإذا كان الاسلام قد انتشر فى مختلف ارجاء العالم انتشارا مدهشا لم يعرف التاريخ مثله لدين من الاديان ، وكتب له هذا الخلود بفضل نظمه وأسسه وتشريعاته التى سادت بها البشرية قرونا طويلة فانه سيبقى كذلك ما بقيت الحياة لانه الدين الذى تلتقى تعاليمه مع الفطرة وتأخذ طريقها الطبيعى الى النفوس . **أليس دينا لا يفرق بين عنصر وعنصر** ، ودينا يؤدى بالمجتمع الى مستوى أفضل ، ويأمر بالايمان بسائر الكتب المنزلة ، وبجميع الانبياء والرسل ويأمر بالسلوك الحسن مع أهل الديانات الاخرى ؟

أليس فى حقائقه الباقية الخالدة ، **وفى نظرته** الى الكون ، وفى تقديره لمصالح الناس وحقوقهم وطلبه الايمان عن طريق التأمل والعقل ، وفى رفعه الحرج وتوخيه اليسر ... أليس فى كل هذا ما يدل دلالة قطعية على أن الاسلام دين عالمى ، دين الانسانية جمعاء ؟

ودين هذا طبعه ، وهذا زاده فلا بد أن يتعلق به الناس اذا هم نظروا فيه بعقول سليمة وفطر هادية ، وتجردوا من الاهواء والنزعات..

ولعل من الدلائل الواضحة أيضا على بقاء الاسلام ، يواكب الانسانية فى مختلف تطوراتها أنه الدين الوحيد الذى استطاع أن يصمد أربعة عشرة قرنا أمام غارت هوجاء ، وهجمات قاسية متتالية ، ومؤثرات وتدليسات وثورات داخلية وخارجية ، فردية وجماعية لا تستطيع أن تواجهها الاديان الاخرى . فكم من ديانات تلاشت وتبخرت أمام هجمات أقل اضعافا ، من تلك الهجمات وبقى الاسلام كما هو ، وكم من حضارات سادت ثم بادت كأن لم تغن بالامس وظل الاسلام بروحه وشخصيته كما كان ، وفى هذا يقول الاستاذ ابو الحسن الندوى فى احدى محاضراته بكلية الشريعة السورية حول حركة الاصلاح فى تاريخ الاسلام سنة ١٩٥٦ :

(لقد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطرا على روح الاسلام النقية وعقائده الصافية الواضحة ، تتهدد وضع الاسلام الحقيقى وكذلك كانت الغارة الصليبية ثم هجوم التتار — ذلك الجراد المنتشر — صاعقة نزلت على الاسلام والامة الاسلامية وكانت جديرة بأن تقضى على الاسلام وتقصيه من ميدان الحياة ومصاف الامم ، فلو كان غير الاسلام من الديانات للفظ نفسه الاخير وأصبح أسطورة من الاساطير)

ولكن الاسلام تحمل كل هذه الصدمات ، وكل هذه الصواعق ، واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكف أنه عاش وبقى يلعب دوره بل أنه شق طريقه الى الامام وفتح فتوحا جديدة فى ميدان العلم والعقل والسياسة .

وما ذلك الا لانه دين الله الحق ، الذى أعلن عن شكله النهائى وطوره الكامل يوم عرفة بقوله **« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »** .

والدارس للقرآن ، والمتتبع لنصوصه بتفهم تتجلى له خصائص الاسلام التى أهلته لان يكون عالميا ، ، وبالتالى ليبقى ما بقى الانسان . وتلك الخصائص يمكن ايجازها فيما يلى :

« ١ — وفاؤه بحاجة الانسانية جمعاء فيما يصون وحدتها ويرعى انسانيتها ، ويحمى افرادها فى العاجل او الاجل .

٢ — تشريعاته التى تضمن قيام الانسانية كلها فى محيط واحد لا تنزع معه الى عصبية دم او اختلاف لون او فرقة جنس ..

٣ — اتساقه مع حقائق الكون وخصائص الوجود بحيث لا يتعارض مع مايثبت من حقائق العلم او يختلف مع منطق الفكر .. »

بالاضافة الى أن معجزة الاسلام الباقية لم تعتمد على خوارق العادات شأن الاديان

الاخرى ، كاحياء ميت او تحرك عصا ، بل اعتمدت على النظر ، والتأمل ، والعلم ، والمعرفة ، وشتان بين معجزة لا يتأثر بها الا من رآها أو عاش فى عصرها ، ومعجزة باقية بقاء الحياة تفد عليها اجيال واجيال ، فتقف ناظرة متأملة ، متأثرة ، ثم تمضى لتفد اجيال واجيال اخرى وهى ثابتة خالدة مع الزمان والمكان يستضىء بها الوجود الانسانى فى طريق الحياة . .

ماذا تنشد الانسانية فى هذا الوجود ؟

اذا كان الامن والطمأنينة وحماية العقل والعرض والمال والنسل ، ففى الاسلام ضالتها واذا كان التعاون والوحدة والعدل والايثار ففى الاسلام مطلبها ، واذا كان الكرامة والحرية والمساوات وحل مشاكل العيش والاقتصاد ، ففى الاسلام بغيتها ، واذا كان التكافل والتضامن وانس الفكر بالكون وتسخير الطبيعة لصحلة الانسان والسفر الى القمر والكواكب ففى الاسلام ما يشجع على ذلك ويدعو اليه ... اليس هذا الكون الهائل كله بمن فيه وبما فيه مسخر للانسان ؟

(الله الذى خلق السماوات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) .

اوليس اول آية نزلت من القرآن : **(اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ..) ؟**

ثم اليست نقطة انطلاق الدين رحلة النبى محمد طى الله عليه وسم الى الملا الاعلى ؟

ان دينا يفى بحاجة الانسان مهما تطور ، ومهما تنوعت هذه الحاجات لهو — لعمرى — دين الانسانية جمعاء ودين باق بقاء هذه الانسانية . .

وايضا فى شخصية رائد هذا الدين ما يدل على عالمية الاسلام فان فيها ماتفرق من الخصائص والمميزات والسجايا فى رواد الاديان الاخرى السماوية ، ففيه ما كان فى نوح من الشدة والغيظ على الكفار والمشركين ، وما كان فى ابراهيم من الثورة والجهاد فى تحطيم الاوثان والاصنام وما كان فى موسى من العمل على سن السنن الصالحة والشرائع الحكيمة ، وما كان فى عيسى من خفض الجناح والحدب والمحبة ، وما كان يمتاز به ايوب من الصبر على المكاره والشدائد ، والشكر على النعمة والعافية بعد الابتلاء وما امتاز به يوسف من الصبر على الاغواء والدعوة الى الحق وما اشتهر به يعقوب من الثقة بالله وطرد اليأس وقد استحكمت حلقاته .

وفى هذا اوضح الدلائل على ان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وانه رسول الانسانية جمعاء (**وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) .**

اما مايتشدق به بعض المستشرقين ، والمغرضين من أن الاسلام ليس دينا عالميا حيث بدأت رسالته فى الجزيرة العربية وفى امة ابعد ما تكون عن الحضارة والتمدن بالنسبة الى الامم المتحضرة كالفرس والرومان نزعم باطل اوحاه ضيق العقل والافق ، واملاه التعصب الدينى ، الذى يتجنى على العلم والعقل والتاريخ ، فى حين ان البحث العلمى يجب ان يكون منطقيا بريئا من كل تاثر ومن كل نزعة ولعل الحقائق التالية التى دحض بها هذه الشبهة من عنى بهذا البحث من المفكرين والتى يؤيدها الواقع والبحث العلمى التجريبى كافية فى الرد على اولئك ...

١ ــ طبيعى ان القوم الذين يضطلعون بالدعوة العالمية يجب ان تتوفر فيهم صفات تناسب عبء مهمتهم وخطورة رسالتهم من صبر وتحمل للمشاق ومخاطرة ، وشجاعة ووفاء وحرص على الشرف والسؤدد وتمرن على الهجرات والتنقلات وعدم التبرم بحياة التقشف الى غير ذلك من الصفات النبيلة . وقد اثبت التاريخ أن العربى مضرب المثل فى هذا المجال وانه ايضا يمتاز بتوقد القريحة وصفاء الذهن ورجاحة العقل ، وقوة الحجة والفصاحة والبيان ، وهى أمور ضرورية لمن يقوم بنشر الرسالة العالمية .

٢ ــ اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية لهذه الدعوة ، فهى فى غزارة ماديتها وضروب بيانها وملاءمتها لكل مطالب الحياة وتمشيها مع التطور ما يرشحها لتكون لسان الرسالة العالمية .

٣ ــ عهدت الجزيرة العربية فى تاريخها الطويل انواعا من الرسالات ، فهود فى الاحقاب جنوب الجزيرة وصالح فى ثمود شمالى البلاد وشعيب فى مدين عند خليج العقبة ، وموسى الذى ناداه ربه بجانبى الطور على حدود الجزيرة ، وابراهيم الذى بنى البيت العتيق ...

٤ ــ كانت الاديان الموجودة فى العالم ممثلة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت فكان فيها **اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والوثنيون** وعبدة الجن وعبدة الملائكة الخ وجاء الاسلام الحنيف ليظهر عليها كلها ويكتسحها ، وكان انتصاره على الذين يدينون بها فى الجزيرة العربية انتصارا على كل من يدين بها خارجها .

٥ ــ للجزيرة العربية التى انبثق منها الاسلام صلاحية كبيرة لانطلاق الدعوة الى العالم اجمع لانها فى مكان وسط يتصل بآسيا وافريقيا واوروبا ، وهى القارات التى اخذت اذ ذاك حظا من النضج يؤهلها لتلقى الرسالة ..

٦ ــ فى الجزيرة العربية اول بيت وضع للناس وبناه ابراهيم ابو الانبياء ، وهو البيت العتيق التى تدين له جميع الديانات .. وبديهى أن هذه العوامل وهذه الامكانيات تساعد الجزيرة العربية على النهوض بالدعوة الاسلامية فى اطارها العالمى .. كما قدمنا ...

واذا كانت الثورة من اجل التحرر وتغيير الاوضاع الفاسدة التى لا تستقر معها حياة الفرد والمجتمع ، والانطلاق نحو حياة افضل ــ من أبرز مميزات هذا العصر الذى نعيش فيه الى حد اننا نفخر بأنه عصر الثورات ، والثورات الهادفة بالنسبة الى الامم والشعوب التى تقع فيها ، بمثابة عملية تلقيح وبعث وانطلاق من جديد فى طريق الحياة ــ قلنا اذا كانت الثورة من مميزات هذا العصر فان من أبرز مميزات الاسلام عن الاديان السماوية الاخرى هو طابع الثورة ... فبينما نرى رسالات الاديان كلها تهدف الى اظهار المعبود الحقيقى وهو الخالق ونشدان الخير للانسان ، نرى الاسلام دينا ثوريا منذ بدايته وسيبقى ثوريا الى الابد ، وهذه الخاصة ــ الفعالة ــ فيه من اهم العناصر التى تجعله دينا عالميا وبالتالى تضمن له مواكبة البشرية فى مختلف مراحلها وتطوراتها ايضا .. وبنظرة عجلى من الباحث المنصف الى (العمل الجازم) الذى غير به الاسلام مجرى التاريخ فى أمد وجيز تتجلى ثورية الاسلام التى جعلته ينتشر فى مختلف اصقاع الارض انتشارا مدهشا لا عهد للتاريخ به ...

وليست (ثورية) الاسلام مازعمه ومايزعمه اولئك الذين يتحدثون عن الاسلام بدافع من التعصب الدينى أو التأثر بالاهواء الخارجية مما لا يقوله العاقل فى دين شعاره (لا اكراه فى الدين) بل ثورية الاسلام تتجلى وتتمثل فى تلك الاساليب القرآنية العجيبة التى واجه بها الاسلام حالة العالم السوأى ...

لقد كان العالم وقت ميلاد الاسلام تتوزعه دولتان كبيرتان ، ظالمتان ، دولتا الفرس والرومان وامتد نفوذهما على العالم اجمع وكان شغلهما الشاغل، وهمهما الاوكد الوحيد، امتلاك الشعوب والسيطرة على مقدراتها واستغلال امكانياتها لصالح الامبراطور وطائفة من قواده وانصاره واتباعه فأصبحت ترزح تحت كابوس ثقيل من الذل والهوان ... وفى الجزيرة العربية يعيش العرب فى حالة اجتماعية وسياسية وعقائدية تفوق كل تصوير : حروب لا تنقطع بين القبائل لاتفه الاسباب ، وعادات مستحكمة فى النفوس لا اقبح منها ولا اشنع كواد البنات ولعب الميسر ، والانصاب ، والازلام وزجر الطير للنحس والسعد ... وسطوة القوى على الضعيف وعنجهية التكبر والتجبر .. فحدث عن البحر ولا حرج .. كل هذا الى اصنام تعبد ، واوثان تقدس .... ولما جاء الاسلام ووجد هذه المفاسد النكراء التى تتخبط فى حمأتها البشرية والتى لا يصلح معها مجتمع ـ واجهها بأساليب ثائرة لا لين فيها ولاهوادة ونلاحظ هذه الثورة التى لابد منها لبعث الحياة فى الوجود فى الاساليب التى استعملها القرآن فى تغيير الوضع الذى أصابه الانهيار ، وفى طريقته للدفع بالانسانية الى الانطلاق من الاسار ، فهو يهدد **(ذرنى ومن خلقت وحيدا)** (١) وينذر **(سارهقه صعودا)** (٢) ويدعو بقطع اليدين **(تبت يدا ابى لهب وتب)** (٣) ويزجر **(كلا انه كان لاياتنا عنيدا)** (٤) ويستفهم للسخرية وينبه للقوة **(واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب الا ساء ما حكمون)** (٥) و يستهجن عقيدتهم الجائرة فى جعل الملائكة اناثا **(وجعلو الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسالون)** (٦) ويعرض بأخلاق المرأة الجاهلة عنطريق التنويه بفضائل المراة المسلمة ومحاسنها **(محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان)** (٧) وسفه احلام عبدة الاصنام ويؤكد عجزها المطلق الدائم فى تهكم وسخرية **(ان الذين تدعون من دن الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذونه منه ضعف الطالب والمطلوب)** (٨) ويشبه الكافرين بالانعام **(والذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم)** (٩)

وبهذه الاساليب الثورية واجه الاسلام عناد الكفار وتعصبهم فى الضلالة والغواية واستطاعت دعوة الاسلام فى أمد وجيز ان تنشل الانسانية من وهدة الانحطاط الفكرى والعقيدى وتنقل الاجلاف العرب من هوة الصغار والضياع الى خير **امة اخرجت للناس)**

وتهدأ ثورة الاسلام عندما يخاطب المسلمين الذين شبوا على الجاهلية .. فيجمع لهم بين الشدة واللين والتأدب والتهذيب حتى **يألفوا** حياة الاسلام الجديدة ويطبعوا بطابعها ، فتراه يلفت نظرهم الى نعمة الاسلام ، نعمة تأليف القلوب ورأب الصدوع ، تلك النعمة التى حولت شتات العرب فى جاهليتهم وحدة وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، ويدعوهم الى الاعتصام بحبل الله من خطر الفرقة ، ومن التيه فى متاهات الشهوات والعداوات والحزازت ، **(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفى حفرة من النار فانقذكم منها ..**) وينصحهم بالتخلى عن بقايا عاهات الجاهلية ومساويها **(يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا**

(١) المدثر (١٩ ــ ٢)

جيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ..) (ياأيها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ويهديهم وفق ما تتطلب الحياة من ضرورة التعاون ودوام الصفاء ونبذ الفوارق الطبقية وجعل معيار المفاضلة الطاعة والتقوى **(ياأيها الناس انا خلقنكم من ذكر وانثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفو انأكرمكم عند الله اتقاكم)**

ونلمس هذهالثورة القرءانيةنفسهافى رائدالاسلام محمد صلى الله عليه وسلم عندما توسط عمه ابو طالب بينه وبين المشركين فاندفع فى صدق وايمان وفى لهجة قوية صارمة وقال قولته (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الامر أو اهلك دونه) ولما حطم بيده آخر صنم للمشركين فى الكعبة يوم فتح مكة هدأت ثورته ولان اسلوبه ...

من تلك المدرسة القرآنية الكبرى ، التى كان يعلم فيها محمد صلى الله عليه وسلم تخرجت افواج من الرجال الصادقين الذين فتحوا الدنيا وعمروها وكانوا فيها سادة العالم تدين لهم رقاب الجبابرة وتنحنى لعظمتهم هامات المتغطرسين..

وبذلك الاسلوب الحكيم فى الدعوة : ثورة وسلم ، وشدة ولين أنتصرت دعوة الاسلام ، ولو لم يحمل الاسلام هذا السلاح لما انتصر .. وسيظل ينتصر بثوريته وعمق ارشاده وسماحة تعاليمه ، وسيبقى المنهج القويم لتربية البشرية وتوجهها خير توجيه الى معالم الحياة المثلى

والنتيجة التى يمكن الانتهاء اليها بعد هذه الملاحظات السريعة العامة انه لابد للبشرية من دين يحفظ التوازن الانسانى لكى تواصل البشرية سيرها بنظام فى طريق الحياة .. وان الدين الوحيد الذى يكفل هذه المهمة هو الاسلام لانه الوحيد ــ كما قدمنا ــ الذى يفتح ابوابه للبشرية على قدم المساوات الكاملة ، وعلى اساس الشعور الخاص ، ويساير الحياة فى تجددها وتطورها فى حين ان الاديان الاخرى لم تعد لها وظيفة ايجابية فى حياة المجتمع الانسانى لان النظم التى قامت على اساسها قد ترنحت وتداخلها تبديل وتغيير ... والواقع يشهد بأن المجتمع (قد انعزل عن روح المسيحية فى البلاد المسيحية نفسها وقامت اسسه على افكار مادية محضة بعضها مستمد من التقاليد الرومانية القديمة وبعضها مستمد من المذاهب الفكريةالمادية الحديثة) بالاضافة الى ان المسيحية مثلانحلة محلية جاءت تكملة لليهودية الاولى وليس هذا مجرد زعم منا يفنده الواقع بل هو حقيقة نص عليها المسيح نفسه ولقد قال (لم ارسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة) (١)

والحقيقة التى لا يمارى فيها الجاهل والمتعصب هى انه : ما من فكرة ، أو نظام ، أو مذهب عرفتها البشرية حتى اليوم فى تنظيم العالم كوحدة انسانية وفى تنظيم المجتمع كوحدة بشرية الا وفكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان اكبر منها واعظم قابلية للنمو والتجديد واقدر على التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الانسان وحاجات البشرية .

وتجارب البشرية الطويلة الدائمة لطبيعة الاسلام ، وتجاربها لطبائع الاديان الاخرى ولكل مذهب أو نظام او فكرة تؤدى دورا فى عالم الحضارة ــ هذه التجارب كفيلة بأن تؤكد يوما بعد يوم صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان وعدم صلاحية تلك لقصور اهدافها عن شمول مطالب الانسانية المادية والروحية معا . وحاجة البشرية المتأرجحة اليوم ــ الى

---

(١) انجيل متى : الاصحاح ١٥ ــ آية ٢٤ .

الاسلام ـــ لينقذها من الهلاك ، لا تقل عـــن حاجتها اليه منذ اربعة عشر قرنـــا ...

ان الحالة التى تعيشها البشرية اليوم لا تقل سوءا وتدهورا وخطرا عن تلك الحالة التى كانت تتخبط فيها الانسانية قبل مجىء الاسلام مـع اختـلاف الاسبـاب فقط ...

بديهى ان العصر الذى نحن فيه قد فاق جميع العصور السابقة فى الرقى المادى والاكتشـافات العلمية ، والاختراعـات الباهرة ، حسبك أن الانسان اصبح يحقق من حين لاخر ما كـــان خيالا بالامس ... وجد كل شىء فى متناول يده ... يفعل ما يشاء ويختار ... كهرباء ، بخار ، غازات سامة ، غواصات ، طائرات ، صواريخ مراكب فضائية ... وجد انسان اليوم كل هـذا واكثر ... ولكن فقد شيئا هو كل شىء .. فقـد الشعور بالحياة ، فقد هدوء القلب ، وطمانينة النفس وراحة الضمير ، وانفلت من الدين الصحيح لذى يشعره انه ليس ذرة تافهة تائهة فى هـذا الوجود لا اصل لها ولا قرار ، وانحرف عـــن النظام الانسانى الذى يميزه عن الالة والحيوان فأين تلك المشاعر الانسانية الدافئة التى يستروح فى ظلهـا من هجير حياته الدائبة الصاخبـــة من اجل حياته المادية البحتة ... ؟

ولقد زار كاتب عربى امريكا منذ سنـوات وشاهد الناس هناك كيف يأكلهم القلق العصبى الشامل ، القلق الفردى والعائلى والاجتماعـى بالرغم من الانتاج الضخم والثراء الفاحش واللذئذ المتنوعة والمباحة ، وبالرغم من مظاهر النعمـة والترف ووسائل الراحة ، وبالرغم من المـرح الكثير والضحكات المتعالية فى الهواء هنا وهناك وبالرغم من الوثبات فى الطريق ... فكتب يصف حالهم تلك فى دهشة مما راى وسمع وقال عنهم بالخصـوص :

(.. انهم آلات تتحرك فى جنون وسرعـــة وهياج لا يقر لها قرار وكثيرا ما كان يخيل الى ان الناس هناك فى طاحونة دائرة لاتنى ليل نهار .. تطن بهم ويطنون ، لا يهداون لحظـة ولا يطمئنون الى انفسهم ولا الـى الحيـاة مـن حولهم ـــ ان كاكنوا يحسون ما حولهم ـــ ليست هناك لحظة للتأمل ولا حتى للشعور بالحيـاة ذاتها وهـى تـدور ...)

اما راحة الضمير وهدوء البال ، والتجـاوب النفسى ، والاهتمام بالوشائج الوثقى فى الاسرة فشىء لا وجود له فى قاموس حياة الامريكى ...

ولقد ادرك علماء النفس والطب والاجتماع خطورةهذهالحال ، التىتقود البشرية (المتحضرة) الى الضياع ، ولاحظوا فى دهشة ازدياد المصابين بالعقد النفسية والامراض العصبية ، وكثـرة الانتحار ، وتفشى القلق والاضطراب سيمـا فى الشعوب المتحضرة ، ولقد كان فى امـريكـا وحدها تسعة ملايين شخص مصابين بأمـراض عقلية اى بنسبة واحد فى كل ١٦ (وهذا فى احصاء سنة ١٩٥٣) والانحراف الخلقى الذى بلغ درجة مريعة لا يفتأ يزحف بالمسخ والتشويه على الانســان هنـاك ...

ولقد وقف المفكرون تجاه هذه الحضارة التى كانوا يتوقعون أنها ستغمر الناس بالسعـادة نتيجة الاكتشافات العلمية الباهـرة .

اذن فالحضارة الغربية التى تمثل اليوم أرقى حضارة فى العالم ، لم تستطع ان تكفل السعادة للانسان ـــ بدليل الواقع التجريبـى ـــ ولذا فلا بد من حضارة اخرى تأخذ بالانسان الى حيـاة روحية بجانب تلك الحياة المادية لكى تحفـظ التوازن بين الحايتين المادية والروحية ، وفى ذلك سعادة الانسان ، واذاطغتاحداهما علىالاخرى تكدر صفوه وعجز عن القيام بالدور الحضارى الذى تتطلبه الانسانية فى هذا الوجود ، والحضارة المتكاملة هى الحضارة الاسلامية لانها حضارة جسد وروح ..

وفى هذا المعنى يقول السيد قطب فى مقال تحت هذا العنوان (المستقبل للاسلام) نشرتــــه (المسلمــون) سنــة ١٩٥٢

(... فاذا انتهت الشيوعية — ولا بــد ان تنتهى لانها الخطوة الاخيرة فى خط سير الحضارة المادية — فان البشرية ستعود الى نوع مــن الاعتدال والتوازن لا تجده فى روحانية المسيحية الخالية ولا فى مادية الشيوعية الجامدة ، ولكن فى فكرة وسط عن الحياة فكرة تحتضن الروحيــة الصافية الصادقة ، وتحتضن الواقعية الماديــة المعتدلة ، وتصوغ منها عقيدة للضمير ، ونظاما للحياة واحلاما دائمة للبشرية كلما حققت منهــا حلما ارتفعت فى الافق الى حلم جديد ، والفكرة الوحيدة التى عرفتها البشرية وتتحقق فيها هــذه السمات هى فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانســـان) .

ويقول المؤرخ الانكليزى الشهير (ارنولـــد توينبـــى) فى فصل (الاسلام والغرب والمستقبل) من كتابه (الحضارة فى الامتحان)

(نستطيع ان نستخلص من الاسلام مبادىء معينة قد يكون لها اذا ما طبقت فى الحيـــاة الاجتماعية عند البروليتارية العالمية الجديــدة آثارا مستحبة هامة على المجتمع الكبير فى مستقبل قريب . هناك مصدران واضحان من مصـــادر الخطر احداهما نفسى والاخر مادى فى العلاقات الحالية بين هذه البروليتارية العالمية والعنصـــر المسيطر فى المجتمع الغربى المعاصر ، همــا . الشعور العنصرى والمشروبات الكحـــوليــــة وان لروح الاسلام فى كفاح هذين الشرين فضـــلا كبيرا تؤديه ، وقد يبرهن اذا ما طبق انه يشتمل على قيم خلقية واجتماعية سامية . ان من ابـــرز ما حققه الاسلام انعدام الشعور العنصرى بيــن المسلمين وان واقع العالم اليوم فى حاجة صارخة الى الدعوة للفضيلة الاسلامية ، ويحق لنـــا ان نرى فى روح الاسلام مددا ياتى فى ابـــانـــه فيفصل فى هذه القضية لصالح التسامح والسلام)

على ان هذه الفكرة ، فكرة قيام الاسلام بــدور حضارى جديد قد تقابل بالاستخفاف او علــى الاقل بالاستبعاد ، سيما من اولئك الذين سلبتهم الحضارة الغربية ثقتهم بأنفسهم وبأمتهم وبدينهــم فاصبحوا يعدون حتى حماقاتها وسفاسفهـــا تقدما و (مودة) .

ونحن نقول ما قاله المفكرون الاجتماعيـــون (من ان انهيار الحضارة الغربية وانتقال الــدور الحضارى الى الاسلام لا يتم فى عشرين سنة او نصف قرن مثلا فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف واذا بدا الخلل فى قاعدة قلعة حصينة فقد يبدوا للعيان امدا طويلا انها فى ذروة قوتها وهى مع هذا آخذة فى الانهيـــار)

بيد ان الاسلام بالرغم من عالميته وبالرغــم من قدرته على البقـــاء — يلبى الفطرة البشرية تلبية كاملة — تواجهه خلال حياته الطويلـــة محاولات متنوعة فى الداخل والخارج لتشويهه

ان الاسلام وان كان كالحياة كلاهما دائـــم الشباب دائب الحركة مستمر النمــو لا يعــرف الركود ولا يصيبه هرم او تعطل لما فيه من حيوية لا تنفد ومادة لا تفنى ومن ثم فهو لا يتخلف عــن ركب الحياة ولا يعجز عن مسايرتها مهما انتقلت من طور الى طور — تواجهه خلال حيــاتـــه الطويلة محاولات متنوعة من الداخل والخـــارج لتشويهه والخروج به عن مفاهمه والانحـــراف بهعن طريقه ، والبعدبه عن روحه والتاريخيشهد بان الاسلام كان عرضة لانتحال المبطلين ، وتحريف الغالين ، وتأويـــل الجاهلين ، وداخلته بـــدع وخرافات وتسربت اليه الوثنية عن طريـــق التقليد والجهـــل وفشت فيـــه — وما تزال — مفاهيم منحرفة مضطربة ومنكرات جاهلية ومن ثم كان التجديد وكان المجددون فى كل عصر للتذكير بقيمه الاساسية والكشف عن جوهره الحقيقى وايقاظ القلوب حوله ، وتخليصـــه من البــــدع

والخرافات والشوائب التى الحقت به وهو منها برئى حتىيعودالى منبعه الاصلى . وبذلك يتجدد الاسلام وتعود اليه قدرته فاذا به روح جديد قوية تنطلق من جديد فى طريق فسيح تعطى الحياة البشرية غذاءها وتدفع بها الى الحركة واليقظة والبناء مثله فىذلك مثل (المجرى الطويل من النهر حين يترك مندفعا لاتحوطه وسائل الدماية من شواطىء عالية او سدود تحول بينه وبين ان يفقد مجراه الاطلى) ومن هنا كان ظهور المجددين للفكر الاسلامى امرا ضروريا للحيلولة بينه وبين التوقف او ترك مجراة الاصلى .

وكانت فكرة التجديد انشودة كثير من رجال الفكر الاسلامى ، فى مختلف عصوره ، وبلغت العناية بها الى حد ان افردت بالتأليف والمقالات والابحاث المستفيضة ، فهذا الامام السيوطى الذى توفى فى اوائل القرن العاشر الف منظومة فى بيان اسماء المجددين الى عصره سماها (تحفة المهتدين فى بيان اسماء المجددين (ووضع كتابا فى التجديد والمجددين سماه (التنبئة بمن يبعثه الله على راس كل مائة) وهذا المراغى الجرجاوى من علماء القرن الرابع عشر يكمل منظومة السيوطى باسماء المجددين بعد عصر السيوطى ، ويشرحها كما شرح منظومته المكملة الى الان وسماها (بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين) وجاء الاستاذ امين الخولى فوضع كتابه (المجددون فى الاسلام) الذى طبعه سنة ١٩٦٥ على اساس الكتابين المذكورين (التنبئة للسيوطى ، والبغية للجرجاوى)

وليس من قصدنا أن نستقرئى اسماء من كتبوا قديما وحديثا فى التجديد وانما نريد فقط ان نسجل اهمية هذا الموضوع ومدى عناية الباحثين به كما نريد ضمن ذلك ان نلفت النظر الى اننا لا نطمع ان نفى الموضوع حقه فى هذه العجالة فذلك مالا نطمح اليه لانه يتطلب وقتا متسعا وجهودا خاصة وانما هى لمحة خاطفة قد تنير جانبا من جوانب الموضوع ..

وما زال الحديث يؤكد ناموس التجديد للاسلام فقد قال طى الله عليه وسلم (ان الله يبعث لهذه الامة على راس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)

وقد اتفق الحفاظ على انه حديث صحيح وممن نص على صحته من المتأخرين الحافظ ابو الفضل العراقى والحافظ ابو الفضل ابن حجر فى مناقب الشافعى . اما المتقدمون فقد ذكر السيوطى فى كتابه (التنبئة ...) انهمجميعا لجهوا بذكرهذا الحديث .

وسواء اكانت فكرة التجديد مبكرة أم متأخرة فانها قضية معروفة خاضتها افكار الباحثين واقلامهم مما يجعل المتحدث عنها اليوم فى أمن من الحرج ...

ومن الحقائق البديهية التى قد يعرفها كل من له المام بتاريخ الاسلام ان سلسلة الاصلاح والتجديد متصلة الحلقات بحيث لا توجد فترة من الزمن لم ترتفع فيها صيحة الحق تعارض التيار المنحرف ، وتكافح الفساد الشامل ، وتدعو الى تصحيح المفاهيم وتصون المجتمع من الانتكاس وتفتح نوافذ جديدة فى التفكير ، وهذه الثورة الضخمة وهذا الرصيد الشامخ الهائل ، الذى نعتز به ونفاخر الامم والاديان ، والذى يتمثل فى العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والايمان القوى ، والسنة الخالصة ، والاخلاق القويمة والفقه والتشريع كل ذلك واكثر ندين به لاولئك المصلحين المجددين الذين ظهروا فى مختلف العصور الاسلامية ، فوقفوا انفسهم لخدمة الاسلام على انه اصلاح للحياة ، واحكام للصلة بينه وبين قافلة الحياة حتى يشرف على سيرها .. قال صلى الله عيه وسلم (لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة)

ولا يتسع الا مجلد لذكر كل من ساهم بجهود مخلصة فى سبيل بقاء الاسلام حيا خالدا دائم التطور ، دائم الشباب ، فاذا علمنا ان الصحابة المجتهدين بلغ عددهم ـ كما نص على ذلك الامام السيوطى ـ مائة الف واربعة عشر الف مجتهد وان كل واحد منهم قد وضع لبنة فى هذا الصرح الشامخ ، ادركنا ان استقراء المجددين فى مختلف العصور الاسلامية شىء لا يطمع فيه .

وحسبنا ان نستعرض اسماء طائفة قليلة منهم دون التعرض لتحديد عصورهم ، ودون التدخل فى مناقشة العلماء فيما اختلفوا فيه من تعدد المجددين فى كل مائة سنة ، وفى تقسيم هذا على ذاك واعتبار هذا دون ذاك ...

وقد ظهر المصلحون المجددون فى القرون على الاسلام جدته وشبابه عمر بن عبد العزيز ـ الامام محمد بن ادريس الشافعى ـ ابوا العباس ابن سريج ـ ابو سهل الصعلوكى ـ ابو الحسن الاشعرى ـ القاضى الباقلانى ـ ابو نصر الماتريدى ـ ابن حزم ـ الغزالى ـ ابن تيمية ـ وغيرهم كثير ...

وقد ظهر المصلحون المجددون فى القرون الاخيرة عبر العالم الاسلامى من امثال محمد عبد الوهاب (نجد) الشوكانى (اليمن) شبلى النعمانى (الهند) البيطار (سوريا) القاسمى (دمشق) محمد بن العربى (المغرب) جمال الدين الافغانى ومحمد عبده (مصر) الطاهر بن عاشور (تونس) وعبد الحميد بن باديس (الجزائر)

وكان دعاة الاصلاح والتجديد فى هذه الفترة احد رجلين : (مفكر) يحمل القلم يصحح المفاهيم ويكشف عن جوهر الاسلام و (مصلح) يحمل لواء الاصلاح بالتوجيه ، وحفز الهمم لرد العوادى عن الاسلام وكيان المجتمع عن طريق الاقناع والمواجهة فى النوادى والمعاهد والمساجد وفى مختلف المناسبات ...

والملحوظ ان المصلحين المجددين يواجهون فى كل عصر مقاومات وخصومات ، ويبدوا ان ما واجهه المصلحون فى الفترات الاخيرة من التاريخ اعنف واخطر ذلك لانهم بالاضافة الى خصومات العامة الذين يفضلون ابقاء الحال على ما كان عليه من ركود وجمود ، قد واجهوا مقاومات اشد واعنف من قوى الاحتلال والاستبداد التى كانت تعمل من اجل ان يظل المسلمون على مفاهيم جامدة اتصلت بدينهم من اسرائيليات ووثنيات وشبهات فلسفية وبدع وخرافات ، ... زيادة على الافكار السامة التى يبثها الفلاسفة الماديون امثال نيتشة ولوريس ، وديوى ، وفرويد وليم سميث وداروين ، وماركس ودر كايم ... اولئك الذين لا يسلمون بوجود الروح ولا القوى الغيبية ولا يرون ان (القيم الاجتماعية العقلية والتعاليم الروحية باقية) .

ولكن بالرغم مما يلاقيه المصلحون المجددون فى طريق دعوتهم من عقبات كاداء ، وعراقيل متنوعة ، فهم المنتصرون لانهم يملكون ايمانا قويا جديدا وسموا روحيا وتفانيا فى المبادىء والعقائد ، ومستوى عقليا وعلميا بعيد الحدود ولانهم قبل كل شىء يمشون بنور الله فى الناس فكانوا اجلاء بجلال الحق اقوياء بقوة الايمان عظماء بعظمة الاسلام ...

ذلك هو الاسلام فى عالميته وتجديده، وخلوده وسيبقى عالميا ومتجددا وخالدا يحمل الشعلة للضالين فى متاهاة الحياة ، ويمد الانسان ثراء لا يغيض ، ويراقب سيره فى الحياة حتى لا ينفصل عن السماء فيتردى فى حضيض المادية المطلقة

فيصاب بالجفاف والخواء وهو فى عالميتـــــه وتجدده ينتظر دوره لقيـــادة الحضارة الانسانية مـــن جـــديـــد ...

واننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبـــة ــ كما قال يوما الدكتور مصطفى السبـــاعى ــ لن نتخذ من الوصول الى (القمر) دليلا علـــــى انكار وجود الله ، وان نتخذ من الصـــواريـــخ عابرة القارات ذريعة الـــى تهديـــد الامـــم ، والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الاذاعة وسيلة للتضليل ولا من السينمـــا آلة للاغـــراء ولا من المراة متعة للجسم ولا من التقدم الحضارى اداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها واذلال كرامتها ...

بل لنحقق للانسان قسطا كبيرا من الامـــن والطمانينة والحياة الانسانية المستقرة

محمد الصالح الصديق

مـــراجع البحث

الطبقات الكبـــرى لمحمد بن سعد

الامـــم والـــرسالة للشافعى

المحلـــى لابن حـــزم

تاريـــخ الخلفـــاء للسيوطى

اعـــلام المـــوقعـــين ابن القيم

القيم الاســـاسيـــة انور الجندى

المجددون فى الاسلام امين الخولـــى

التنبئية بمن يعثه الله على راس كلمائة السيوطى

مجلة (المسلمون) العدد ـــ ١٠ ١٩٥٣

عددان من (منبر الاسلام) ١ ٥/١٩٦٦

١٩٦٤

المنتقـــى فى التـــربية ج السادس (م) محمـــد الصـــالـــح الصـــديـــق

كتاب الأصالة



المجابهات الثقافية

في الجزائر المستعمرة

من 1830 إلى 1880

تأليف : د. تورين

تقديم : بوعمران الشيخ

أستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر

كان الاستاذ مولاى بلحسين قد تولى تقديم هذا الكتاب فى العدد السابق وصادف ان تناول نفس هذا الكتاب الاستاذ الشيخ بومعران ، ونحن ننشر تقديم الاستاذ بوعمران لنفس الكتاب لانه تناوله من زاوية مختلفة .

موضوع هذا الكتاب هو المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة وخاصة فى المدارس والطب والدين ويشمل فترة خمسين سنة من ١٨٣٠ الى ١٨٨٠ الفته الاستاذة « ايفون تورين » التى تدرس التاريخ فى جامعة الجزائر وكانت تدرس سابقا فى جامعة الرباط وجامعة باريس وقد اهتمت كثيرا بالمغرب العربى فى عهد الاحتلال ولها مؤلفات كثيرة — ويمتاز البحث باعتماده على وثائق هامة كانت سرية قبل اليوم واصبحت الان فى متناول الدارسين ، قسم منها بباريس وقسم آخر بمدينة ايكس .

غير ان هذه الوثائق كلها من مصادر فرنسية وينبغى ان تقارن بمصادر جزائرية واجنبية لنختبرها اختبارا علميا موضوعيا ومهما كان من الامر فان هذا الكتاب اتى بمعلومات مفيدة جمعتها الاستاذة ورتبتها بعد جهد كبير وصبر طويل والقى بحثها اضواء جديدة على وقائع كنا نعرفها جملة وعلى احداث يقصر المامنا بها على جوانب هامشية ، وحاولت ان تشرح مواقف كل من المستعمرين ومن الوطنيين ووضعت صراعهم الطويل فى ظروفه التاريخية ، ونعرض هنا باختصار وضعية التعليم والثقافة فى بداية الاحتلال ثم استعمال الطب لاغراض سياسية واخير المجابهات التى قامت فى هذه المجالات .

١ — وضعية التعليم والثقافة فى بداية الاحتلال

بين الكتاب أن المدارس والمؤسسات الثقافية كانت منتشرة فى كافة انحاء الوطن وان مستوى التعليم العام فى بلادنا لم يختلف عما كان عليه فى المدارس الفرنسية . وذلك باعتراف « دوماس » (ص ١٢٧) ووردت فى البحث أرقام واشارات مبعثرة هنا وهناك نرتبها حسب المدن والمناطق فيما يلى :

* **عنابة** — المدارس : ٣٩ ، المساجد : ٣٧ ، الزوايا : زاوية سيدى بن عبد الرحمن وزاوية سيدى عبد القادر ، بعد الاحتلال لم يبق الا ٣ مدارس و ١٥ مسجدا (ص ١٣٤) .

* **قسنطينة** — المدارس ٨٠ المعاهد ٧ المساجد : ٣٥ ، فى المنطقة : ٣٠٠ مدرسة وزاوية شطابة ، وبعد الاحتلال بقيت ٣٠ مدرسة (ص ١٣٥) .

* **تيزى وزو** — عدد غير محدد من المدارس والزوايا يتردد عليها تلاميذ وطلبة كثيرون (ص١٣١)

* **العاصمة** — المدارس : ٢٤ ، فى المنطقة : ٢٩٩ مدرسة و ٥٥٨٣ تلميذا (ص ٢٤٣)

* **مازونة** — معهد للدراسات الفقهية مشهور ياتيه الطلبة من عدة جهات (ص ٢٤٨)

* **وهران** — مدرسة الشريعة (ص ٢٢٠)

* **تلمسان** — المدارس : ٥٠ ، المعاهد : ٣ ، الزوايا : ٣٠ ، فى المدينة ٢٠٠٠ تلميذ و ٦٠٠ طالب ونظام داخلى فى المعاهد يحتوى التدريس فى المرحلة الاولى على الكتابة والقراءة والنحو والحساب والقرآن ، وفى المعاهد والمساجد يدرس الادب والتاريخ والفقه والتوحيد .

والجدير بالذكر أن الدولة لم تنفق على المؤسسات ولم تخصص لها ميزانية وانما كانت الاوقاف تتولى ذلك ، وكان رجال التعليم والثقافة يتمتعون بمكانة ممتازة فى المجتمع (ص ٨٣) وتذكر المصادر أن العلاقات بينهم وبين البلاد العربية كانت متواصلة ، وكان الطلبة يذهبون الى تونس والمغرب الاقصى والى المشرق ليستكملوا تعليمهم (ص ١٢٢ — ١٢٩) وبعد التحصيل فى المدارس والمعاهد كانوا يشتغلون فى الوظائف المختلفة ، الامر الذى لم يتحقق فى عهد الاحتلال .

٢ ــ سياسة الاستعمار الثقافية :

تتلخص اهداف هذه السياسة فى القضاء على الثقافة الوطنية ونشر التعليم الفرنسى مكانها ، وكان الغرض من هذا التعليم ان يتحول المجتمع الجزائرى تحويلا كليا يجعلـه يخـدم مصالح المستعمر (ص ٧٣) ، ولهذا انتهجت السلطة الفرنسية سياسة ــ الاندماج ــ

وارتأت ان التعليم هو احسن وسيلة لتحقيق تلك السياسة ، وارادت أن تزيل « الافكار المتخلفة » المتفشية بين الاهالى ومعنى هذا القضاء على ثقافتهم ولغتهم وشخصيتهم ــ وهكذا تتمكن الدولة المحتلة من السيطرة على الوضع ويتركز نفوذها فى البلاد ، وفى النهاية ــ يتقبل السكان النظام الجديد ويرضون به ولا سيما فى المدن (ص١٦٤) وجاء فى تقرير احد المسؤولين « أن بناء مدرسة افضل من فيلقين لاقرار الامن » (ص ١٦٥) .

وتخيل للمستعمرين ان التعليم يستطيع مزج العناصر البشرية المختلفة بفضل اختلاط الاطفال فى المدارس وبهذه الصورة تتكون وحدة شاملة من شعبين متضادين (ص ٢١٣) وبدا العمل على تطبيق هذه السياسة فى مراحل تضمن لها النجاح وتجعل الاهالى لايتفطنون الى ابعادها وتنحصر المرحلة الاولى فى مراقبة التعليم الاصلى ومؤسساته ورجاله مع محاولة « توجيهية » نحو اغراض المستعمر ، والتدريج ضرورى حتى لايثار « التعصب » والمفهوم من هذه الكلمة أن السلطة الاجنبية كانت تخشى معارضة الشعب لخطتها (ص ٧٢) ، وبعدما تبين لها انه لايمكن اقناع الكبار بنزاهتها صرفت جهودها نحو الاطفال الصغار ليتلقنوا التعليم الفرنسى ويتقربوا من الذين حملوا اليهم « الحضارة » (ص ٧١) وهكذا شرعت المدارس الرسمية فى بث الدعاية الاستعمارية ، وعلى سبيل المثال ننقل هنا «حكمة» وردت فى كتاب مدرسى للاخلاق يقول : « ان الرجل الحر من بين كافة الناس هو الذى يستطيع أن يبقى حرا حتى فى حالة الرق » (ص ٦٤) وهكذا اصبح التعليم يحاول عبثا تبرير الاحتلال والاستبداد

أما المرحلة الثانية فتتلخص فى الاستيلاء على التعليم الوطنى وانشاء تعليم رسمى يقوم مكانه ويحقق للمستعمر تنفيذ سياسته مباشرة ، وبرزت هذه السياسة فى مصادرة « الاوقاف » التى كانت تمول المدارس والمساجد والزوايا وتنفق على المعلمين والطلبة . وقد تم ذلك سنة ١٨٤٣ وكانت النتيجة الحتمية اغلاق الكثير من المدارس والمعاهد وتفقير رجال التربية والثقافة وتشريدهم واهمال التعليم العربى (ص ٢٢٣) ، ولم تكتف السلطة الاستعمارية بذلك فضايقت المعلمين واضطهدتهم لانهم كانوا يحرضون على محاربتها نقررت وزارة الحرب الفرنسية مراجعة المؤهلات العلمية ونظمت « اختبارات » جديدة فرضتها على رجال التعليم لتمنع الكثير منهم من التدريس بدعوى انهم «مشبوهون» (ص ٢٠٨) وطردت «الاجانب» منهم وخاصة المغاربة والتونسيين (ص ١٩٢) ــ وأدى الاضطهاد بالكثير من أهل العلم والثقافة الى مغادرة الوطن فتفرقوا على البلاد العربية (ص ١٢٩) واغلقت جل المدارس والمساجد والزوايا او حولت الى اغراض أخرى وقد اعترف « الدوك دومال » ــ الوالى العام ــ بذلك فى تقرير له قائلا : « قد تركزنا فى الجزائر واستولينا على المعاهد وحولناها الى دكاكين او ثكنات او مرابط للخيل واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد » (ص ١١٩)

وعندما اتضح أن استخدام التعليم الوطنى لصالح المستعمر أصبح غير ممكن عولت السلطة على احداث مدارس خاصة بها وشرعت فى بناء «المدارس العربية ــ الفرنسية » (ص ٢١٣) هادفة الى تنفيذ سياستها الاستبدادية مستعملة المدرسة والدين كوسيلة لذلك وقد وردت هذه الفكرة فى تقرير رسمى الذى قال : « ان المدارس والدين يستنموان تحت حمايتنا فى صالح حكمنا »

(ص ٢١٨) ، وكان المنتظر من بناء المدارس « تدعيم السلم » بفضل التعليم باللغتين العربية والفرنسية (ص ٢٥١) غير ان الاولوية كانت للفرنسية كما يظهر ذلك من خلال البرامج (ص ٧٦)التى ركزت على نشر الفرنسية على نطاق واسع ذلك على حساب العربية التى رات السلطة انها ليست صالحة لكسب العيش ونيل الوظائف ، الامر الذى قلل من شأنها فى نظر الناس ووضعة السلطة كتبا مدرسية بالعربية لتوجيه « التعليم العربى توجيها يناسب اغراض المستعمر وقام بتاليف هذه الكتب عدد من المستشرقين (ص ١٠٢) الذين نقلوا ايضا بعض الاثار العربية الى الفرنسية قصد التفاهم والحوار بين الثقافيين ونذكر منهم « سولفى » «وبروسلار»
و « شربونو » «وبرسنية»
و « بوسية » واهتمت السلطة

بأبناء « الاعيان » من الاهالى ففتحت لهم معهدا خاصا بمدينة باريس ليقوم بتعليمهم واعدادهم لمهام سياسية ولكن المقصود من ذلك كان الضغط على « الاعيان » اذا فكروا فى التمرد على الحكم الاجنبى ، غير أن الغرض لم يتحقق لان « الاعيان» لم يثقوا بنية المستعمر ، ففشل المشروع واغلق المعهد البارسى (ص ٦٩) .

ومن ناحية اخرى قررت السلطة حصر التعليم فى نطاق ضيق لانها كانت تخشى انتشار الثقافة وتعميم التعليم وما قد ينجم عن ذلك من نتائج سياسية ، فمنعت الجزائريين من الالتحاق بالمعاهد الجامعية حين تذكرت ان يوغورطة نشأ فى المعاهد الرومانية ولم ترض السلطة المحتلة ان يتخرج ثوار مثل يوغورطة من معاهدها (ص ٧٥) واكتفت باحداث ثلاث « مدارس » رسمية فى قسنطينة والجزائر وتلمسان يتعلم فيها عدد قليل من الطلبة الجزائريين اللغتين العربية والفرنسية ويعدون لبعض الوظائف الاهلية التى تحتاج اليها الادارة الاستعمارية — ولهذه المدارس الثلاث غرض آخر وهو منافسة الزوايا التى كانت تقاوم السياسة الاجنبية (ص ١٨٥) اما المدارس الابتدائية فكانت تعمل على نشر تعاليم لاتتفق طبعا مع التقاليد الوطنية ، مثلا فى تعليم الاخلاق اعتمد الكتاب المدرسى على الانجيل ! (ص ٢٦٠) ومع ذلك كله حاول رجال التعليم « فى المدارس العربية — الفرنسية » ان يقربوا بين الاطفال الجزائريين والاوربيين ولكن الاباء لم يوافقوا ، فطالب المعمرون بمدارس خاصة بهم وعارضوا تعليم الاهالى (ص ٢٩٥) ورغض الجزائريون سياسة « التقرب » ففشلت المحاولة وضعفت المدارس العربية الفرنسية ثم اغلقت حوالى ١٨٨٠ وخلفها نظام جديد مبنى على التميز العنصرى وفصل تعليم الاهالى على التعليم الاوربى .

٣ — الطب وسيلة سياسة

ومن ناحية اخرى حاول المستعمر ان يستعمل الطب كوسيلة سياسية ، انه تفهم أن ليس له تفرق اخلاقى على الاهالى الدين كانت لهم حضارتهم فاراد ان يثبت تفوقه فى المجال العلمى (ص ٥٨)، فركز جهوده على نشر الطب مستهدفا كسب الراى العام والتقرب من السكان (ص ٣٢١) تلك الخطة التى فمثل فيها فى المجال الثقافى والتعليمى (ص ٣٠٧) وكانت الظروف مناسبة لان الشعب كان لا يعرف الطب الحديث وكان يعتمد على التقاليد فقط وعلى التوكل (ص ٨٦ و ١٤٦) ، ولم يدرك المستعمر ان الاهالى لم يثقوا بعمله وتقدمه وفضلوا تحمل الامراض والمشاق على استعمال الطب الاجنبى الذى كان يرمى الى اغراض سياسية واضحة .

فلجات السلطة الى العنف وفرضت العلاج بالقوة ، الامر الذى جعل صاحبة الكتاب تتساءل فى نجاعة تلك الطريقة — اما السكان فحاربوا الطب الاستعمارى كما حاربوا التعليم الاجنبى ، فوقع صراع كبير بين الاطباء والحكام الفرنسيين من ناحية وبين الاهالى وقادة المقاومة الوطنية من

ناحية اخرى واتخذ هذا الصراع شكل « الحرب النفسية » التى اشتهرت فى عصرنا وخاصة اثناء حرب التحرير (ص ٣٥١) .

٤ ــ المجابهات والمقاومة الوطنية

قد ادعى المستعمر بانه جاء « ليمدن » البلاد وزعم انه صاحب « رسالة حضارية » ولكن الاهالى لم يغتروا بهذا الستار المزيف وادركوا اغراض المحتل الذى كان يريد السلطة من اجل استغلال ثروات الوطن وتسخير السكان الى تحقيق مصالحه ، فكانت المجابهات والمقاومة حتمية وطبيعية ، وفى رأى الاستعمار لم يكن الشعب الجزائرى الا شعبا « همجيا » لايستحق السيادة والاحترام يجب « تمدينه » (ص ٨٣) ، وبطبيعة الحال لم يرض شعبنا بفلسفة الاستبداد ورفضها رفضا باتا وقاومها بكل مالديه من قوة وقد اكتسبت المقاومة الوطنية اشكالا متنوعة لم يذكر الكتاب منها سوى « المجابهات الثقافية » واشار فقط الى الثورات المسلحة وخاصة الى ثورة ١٨٦٤ وثورة ١٨٧١ ، ولم يدرس كافة اسباب الفشل الاستعمارى وانما لاحظ عابرا التناقض القائم بين سياسة « التقرب » من المواطنين والاستيلاء على اراضيهم (ص ٢٠٠)

بدات المقاومة بمحاربة المدارس الرسمية وخطة الاستعمار الثقافية ولعب رجال التعليم والعلم والثقافة دورا كبيرا فى ذلك وقد اعترف العدو بنفوذهم ، فحرضوا الشعب على رفض سياسة « الاندماج » وبينوا للمواطنين اهدافها وخطورتها وجعلوا من كل مدرسة جزائرية وكل مسجد وكل زاوية مركزا محصنا لمحاربة العدو ، وعملوا على توحيد الصفوف ونسقوا الجهود والاراء حتى اصبح المستعمر يتساءل فى سر الوحدة الشعبية القوية بدون ان يلتمس اسبابها الحقيقية واستشهد الكتاب بتقارير ومراسلات ومؤلفات كثيرة تدل على تلك الروح الوطنية ــ فذكر الضابط « دونوفو » فى كتابه « الاخوان » فعالية الحركة القومية فقال « وبسبب سذاجة المواطنين قد اثر فيهم رجال جاءوهم باسم دينهم وباسم الله وباسم محمد يحرضونهم على الثورة والتخلى عن المحراث ــ فى حين اننا اصبحنا مضطرين الى استعمال القوة لحمل الاهالى على الامتثال لارائنا ولاقناعهم باننا نريد مصلحتهم » (ص ١١٥)ــ وشبت « حرب المدارس » بين العدو والسكان وتنافست الثقافتان ــ فأضحى الحوار مستحيلا بينهما ــ وهنا نختلف مع المؤلفة التى تقول بأن السلطة احترمت ثقافة الشعب المحتل وتقاليده ، فان من طبيعة الاستعمار ان يحتقر الامة المغلوبة وان يتنكر لحضارتها وشخصيتها ، ولا يعتمد الا على قوة السلاح ، اما الشعب المسيطر عليه فانه لا يقبل الدعاية الاجنبية ولا يرضى باحتلال وطنه واستغلال خيراته ــ وانتهى البحث باعتراف بخفق السياسة الاستعمارية التى لم تنجح فى ايجاد «طريقة للشروع فى الحوار وقد ذكر « ماك ماهون » ان « البلاد قدتم احتلالها ولكنها غير خاضعة » ويلاحظ كذلك ان الكتاب لم يعترض للمجابهات الثقافية الاخرى منها حركة الكنيسة التبشيرية التى ساندت الاحتلال ، ومنها حركة الكتاب والمؤرخين المستعمرين الذين كان لهم شأن فى تدعيم الاستعمار مثل « لويس فويو » وغيره .

ونعتقد ان هذين الموضوعين يستحقان البحث ونامل ان يقوم به الدارسون ، وعلى الرغم من ملاحظاتنا على الكتاب فاننا نعتبره من اهم ما صدر اثناء سنة ١٩٧١ ، فبين الصراع الثقافى والايدولوجى المرير الذى لم ينته الا بتحقيق استقلال الوطن بعد ثورات عديدة متواصلة الحلقات ، ولذا عرفنا القراء به ليستفيدوا منه ويتاملوه .

ابو عمران الشيخ

كلية الاداب الجزائر

إعداد: رابح بونار

على بن أبي الرجال التاهرتي القيرواني

حياته : ابن ابى الرجال هو على بن ابى الرجال الشيبانى يكنى ابا الحسن وينسب الى القيروان وان لم يكن منها بل هو من مدينة تاهرت بالقطر الجزائرى كان عالما رياضيا فلكيا منجما واديبا شاعرا نشا فى قرطبة على ما يرجح ، وعاش مدة فى بلاط المعز بن باديس بتونس ومات بها بعد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) كما جاء فى الدائرة والارجح انه مات حوالى سنة ٤٢٥ هـ .

كان ابو الحسن هذا كافلا للمعز قبل ولايتــه الملك ثم وزيرا له بعد ان تولى ملك بنى زيرى ، وكانت منزلته لديه سامية ، ونفوذه فى البلاط عظيما فتقرب اليه الادباء والعلماء وقد اهدى اليه ابــن رشيق كتابه العمدة كما اهدى اليه ابــن شرف كتابه ((رسائل الانتقاد)) وقال فيــه الاول فى عمدته : اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب ، واقتطف زهر الآداب ، منتزها فى عقول الحكماء متفكها فى اقاويل العلماء كالسيد الامجد ، والفذ الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ابى الحسن على بن ابى الرجال الكاتب ، زعيم الكرم وواحد الفهم الذى نال الرياسة وانفرد بالبسط والقبض واتحد فى الابرام والنقض ، عن سعى مشكور ، وفضل مشهور وعلم بالموارد والمصادر، ونظر فى الاوائل والاواخر وتتبع لآثار من سلف من اهل القدر والشرف ، وتقلب فى مجالس الحكم، بين ذوى الاقدار والهمم ، الى ان صار نسيــج وحده ، وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ، ولا منازع فيــه .

وذكر ابن رشيق عنه انه : ((اقام سوق العلم والادب ، وجعل ذكره باقيا وجده ساميا ، وايده من النصر والتوفيق، بما فيه رضا الخالق والمخلوق فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ...)) علمـــه .

عرف الاوربيون المترجم بآثاره كما تقول الدائرة ولا سيما كتابه « البارع فى احكام النجوم » وقد



نقله الى الاسبانية ، يهوذا بـن موسى سنـة ١٢٥٦ م ثم نقله من الاسبانية الى اللاتينية بطرس الرجوى وايجيديوس التبالدى فطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الاولى بالبندقيـة سنـة ١٣٨٥ م ، ومن هنا جاء تصحيف ابن ابى الرجال هكذا : وتصحيف كنيته ابى الحسن هكذا :

ومن آثاره العلمية على ما جاء فى دائرة المعارف

١) أرجوزة فى الاحكام الفلكية ، طبعت فى آخر كتاب كفاية الطالب فى الاحكام الفلكيـة لغـزال الموسى وشرحها احمد بن الحسن بن القنفـذ القسنطينى سنة ١٣٧٣ هـ ، ولعل ابا الحسن هذا هو الذى اعان ابا سهـل الكوفى فى الارصـاد الفلكية التى أجريت فى بغداد سنة ٩٨٨ م .

وهذه هى الصورة العلمية لابى الحسن ، واما صورته الادبية فقد تكفل بتشخيصها ابن رشيـق فى عمدته وقد روى لنا عنه مقطوعات شعريـة يمكن دراسة شخصيته من خلال أبياتها .

كان أبو الحسن شاعرا لطيف الوجدان ، جيد الاسلوب صادق العاطفة انشأ وهو بتاهرت سنة ٤٠٥ هـ مقطوعة فى تصوير شوقه ، والتعبير عن حنينه لاهله يقول فيها :

ولى كبد مكلومة مـن فراقكـم
اطامنها صبرا علـى مـا اجنت
تمنتكم شوقـا اليكـم وصبـوة
عسى الله ان يدنى لها ما تمنت
وعينى جفاها النوم واعتادها البكا
اذا عن نكر القيروان استهلت

وعلق ابن رشيق عليها بقوله : لو ان اعرابيا تذكر نجدا فحن به الى الوطن ، أو تشوق فيـه الى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا الحضرى المتأخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز ، ولا اتفق بهذا القول عند مـولاى ولا الخديعة مما تظن به ولا فيه ، ولكن رايت وجـه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم ..

فى الوصـف :

ويقول أبو الحسن فى وصف بلاغة احد الكتاب وجودة خطـه :

١) فضل الانام بفضل علم واسع
وعلا مقالهـم بفضـل المنطـق
٢) وحكى لناوشى الرياض وقد وشت
اقلامـه بالنقـش بطـن المهـرق

وقال ايضا فى آخر :

١) اذا نقشت يمناك فى الطرس اسطرا
حكيت بهـا وشى الملاء المنضـد
٢) يروق مجيد الخط حسن حروفهـا

ويعجب منهــا بالمقــال المســد

وقال ايضا فى الاصطباح بالخمرة وتعاطى لذات الحياة قبل هجوم المنية (١) :

باكر الراح ودع عنــك العــذل
واسع فى الصحة من قبل العلــل
واغتنــم لــذة يــوم عاجــل
فالمنايــا ضاحكــات بالامــل
ما تــرى الساقى كشمس طلعت
تحمل المريخ فى بــرج الحمــل
مائسا كالغصن فى دعــص نقــا
فاتــن المقلــة زينت بالكحــل

فى الغـــزل :

وانشا ابو الحسن فى الغزل مقطوعات جيدة وهى رغم ماديتها نجد فيها نفسا روحيا رقيقــا ومعانى لطيفة ومنها قوله :

خليلى ان لم تساعدانى فاقصرا
فليس يداوى بالعتــاب المتيــم
تريدان منى النسك فى غير حينــه
وغصنى ريــان وراسى اسحــم

وقال من مقطوعة يتغزل فيها بفتاة حضريــة وهى كما يقول ابن رشيق ذات طبع رقيق ومعانى رقيقة مؤثرة فى النفس والقلب :

١) غراء واضحة ينوس بقرطهــا
جيد حكى جيد الغــزال الاعنــق
٢) صدت فاغرت بالسجوم مدامعى
والعين تذرف بالدمــوع السبــق
٣) تشكو البعاد اذا بعدت تصبــرا
وان ارتجعت الى الزيــارة تفــرق
٤) ولقد يبيت اخو المــودة لائمــى
فى حبهــا لــوم الشفيــق المشفــق
٥) حتى اذا طلعت فابصر شخصها
اخزى جهالــة لائمــى المستحمــق
٦) كم قطعت بوصلهــا مــن ليلــة
وبشرب صــافية كلــون الزئبــق
٧) يسعى بها كالبدر ليلــة تمــه
سحار الحــاظ رخيــم المنطــق
٨) آليت اترك ذا وتلك وهـــذه
حتى يفــارقنى ســواد المنطــق

فى الشكوى من الدهر واهله :

وحينما تنكر الدهر له تضجر وتألم وسخط على معاصريه وعصره فقال شاكيا داعيا الــى الزهد والمثاب :

١) امس الزمان زمانــة العقــل
فاخش الالــه وحــل عن الجهــل
٢) واعلم بان فى الحســاب غــدا
تجزى بما قــدمت مــن فعــل

وقال ايضــا :

١) ايارب ان الناس لا ينصفوننى
ولم يحسنــوا قرضى عــلى حسناتى
٢) اذا ما راونى فى رخــاء ترددوا
الى واعــدائى لــدى الازمـــات
٣) ومهما اكن فى نعمة حزنوا لهــا
ذوو انفــس فى شــدة جـــذلات
٤) ثقاتى ما دامت صلاتى لديهــم
وان عنهـــم اخرتهـــا فعداتــى
٥) سامنع قلبى ان يحــن اليهــم
واصرف عنهــم قاليـــا لحظاتــى
٦) والزم نفسى الصبر ابــا لعلنى
اعايــش ما املت قبـــل مماتــى
٧) الا انما الدنيا كفــاف وصحــة
وامن ثــلاث هــن طيب حياتــى

فى الفخر بقبيلته : وقال يفخر بقبيلته شيبان ، ويشيد بأمجادها منذ القديم :

١) يا آل شيبان لا نحارث نجومكم

ولا خبت ناركم من بعـــد توقيـــــد

٢) انتم دعائم هذا الملك مذ ركضت
قبل الخيـــول لابـــرام وتوكيـــــد

٣) سيوفكم افقدت كسرى مرازبـــه
فى يوم ذى قار اذ جـــاؤوا لموعـــود

فى العتاب والهجاء : ويعتب على بعض اصدقائه فيلومه لوما خفيفا وقديهجوه ولكن هجوه لا يتعدى النقد البرىء فيقول :

١) وابنى لاطرى كل خل صحبتـــه
وانت ترى شتمى بغيـــر حيـــاء ؟

٢) ستعلم يوما ما اسات لصاحب
بكـــرم اخـــلاقى وحســـن وفـــائى

هذه نبذة عن ترجمة ابن ابى الرجال تقدم الينا صورة موجزة عن حياته الادبية اللامعة ، وهناك وجه آخر لابن ابى الرجال قد امتاز به فى بـــلاط القيروان عن معاصريه وهو جانبه العلمى الذى تفوق به على معاصريه هناك ، وقد اشرنا فى مطلع هذه الترجمة الى ان المترجم كان عالما باحثا فى النجوم ، وقد ترك لنا فى الموضوع كتابا جليلا هو كتاب البارع فى احكام النجوم الذى ترجم الى عدة لغات ، واعتبر تراثا جليلا انتجته عبقرية مغربية فى العصر الوسيط .

والكتاب توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية تحت رقم ١٥١٦ خطها شرقى جميل ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وحجمها ١٩٠ / ٢٦٠ ملم .

ونجد فى الصفحة الاولى من النسخـــة نـــص تحبيس محمد بن حسن خوجة لها عـــلى اولاده ثم على جامع كيتشاوة بتاريخ اواسط جمـــادى الثانية لعام ١٢٣٩ هـ . والمؤلف يقول فى مقدمة كتابه : هذا كتاب جمعت فيه من معانى فى علـــم النجوم ، وغرائب اسوارها ، واخترته من علوم علمائها ، واضفت اليه تجربتـــى ، وان كـــانت النجوم اكثر واعظم من ان يحاط بها ، او يقدر العالم على ايضاح جميعها . ثم اخذ يذكر اقسام الكتاب وابوابه فى ترتيب منطقى ، وباسلـــوب ادبى خفيف .

والكتاب يعتبر من ذخائر تراثنا الفكرى تزدان به مكتبتنا ، وتسمو به اصالتنا فى مجال الابداع العلمى والحضارى .

ولاشك ان هذا سيحفزنا على ان نولى هـــذا الكتاب ما يستحقه من عناية واهتمام ونحن فى فترة احياء تراثنا الوطنى والعمل عـــلى اعـــادة المقومات الاساسية لشخصيتنا واصالتنا .

---

(١) دائرة المعارف لفؤاد افرام البستانى ج ٣ ص ٣١٠ — العمدة لابن رشيق ط ٢ مصر سنة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥
(٢) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ . (٢) العمدة ج ١ ص ٤٤ .
(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٠ .

• النشـــاط الثقافى •

من نشاط وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

شهدت مساجد البلاد كلها الانطلاقة الثانية لمكافحة الامية ومحاربة الجهل فى بداية السنة الدراسية الجارية ، كما شهدت مؤسسات التعليم الاصلى نشاطا كبيرا يتناسب ومسؤلية هـــذه المؤسسات فى نشر الثقافة القومية والوعى الدينى الصحيح ، وحتى تاتى هذه المجهـــودات بثمارها المرجوة منها والتى ينتظرها كل مواطن مخلص لدينه ووطنه وعملا بسياسة المتابعة والاتصال المباشر نظمت الوزارة سلسلة من الجولات حسب المخطط الاتـــى :

١) القطاع الغربى :

قام السيد مدير التعليم الاصلى ونائب مــدير الشؤون الدينية بزيارة لهذا القطاع دامت اسبوعا كاملا اطلعا خلالها على سير عملية محو الامية فى المساجد وعلى الرغم من ان هذه العملية تسير سيرا حسنا الا انهما قدما بعض الملاحظات التى من شانها ان تضمن فاعلية اكبر حتى تاتى هذه الحملة بالنتائج الايجابية المرجوة منها .

كما زارا مؤسسات التعليم الاصلى العامة والتى فى طور البناء فى كل من وهران وسيــدى بلعباس ومستغانم ، ومعسكر ، وتلمســان والاصنام ، وقد عقدت جلسات عمل مع السادة مديرى هذه المؤسسات درست خلالها مختلف اوجه النشاط الادارى والتربوى كما قدمت لهم التوجيهات فى كيفية سير الدروس ونشاط التلامذة حسب الاساليب التربوية الحديثة ، كما ابـرز الدور الهام الملقى على المدير من الجانبين الادارى والتـربـوى ،

القطاع الصحراوى :

وفى هذا النطاق قام السيد مدير التعليـــم الاصلى ونائبه بزيارة ولاية الساورة اتصلا خلالها بالسيد مفتش التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالولاية فى بشار فتدارسا معه الحالة الدينيـــة بالجهة ونشاط الائمة فى حملة محو الامية واوجه النشاط الدينـــى الاخرى ، وقاما بزيارة الـــى مقر الولاية فعقدا خلالها جلسة عمل مع السيدين رئيس الديوان ، ورئيس دائرة ادرار ، كما زارا خلالها ثانويتى التعليم الاصلى بادرار العاملة منها والتى هى فى طريق البناء ، وقد عقدا اجتمـــاعا مع السيد مدير الثانوية استعرضا خلاله مختلف اوجه نشاط هذه الثانوية والصعوبات التـــى تواجهها وتحد من نشاطها ، ووضع الحلول التى يمكن ان تقضى على هذه الصعوبات .

٢) القطاع الشـــرقى :

ولاية القبائل الكبرى : بناء على ما تقـــرر فى الاجتماع الاخير لمفتشى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية من احصاء الزوايا لتى تعلـم وتطويرها وادخال التحسينات على برامجها وعلى سيرها حتى تتماشى مع العصر قام وفد من الوزارة بزيارة ولاية تيزى وزو طاف خلالها على جميع الزوايا التى تضم عددا كبيرا من طلبة القـــرآن الكريم ، وقد لاحظ هذا الوفد كثرة الاقبـــال على هذه الزوايا من مختلف نواحى البلاد لمـــا عرف عنها من تحفيظ كتاب الله الكريم وحلقات الدروس فى العلوم الشرعية واللغوية وممـــا ياسف له ان اغلب هذه الزوايا ما تزال تتبع

الطرق العتيقة في التعليم ولهذا فهي في اشد الحاجة الى تجديدها وبعث الحياة فيها واعطائها حقنــة من الدماء التي تمنعها من مواصلة السير لانهـا المنبع الاول والاصيل لأمدد الحياة الدينية بالاطار الكفء وقد اغتنم الوفد هــذه الفرصة فـزار مؤسسات التعليم الاصلى في هذه الولاية ، كما عقد جلسة عمل مع السيد الوالى ومحافظ الحزب ورئيس مجلس الولايـة نوقشت فيهـا مختلف القضايا التى تهم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى لمنطقـة .

الدورة التدريبيــة الخاصة لمكافحة الامية :

نظرا للاهمية القصوى التى تعقد علــى دور المسجد فى مكافحة الامية فقد نظمت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالتعاون مع المــركز الوطنى لمحو الامية دورة تدريبية خاصة دامت ١٥ يوما لاربعين اماما ينتمون الى ولايات : الجزائر الاصنام ، المدية ، القبائل الكبرى لاطلاعهم على افضل الطرق واحدث الاساليب لتعليم الكبار .

وتعتبر هذه الدورة الثانية بعد الدورة الاولى التى وقعت فى السنة الماضية بوهران كمـا ستتلوها دورة ثالثة فى السنة القادمة بمدينـة قسنطينة .

وقد اشرف على افتتاح هذه الدورة كل مــن السادة مدير التكوين فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى والسيد مدير المكز الوطنى لمكافحـة الامية والسيد نائب مدير الشؤون الدينية ، وقد القى الاخوة الثلاثة كلمات اكدوا فيها علــى دور الامام فى الحملة الوطنية لمحو الامية خاصة وان المسجد موجود فى كل مدينة وكل قرية .

ــ قام السيد مدير الشؤون الدينية ، والسيد المفتش المركزى بالنيابة بتنصيب السيد بلقاسم كحلة ، الاستاذ سابقا بوزارة التعليم الابتدائــى والثانوى ، مفتشا لولاية قسنطينة .

وقد تم هذا التنصيب يوم الاثنين ١٢ شــوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١١/٢٩ م بدار الولاية بمحضر السلطات المحلية ، المدنية منها والعسكرية .

كما جمع السلك الدينى العامل بالولايـــة بمناسبة تقديم المفتش الجديد لهم ، وقد اغتنـم مدير الشؤون الدينية هذه الفرصة فأكد علـى اهمية دورى المسجد والامام فى الاسلام ، والذين تنتظر منهما البلاد انتفاضة ونهضة المسجد كما كان فى الاصل دار عبادة وعلـم فى آن واحـد ، ويصبح الامام لا يؤم الناس فى صلواتهم فحسب بل يقوم بتحفيظ كتاب الله لاولادهم وبتعليـم العلوم الدينية لهم من فقه وحديث واحكام شرعية وذلك بنظام كامل يضمن نجاح هذه الدروس .

الجولة التفتيشية عبــر ولايات قسنطينـة ، عنابة ، سطيف ، وتيزى وزو .

قام السيدان مدير الشؤون الدينية والمفتش المركزى بالنيابة بجولة تفتيشية دامت اسبوعـا من ٩ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١١/٢٩ م الـى ١٦ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١٢/٤ م ، عبــر ولايات قسنطينة ، عنابة ، سطيف وتيزى وزو ، اطلعا خلالها عن كثب على الوضع الدينى العام ، وعن النشاط الذى يقــوم بل كل من السـادة المفتشين والائمة بهذه الولايات .

وقد زارا الاماكن الاتية بصفة خاصة : عزابة قالمة ، عنابة ، سكيكدة ، الميلية ، طاهير ، جيجل خراطة ، سطيف ، برج بوعريريج ، مجـانة ، ثنية النصر ، القصر ، سيدى عيش بجايـة ، تيـزى وزو .

اثناء هذه الجولة عقدت جلسات عمل فى كل مفتشية ودرس فيها نظام سير المفتشية بالذات ونشاطها فى مختلف الميادين **وتركز الاهتمام على النقاط الاتيــة :**

ا ــ اعادة توزيع مرظفى السلك الدينى توزيعا عادلا على جميع مساجد الولاية

ب ــ تطبيق المنشور الوزارى ذى الرقـم :

٨٤/٩١/٧١ الصادر بتاريخ ٣٠ ربيع الثاني ١٣٩١ هـ الموافق ٧١/٦/٢٣ والقاضي بتجديد اعمال موظف السلك الديني (امام ، مؤذن ، قيم) من تحفيظ القرآن للصبيان والقيام بدروس الوعظ والارشاد ، والفقه ، ومحو الامية .

ج ـ مراقبة سير عملية محو الامية .

د ـ متابعة عملية حصر الاوقاف ، ومراقبة حسن استغلالها .

هـ ـ الكناس المهجورة .

د ـ اللجان الدينية التي تشرف على بناء المساجد : تشجيعها ومراقبة حساباتها .

و ـ تجهيز المساجد وتفريشها .

ـ اعانات الوزارة الرمزية لبناء المساجد .

الثقافة ونهاية العام

علاء الدين مكي

اذا كان رمضان المبارك يقترن في كل عام بثبوت رؤية الهلال . فقد امسى الهلال من كل عام علامة بدء ، واستهلال محمود لشهر ثقافي يرتفع فيه نبض الحركة الثقافية ، ويسرى الحماس في جميع انحاء ترابنا الوطني ، وتتحول الليالي من خلاله الى نهارات تضيؤها المآذن البيضاء المنتصبة بجلال قدسي تحاكي اهلتها المضيئة هلال السماء ، وتزينها قباب المساجد . ويعطر اجواءها تلاوة القرآن وتهجد المؤمنين

ان الحديث في الواقع عن النشاط الثقافي خلال الشهرين المنصرمين من العام الفارط ، يدفعنا للتوقف عند هذا الشهر المبارك ، لا باعتباره مدخلا للحديث فحسب ، بل على اساس من اقتناع اكيد بأن النشاط الثقافي يصادف في هذا الشهر ازدهارا وحيوية ملموسين لقد استطاع المسرح الوطني ولاول مرة في تاريخه خلال الشهرين الاخيرين من العام الفارط ، أن يقيم مهرجانا مسرحيا امتاز عن المهرجانات الاخرى بطول نفسه وتنوعه ، وظاهرة الاقبال التي حظيت بها العروض المسرحية . فقد ظلت مقاعد المسرح الوطني تمتلأ كل ليلة بجمهور غفير اثبت بحماسه وتشجيعه ومتابعته للعروض المسرحية بأن ظاهرة الاعراض التي يتحدث عنها البعض ، انما هي دعوى مبالغ فيها . وان الشعب بجميع فئاته يشعر بضماء حقيقي نحو هذا النوع من النشاط الثقافي القادر على طرح اهم واخطر المشاكل الاجتماعية .

ربما يكون صحيحا بأن طبيعة رمضان المبارك ورغبة الصائم في السهر قد ساعدا كثيرا في انجاح هذا المهرجان وغيره من النشاطات الثقافية التي شهدتها البلاد .

لكنه قد بات من المؤكد ان مثل هذا النوع من المهرجانات ، قادر على المدى البعيد ان يبعث ويحيي تقاليد مسرحية وثقافية ، ويكون بالتالي جمهور المسرح الذي به ومن خلاله تتحقق رسالة المسرح الثقافية .

وبعدها لن نفسر الاقبال بأنه مؤقت او انه مقترن بطقوس ثقافية مؤقتة .

وعلى اية حال فان ازدهار الثقافة في شهر رمضان انما يمثل في الواقع صورة مصغرة لمثال كبير نريد بكل قوانا أن نحققه . فنشاطاتنا الثقافية عندما يحتضنها شهر مبارك ، انما

يعنى هذا وعلى مستوى الرمز بأن نزعتنا نحو التجديد ، أو نحو بناء ثقافة معاصرة ، انما تسير وتتقدم بوحى من ثقافتنا الاسلامية العريقة . اذ يبدو شهر رمضان الكريم فى هذه الحالة كما لو كان خلفية فكرية وحضارية تتحرك من أمامها جميع الانشطة الثقافية التى تشكل وجه حياتنا المعاصرة فى هذا الشهر المبارك . قلت بأن

المسرح الوطنى استطاع فى العام الفارط أن يجذب اليه جمهورا جديدا تجاوز فئة المثقفين أو المهتمين بتتبع الحركة المسرحية .

كما نجح المسرح الوطنى أن يقيم مهرجانه الاول على أكتاف الهواة الذين تألقوا هذا العام فى مهرجان مستغانم . ونجح هؤلاء بدورهم وبكل الحماس والطهر والعشق الذى يكنوه للمسرح أن يقدموا رغم كل شىء عروضا مسرحية وقف البعض منها شامخا الى جانب عروض المحترفين سواء فرقة المسرح الوطنى أو الفرق المسرحية الزائرة .

واستطاع الشرق الجزائرى (قسنطينة) رغم أنه لم يفز بالجائزة الاولى ان يقدم خلال ذلك المهرجان عرضين شيقين نالا استحسان جمهور العاصمة .

غير الجائزة الاولى كانت من نصيب فرقة مسرح العمل من مدينة « وهران » عن مسرحيتها المسماة « ارقدتم قاع » أى « رقدتم جميعا » والحقيقة انها لم تكن اعمق ولا أكثر تطورا من المسرحتين اللتين تفوقت عليهما . فالنص محلى كتبه هاوى شاب لم يتجاوز لكنها جمعت من عناصر النجاح ما كفل لها الفوز السابعة والعشرين يدعى « ميسوم سعيد » . والممثلون هواة ما زال اغلبهم فى المدارس . أما القضية التى طرحها فنابعة من صميم مجتمعنا مختصة بفئة اليافعين المرفوضين من المدارس، مصورة المخاطر التى يمكن أن ينزلق اليها هؤلاء الشباب .

وعلى العموم فقد أتيح لاكثر من ثمان فرق هاوية بما فيهم الفرق الثلاثة الاولى ان تصل الى خشبة المسرح الوطنى بالعاصمة وتقدم عروضها الى جانب الفرق المحترفة المحلية والزائرة .

أما بالنسبة للفرق المسرحية المحترفة فقد قدمت الفرقة القومية الليبية مسرحية « دوائر الرفض والسقوط » التى كتبها الشاب « عبد الكريم الدناع » وقامت فرقة المسرح البلدى لمدينة الدار البيضاء — المغرب بتقديم المقامات فى مسرحية سمتها « مقامات بديع الزمان الهمذانى » وكانت فى الحقيقة من أبرز واخطر الاعمال المسرحية التى قدمتها الفرق المحترفة فى هذا المهرجان . كما شهد المسرح الوطنى خلال هذا المهرجان مسرحيتين مترجمتين قدمتهما فرقة بلدية تونس . الاولى للشاعر الاسبانى غارسيا لوركا ، والثانية مقتبسة عن

مسرحية للكاتب الانجليزى (الغاضب) جــون اوزبون .

* * *

والواقع ان الشهرين الاخيرين من هذا العام شهدا بالاضافة الى المهرجان الـوطنى الاول للمسر ح، اسبوعا ثقافيا ربما هو الاول مــن نوعه ، اذ اقيم فى مطلع شهر ديسمبر من العام الفارط اسبوع ثقافى احيته فى بلادنا البلـــد الشقيق **تونس** فشهدت الجزائر اوجها متعددة من نشاطات ثقافية اشتملت على معـــارض للرسوم الزيتيــة والصــور الفوتغرافيــة . ومحاضرات والوان متنوعة من الغناء والموسيقى والباليه الوطنى . فأقيم فى مكتبة العربى بــن مهيدى والجامعة معرضين للكتاب التونسى كما حل بالجزائر نفر من الادباء ورجــال الفكــر التونسى . وقدم الاستاذ **الطاهــر بن قيقــة** محاضرة « حول القصة والاقصوصة فى الادب العربى المعاصر » تناول من خلالــها بالتعريف جيلين من الكتاب ، جيل الشبان وجيل ما بعد الاربعين ، واهم المواضيع التى تطرقوا اليها فى انتاجهم . هذا فى الوقت الذى قدمت فيه فرقة الكاف المسرحية على خشبة المســرح الوطنى مسرحيتين الاولى بعنوان « حوكى وحرايرى » والتى اقتبسها المخرج منصف السويسى عــن الكاتب الايطالى « كورناى » .

وكانت المسرحية الثانية للكاتــب الفرنسى الطلائعى « جان جينيه » حيث اخرج له الشاب التونسى « عبد الرزاق الزعزاع » مسرحيتــه المشهورة « الخادمات » .

النشاط الثقافى فى العالم العربى .

والواقع ان شهر ديسمبر من العام الفارط كان حافلا بالنشـاط الادبى ، ليس على مستوى الجزائر فقط ، بل وعلى مستوى البلدان العربية الشقيقة التى شهدت بدورها نشاطا ثقافيـــا ملحوظا . فقد انعقد فى الاسبوع الثانى من شهر ديسمبر « مؤتمر الادباء العرب الثامن » الذى انعقد فى « دمشق » تحت شعار « الاديــب العربى بعد معركة المصير » . وقد انتهى هذا المؤتمر بجملة من التوصيات الهامــة يتعلــق بعضها بحرية التعرف على الفكــر العــالى ، واشراك الجماهير فى تقييــم ادب المعركــة المصيرية مع الالتزام بخط الثــورة العربيــة . وتناول بعضها الاخــر قضيــة محــو الامية والتعجيل ببحثها . كما طالــب المؤتمــر فى توصياته بسن تشريعات تمكن الاديب العربى من التفرغ ، وايضا طالب المؤتمر بالاهتمـــام ببرامج الاذاعة وتقديم جميع التسهيلات التى تكفل لادب الارض المحتلة الوصول الى سائر انحاء الوطن العربى . وقد شاركت الجزائر فى هذا المؤتمر فمثلها فيه كل من الدكتور صالــح الخرفى والدكتور حنفى بن عيسى والدكتور ابو القاسم سعد الله الذى تراس الوفد والقى هناك كلمة حول موضوع الامية حيث اوضح جانبا من التناقضات التى تعيشها كثيرا من الدول العربية فانتقد تلك الاقلية التى تستأثر بثروة الجماهير وتسخرها لاغراض لا تمت بصلة الى حاجات المجتمع الحقيقية .

كما انعقد فى العاشر من شهر ديسمبر ١٩٧١ فى (العراق) مهرجان للشاعر العربى المعروف « ابى تمام الطائى » حيث التقى فيه لفيف مــن ابرز الشعراء المعاصرين العــرب ، والقيــت خلاله قصائد من الشعر العمودى والحر .

والواقع ان تكريم « أبى تمام » انما هو مسح وتجديد للجوانب الناصعة والمشرقة فى تراثنا وادبنا العربى ، وتكريم لشاعر عملاق اتفق معظم النقاد على أنه من أوائل الذين عملوا على تجديد روح الشعر شكلا ومضمونا . وقد توفى ابو تمام فى مدينة **الموصل** — حيث انعقد المهرجان — وأقيم له فيها ضريح زاره « ابن خلكان » وكتب عنه .

* * *

اما فى **مصر** فقد افتتح فى منتصف شهر ديسمبر بمدينة **الاسكندرية** « المؤتمر الاقليمى العربى الثانى لمحو الامية فى الدول العربية . » وقد شارك فيه ممثلون عن ثلاثة عشر دولة عربية كما اشترك فيه ممثلون عن اليونسكو والاتحاد العام لنقابات العمال ومنظمة تحرير فلسطين . وانتهى فى ٢٠ ديسمبر ، واجمع فيه كل المتحدثون وبما فيهم ممثل **الجزائر** على ان الامية خطر يعيق ويشل تقدم الدول العربية ، ولذا فلا بد من العمل الجاد للحد من انتشارها والعمل على اختفائها من المجتمع العربى .

* * *

هذا بالاضافة الى انعقاد مؤتمر آخر فى مدينة القاهرة هو مؤتمر « الاصالة والتجديد فى الثقافة العربية المعاصرة » والذى افتتح فى الرابع من شهر اكتوبر الماضى واتخذ من المركز الرئيسى للجامعة العربية مقرا له .

ومثل الجزائر فيه الاخ عبد القادر قريصات. ويهدف هذا المؤتمر الى الكشف عن تلك العناصر الباقية فى الثقافة العربية التى يحس العربى خلالها أنه ينتمى الى امة لها شخصيتها وروحها المتميزين ، وأن هناك صلات فكرية ووجدانية تربطه بتاريخ الثقافة العربية ، كما يهدف هذا المؤتمر الى توضيح ودرس التقاء الحضارة المعاصرة بتلك الاصول . وما ينجم عن ذلك من تفاعل وما خلفه ذلك اللقاء من آثار على مسيرة الحياة الادبية والثقافية شكلا ومضمونا وتعبيرا .

* * *

صدر حديثا

ولم تكن دور الطباعة والنشر باقل نشاطا فى المؤتمرات والمهرجانات الادبية ، فقد صدرت جملة من الكتب الهامة .

فقد صدر حديثا المجلد الثانى من كتاب « التاريخ العام لافريقيا السوداء » واعتبره النقاد أحسن تاريخ للقارة السوداء .

كما اصدرت الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر كتاب « تاريخ البشرية » وهو كتاب يؤرخ للتطور العلمى والثقافى فى العالم .

وصدر عن نفس الدار كتاب هام فى « الشعر الجاهلى » والذى يعد محاولة جديدة لدراسة الشعر الجاهلى . الفه د . سيد حينفى حسنين .

وفى بيروت صدر حديثا « قصائد ليست محددة الاقامة » وهو أحدث ديوان لشاعر المقاومة « سالم جبران » .

وصدر فى القاهرة الجزء الاول من كتاب « فلسطين اليكم الحقيقة » الفه الصحفى البريطانى ج.م.ن حفريز وترجمه الى العربية احمد خليل الحاج ويعد هذا الكتاب وثيقة نادرة كتبها احد الصحفيين البريطانيين ، اتاح له عمله ان يحصل على الادلة الدامغة لابشع جريمة ارتكبت فى العصر الحديث .

مع التيارات الفكرية العالمية

قراءات فى المجلات الفرنسية

اعداد : بقطاش مرزاق

مشكلة « عزوبة قساوسة الكنيسة اللاتينية » من اخطر القضايا التى طرحت على بساط البحث فى المجتمع الكاثوليكى الثالث بحاضرة الفاتيكان . وقد صدر فيها الحكم الصريح : « الابقاء على حالة العزوبة » .

وقد اثارت هذه القضية بين رجال الدين عددا من التساؤلات التى بلغت حد النقد للوضع الكنيسى اللاتينى .

اما الزوبعة التى اقضت مضجع الفاتيكان فهى حديث القسيس جان كلود بارو الى صحيفة الاكسبريس الذى اعلن فيه بانه قرر الزواج وبان عزوبة القساوسة بالرغم من كونها مشكلة ثانوية الا انها تكشف عن الازمة التى تعانيها الكنيسة اليوم .

والقسيس بارو يناهز الثامنة والثلاثين ، وهو مدير هيئة التعميد فى ابرشية باريس ومؤلف عدة كتب حول الايمان ، والشر ، والله . وقد استهل حديثه بشرح سبب تحوله الى الدين وهو الشخص الذى نشأ فى وسط بورجوازى تحررى لا يمت الى الدين بصلة .

« كنت من الشبان الذين أغرتهم السياسة واقوال غى موليه وكان من آثار ذلك اننى وجدت نفسى ضابطا فى الجزائر ما يتجاوز السنتين . اما تحولى الى الدين فقد جاء وليد لقاء مع استاذ لى فى التاريخ والجغرافية : كان هو الاخر يبحث عن نفسه وقد صار فيما بعد ارثوذكسيا تحت تأثير اللاهوتيين الروس الذين التقى بهم . وقد خضت معه مختلف الحديث مما حفزنى على البحث الشخصى فضلا عن اننى كنت اشعر باستمرار بأن العالم اشد تعقيدا وغرابة من الوسط الوضعى الذى كان يحوطنى آنذاك . ناهيك بمآسى الحرب التى جعلتنى أعرف كنه الشر . وقد ادركت حينئذ أن الانسان الطيب قد يتحول الى شرير . ان جذور الشر فى رايى هى الاحتقار . فبمجرد ما تشعر بأن الاخر من صنف مختلف عنك يصير كل شىء ممكنا .

وانى اعتقد ان تجربة الشر التى عرفتها فى حرب الجزائر وفى بؤس البروليتاريا قد طبعت تفكيرى كله » .

الاكسبريس : هل تعتقدون أن مشكلة الشر هى التى حفزتكم على الايمان ؟

جان كلود بارو : ليست مشكلة الشر وحدها . فهناك ايضا جانب ايجابى فى تحولى الى الدين . هو اكتشاف وجه المسيح فى الناصرة . والاهتمام الذى ابداه المسيح بمشكلتى الشر والعذاب

فضلا عن اعجابى بشخصيته الجذابة .

ثم ينتقل القسيس بارو الى مسألة التعارض بين الايمان والدين فيقول : ان الانسان ، ملحدا كان ام لا ذو ابعاد مختلفة، فهو يتضمن بعدا سياسيا وبعدا جنسيا وبعدا دينيا ، والدين ليست له بالضرورة علاقة بالله . الدين هو ما يسمح للانسان بأن يتعمق العالم ويرتبط بالكون ، وهكذا ليست له علاقة بالله ، فنحن لا نستطيع ان نحرم الانسان من بعده الدينى ونبقى فى نفس الوقت على بعديه السياسى والجنسى . الدين امر مشترك مثل السياسة او الجنس . وهو قد يؤدى الى الشر أو الى الخير . اما الايمان فهو شىء آخر طبعا . انه الثقة فى شخص ما ، فى شخصية انسانية ، فبمجرد ما يثق الانسان بشخص آخر على التمام يعتبر مؤمنا ويدخل دنيا الايمان لانه يتجاوز التجربة . ان الايمان بالله أو الايمان بشخص مسألة واحدة .

الاكسبريس : لقد مارستم وظيفتكم فى عدة احياء باريسية وتعرفتم خلال ذلك على المرأة التى سوف تبنون بها فكيف حدث ذلك ؟

جان كلود بارو : لقد بدأت العلاقة بيننا على شكل صداقة كبيرة ثم تطورت الامور .

الاكسبريس : وهل تسبب ذلك فى مشاكل لها ؟

جان كلود بارو : انها مسيحية ولكنها متحررة جدا . اما بالنسبة لى فاننى قلت لنفسى بعد تفكير طويل انه لا يوجد سبب قاهر يجعلنى ارفض معيشة الحياة الزوجية ، وانه لا يمكننى أن استمر فى قبول قانون العزوبة وهكذا طلبت من روما الاذن لى بالزواج .

الاكسبريس : لقد كنتم تعلمون ان ذلك غير ممكن ؟

جان كلود بارو : ان القساوسة ليسوا رهبانا وواجب البقاء على البقاء على العزوبة لا يهم الا رجال الاكليروس . والكنيسة الغربية لم تبدأ بفرض العزوبة على القساوسة ورجال الاكليروس الا منذ قرون قلائل . ذلك لان الامر ها هنا لا يتعدى كونه مسألة طاعة . أو بتعبير آخر هو عقد بين الكنيسة والقسيس . واننى لست أقوى اليوم على الاضطلاع بواجبات هذا العقد ولذلك طلبت من روما أن تحررنى منه .

اما الاهم فى كل ما سبق فهو ان مشكل عزوبة القساوسة هى فى صلب ازمة الكنيسة اليوم . وهذه الازمة لا علاقة لها بالتنظيم بل هى أزمة ايمان . والسؤال الرئيسى الذى يجب ان يطرح اليوم هو هل المسيحيون أسعد حالا من الاخرين ؟ .

لقد كان المسيحيون الاوائل يقولون أن المسيحية نبأ سار — بالمعنى الصحفى للكلمة — وعلينا اليوم أن نعود الى مثل ذلك المفهوم لاننا نسيناه . وذلك ما ينقص الكنيسة اليوم فهى لا تعلن عن النبأ السار بل تقدم النصائح الطيبة وهو أمر ليس من اختصاصها .

الاكسبريس : ولكن الناس فى حاجة الى اجوبة اخلاقية فمن يعطيهم اياها ؟

جان كلود بارو : اننى لا اقول بأنه لا ينبغى تقديم النصائح الطيبة بل على العكس ينبغى تقديمها وتقديم الاجوبة السياسية ايضا . ولكن الكنيسة ليست هى التى تضطلع بذلك بل على الناس ان يقوموا بذلك . يجب على كل مجموعة انسانية وكل فرد اكتشاف ما يتعين عليه أن يقوم به تبعا للنبأ الذى سمعه . وباختصار فان اكبر ازمة فى مسيحية اليوم هى انه لم يبق لها ما تقوله للناس ، وليس من شأنها ان تقدم نصائح طيبة لم تسأل عنها .

الاكسبريس : وهل تعتقدون أن أزمة الكنيسة هذه تفسر ارادة القساوسة فى ان يكتشفوا من جديد جانبا عفويا فى الوجود الانسانى ؟ وان يتزوجوا ايضا ؟

جان كلود بارو : ان ذلك يفضى الى الحديث عن مشكلة عزوبة القساوسة التى هى فى واقع الامر مشكلة صغيرة وثانوية . ولقد اعلنت عن ذلك مرارا وعشت حياة العزوبة طوال عشر سنوات بكل اخلاص . الا ان هذه المشكلة الثانوية تبدو لى بالرغم من ذلك ذات معنى كبير . وذلك لسببين نفسانيين : فأهم بعدين فى الانسان هما البعد الدينى والبعد الجنسى . وزواج القساوسة يتراوح بينهما . ومشكلة العزوبة تحث على اعادة النظر فى هيئة الاكليروس التى لم تكن موجودة فى الكنيسة القديمة .

الاكسبريس : وكيف صارت العزوبة قانونا معمولا به ؟

جان كلود بارو : حدث فى العصور الوسطى أن الناس المثقفين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا من الرهبان . ودفعت الضرورة الى اختيار رجال الكهنوت وخاصة الاساقفة من بين هؤلاء الرهبان . من هنا نشأت فكرة عزوبة القساوسة . ولكن

اذا كانت الكنائس قد نصحت بأخذ هذه الفكرة فانها لم تعرف ميدان التطبيق الا ابتداء من القرن السابع عشر . وفضلا عن ذلك فان واجب العزوبة لم يؤخذ به الا فى الكنيسة اللاتينية أما فى الكنائس الشرقية فانه لم يطبق ابدا بل وحتى فى الكنائس الشرقية الكاثوليكية .

الاكسبريس : هل ترون أن نمط الحياة الحديث يزيد من صعوبة بقاء القساوسة على حالة العزوبة ؟

جان كلود بارو : طبعا ان اغلبية القساوسة قبلوا قانون العزوبة عن سبيل الطاعة . فقبل عشرين سنة كانت ممارسة الحياة مسألة يسيرة نسبيا . فالراهب كان فى هيئة تحميه . أما اليوم فانه لا يوجد مثل تلك الظروف فكيف نحمى أنفسنا ؟ انهم يطلبون منا بأن نقوم بأدوار بطولية . وهكذا ترون أن قانون العزوبة الذى يفرض على القساوسة لم يعد محتملا . ان البطولة واجب على كل مسيحى ولكننى أعتقد ان قانونا ما لا يمكن مطلقا أن يقوم على البطولة . والفاتيكان يعلم ذلك ولكنه يتجاوزه ولا يخضع له.

الاكسبريس : اذا كنتم تطرحون مشكلة زواج القساوسة فعليكم ايضا أن تطرحوا مشكلة الطلاق ؟

جان كلود بارو : اننى لا ارى الزواج تقديسا . فمشكلتى تتلخص فى اننى احب امراة واريد ان اعيش معها وانجب اطفالا . ونظام الزواج نسبى مثل الانظمة الاخرى كلها . والمسيح نفسه يرى هذا الراى فهو لم ينشر تشريعا حول لا انفساخية الزواج . وهناك اشياء اخرى اهم من الزواج فبامكان الرجل والمراة الفراق . والاطفال انفسهم ليسوا امرا مطلقا بالنسبة للمسيح نفسه . فبالامكان الانسان أن يفارق والديه وابناءه وزوجته من اجل ما هو اهم .

الاكسبريس : وما هو رأى الكنيسة فى هذه المشكلة ؟

جان كلود بارو : اذا كان فشل الحياة الزوجية ظاهرا فاننى لا ارى لماذا لا تقوم الكنيسة بفسخها . فلديها السلطة على ذلك . **ثم ان القانون وضع للانسان ولم يوضع الانسان للقانون** . ان التعهد بالحياة الزوجية مسالة جدية ، وعلينا أن نقوم بذلك بعد معرفة دقيقة اى بعد علاقة طويلة يمكن ان تبلغ حد العلاقة الجنسية . **اننى باختصار لا اكافح من اجل الزواج بل اصارع حتى يستطيع القساوسة ان يكونوا رجالا مثل الاخرين وان يكونوا فى الوقت نفسه خدمة للكنيسة .**

واننى أحب البابا واخضع له ولكننى اقول بأنه يخطىء . وانه يفضل قانونا عرضيا يؤكد هو نفسه بأنه عرضى . والبابا ليست له كلمات الحياة الخالدة . كفانا من هذه المشكلة اذن ولندع القساوسة يتزوجون وننتقل الى البحث فى مشكلات جدية .

هنرى لبوريت : علم الحيـاة نقطة التقاء العلـوم

تبدو اليوم ضرورة احتكاك العلوم الانسانية بالعلوم المختلفة ذلك لانها تتطلب فى بعض الاحيان معلومات طبيعية ورياضية معمقة ويتعين على العالم الاجتماعى مثلا أن يكون فى الوقت ذاته عالما بالاقتصاد ، وان يكون العالم النفسانى عالم حياة وكاتبا فى آن معا .

ويبدو أن هناك طريقتين للبحث ترتسمان فى ميدان الاحتكاك بين العلوم . الاولى حدسية فلسفية تهتم بالمصير الانسانى ولكنها لا تتعامل مع العلوم الا عن طريق القياس وتأمل ان يتحقق ذلك بواسطة التجربة . وطريقة البحث هذه من اختصاص علماء السلالات البشرية (المختصين فى عقد المقارنات بين أوجه السلوك الانسانى والحيوانى) مثل كونراد لورنز ، وفلاسفة العلوم مثل روبرت أردى . أما طريقة البحث الثانية فتكاد تكون معاكسة للاولى فهى اكثر علمية واشد تواضعا اذ انها تمتنع عن الافاضة فى التنبؤات ، بل تتناول مواضيع البحث على شكل مستويات تنظيمية . ولعل تعبير / مستويات التنظيم / هو ما يبين لنا بكل وضوح آراء الاستاذ هنرى لابوريت وافكاره .

فقد شغل هذا العالم منصب طبيب عسكرى خلال الحرب العالمية الثانية واكتشف سنة ١٩٥١ مادة كلور برومازين التى

كانت أول مهدىء يستخدم فى الطب العقلى . وقام عام ١٩٦٩ تحت الحاح طلبته بانشاء هيئة / علم الحياة والتمدن / التى مكنته من وضع كتابه الاخير / الانسان والمدينة / . وفيما يلى الحديث الذى أدلى به الى مجلة الانباء الادبية .

هل تكون تجربتكم كطبيب عسكرى هى التى ادت بكم الى اكتشاف المهدئات ؟

— ليس ذلك ما حدث على وجه التحديد . فقد كنت اهتم ببحث الصدمات التى تحدث من جراء العمليات الجراحية ،وكانت هذه الصدمات تعتبر فيما مضى نفادا لوسائل الدفاع فى الجسم . ثم اننى ادركت انه بقدر ما نزيد من تقوية وسائل الدفاع فى الجسم بالكافيين والكافور والمخدرات الاخرى بقدر ما ترتفع نسبة الاموات بين المرضى . ووسائل الدفاع هذه حين تقويتها تخدم الحيوانات العليا ولا شك وقد كان الانسان البدائى يستخدمها للاعتداء او للهروب ولكنها بقيت عاجزة تجاه اعتداء العملية الجراحية . وبما اننا لا نستطيع ان نهرب من الجراح او نقاومه، فانه من العبث أن نحرم من الدورة الدموية بعض الاعضاء التى لا تستخدم لا فى المقاومة ولا فى الفرار ، ذلك لانه قد تحدث بعض الرضوض الخطيرة. ولقد اكتشفت المهدئات الاولى بغية الحجر على عمليات الدفاع هذه بدلا من حفزها .

— كيف انتقلتم من هذا البحث الطبى الصرف الى نشاط يشمل عدة علوم ؟ وهل كان تفكيركم فى تمييز التفاعلات لدى الحيوان الاعلى هو الذى ادى بكم الى اهتماماتكم الحالية ؟

— لقد كنت أول من اقترح استخدام المهدئات فى ميدان الطب العقلى . فقد بدا لى ان المرض النفسى هو رد فعل غير منتظم تجاه اعتداء اجتماعى ما وانه مشابه لردود الفعل التى تلاحظها فى الجسم الانسانى أمام اعتداءات العملية الجراحية . ولقد وجدت نفسى فى البحث البيولوجى انتقل من مستوى تنظيم الى مستوى آخر ، فقبل عشرين سنة لم تكن التركيبات الكيمائية الحيوية معروفة . وقد تناول كتابى الاول موضوع الجهاز العصبى النباتى. وعندما اكتشفت عن طريق البيولوجيا بأن هذا الجهاز ليس نظاما للشبكات الكهربية وادركت انه يفرز عناصر كيمائية اضطررت الى أن ابحث فى الكيمياء وعلم الصيدلة والكيمياء الحيوية وعلم الحياة العام . وفضلا عن ذلك فقد انتقلت من البحث فى تنظيم الجهازين العصبى والدموى الى البحث فى الخلايا ومنها الى علم الطبيعة وكيمياء الجزيئات. ذلك لانى لم اكن لاستطيع فهم وظيفة عضو ما بدراسته من زاوية واحدة بل كان على ان احصل على خلاصة مستمرة فى شتى العلوم .

— ان علم الحياة يميل اليوم نحو علوم الطبيعة ، وكنتم فى السابق قد جعلتموه يميل اكثر فاكثر نحو العلوم الانسانية . فكيف تشرحون ذلك ؟

— ان الجهاز الانسانى كل مكتمل . وليس من المغالاة فى شىء ان ننظر الى النظام الاجتماعى بنفس المفاهيم التى ننظر بها الى الجهاز الفردى . ولكن علينا أن نميز مستويات للتنظيم وذلك انطلاقا من الجزىء الى السلوك الانسانى بأكمله .

أنكم تعرفون تلك الدمى الروسية ذات الشكل الواحد والاحجام المختلفة . ان الواحدة منها تتركب فى الاخرى بانتظامها فى الخاصرة . واظن ان عالم الحياة جاكوب هو اول من بين اوجه الشبه بينها وبين الجهاز الانسانى بيد أن الصورة ليست صحيحة تماما . ذلك لان عملية التراكب هذه لا تكفى لتحقيق الارتباط . فكل مستوى يجب أن يخضع للمستوى الذى سبقه . وهذه ولا شك اجهزة ذات تنظيم داخلى تحقق مبدئيا نفسها بنفسها . ولعل الكابت الحرارى أن يكون أصدق دليل على ذلك . فهو حمام تقوم فيه الطاقة الكهربية بالابقاء على درجة معينة من الحرارة بواسطة جهاز للتفاعل . ولو أن الجهاز الانسانى كان على شكل كابت حرارى لما حدث تطور او تكيف على الاطلاق .

ينبغى اذن على الكابت الحى أن يخضع لاوامر خارجية تطلعه على درجة الحرارة التى يتعين الابقاء عليها . فالمنظم الداخلى لا يكفى بل ينبغى على مستوى التنظيم الاعلى أن يزوده بالمعلومات . ونظام الخلية على سبيل المثال لا يمكن شرحه دون الاطلاع على القيادة الخارجية للانظمة الاخرى . وهكذا فعندما نتوصل الى معرفة شاملة بالجهاز الحى يصعب علينا ان نتوقف عن البحث بل انه من المغرى ان نبحث فى مسألة ما اذا كانت الانظمة الجديدة المكتشفة تطبق ايضا على المجموعات الاجتماعية والنوع الانسانى باكمله . ان معرفتنا بكل خصائص جزىء الكلور وجزىء الهيدروجين لا يجب أن تجعلنا ننصرف عن دراسة حامض الكلوردريك . وان الذين يجهلون كل شىء عن الكلور والهيدروجين لا اهلية لهم للتحدث عن حامض الكلوردريك . وكذلك فانه ينبغى لعالم الاجتماع ان يكتسب معارف فى علم الحياة حتى يستطيع ممارسة عمله .

— لعل النزوح الى الاعتداء هو ابرز خاصية اجتماعية يضطلع علم الحياة بدراستها . ولقد تحدثتم كثيرا عن شرح هذه الظاهرة العمرانية وخاصة فى كتابكم الاخير ...

— ان الاعتداء الانسانى مسألة خاصة . فبواسطته أمكن لنا فيما مضى أن نناضل ضد

طبيعة العصر الحجرى القديم ، ثم انه فقد خاصيته البدائية ابتداء من العصر الحجرى الجديد . وقد ولد مفهوم الملكية بمجرد ان عزف الانسان عن ممارسة الصيد الذى يقوم بأوده ، واستقر فى ارض ما واشتغل بتربية الحيوانات وجمع الغلال . ومفهوم الملكية هذا يعنى أن الانسان عندما حقق ضمانا غذائنا حول اعتداءه نحو اخيه الانسان . وكان قد ورث هذا الاعتداء من طبيعة مخه الذى تعود على المكر والحيلة .

ومن البديهى أن المدينة اداة مثالية لسيطرة الانسان على اخيه الانسان ، فالاعلام يأخذ فيها اتجاها واحدا والثياب والانماط الثقافية تتخذ هى الاخرى شكلا موحدا . والنشاط الانسانى الخلاق فى ميادين الفن والعلم والتقنية يتحول الى نشاط لتحضير السلع . نعم اننى أعترف بالعوامل الاقتصادية التى تؤدى الى نشوء المدن والحواضر ، بيد أن الامر ها هنا مماثل لظاهرات السيطرة الاخرى ، فنحن نعثر فى هذا الاطار على نفس المخ البدائى الماكر العجوز . وفى الوقت الذى تقدمت فيه علوم الطبيعة بشكل يثير الاعجاب بقينا نحبو فى ميدان معرفتنا بالانسان .

ان العلم الذى لا ضمير ولا وازع له هو خراب للروح دون شك ولكن العلم الذى لا وعى له بالعقل الباطن هو خراب للانسان ان النوع الانسانى مهدد بالانقراض اذا ما أبقينا على غريزة السيطرة أو لم نلبسها شكلا آخر لا يمت بصلة الى حب التملك .

— ولكن كيف يمكن لغريزة السيطرة ان تندثر ؟ انك نفسك تمارس هذه السيطرة على السيطرة على طلابك فى جامعة فانسان ؟

— اننى اشعر على العموم بنوع من الضيق عندما اجد نفسى فى قاعة الدرس . اننى اسمع الى العروض والابحاث كسائر الطلبة الاخرين واتفادى القيام بدور المسيطر بينهم. واننى اذكر لكم ها هنا تجربة العالم دلغادو على مجموعة من الشمبانزى . فقد لاحظ ان السيطرة منها هى التى توجد اثنابها فى حالة اهتياج ، وقد استطاع دلغادو بواسطة قضيب حديدى استخدمه عن بعد أن يغير كيفما شاء من نظامها الجماعى .

بيد ان قرود الشمبانزى تعلمت طريقة استخدام هذا القضيب واستطاعت ان تستعمله لابعاد رئيسها كلما صار مزاحما مقلقا . فلنطبق مثل ذلك على بنى الانسان .

(من اجل عالمية ثقافية)

ذلكم هو عنوان المحاضرة التى القاها الشاعر الاكاديمى الفرنسى بيير ايمانويل فى مؤتمر ادبى انعقد اخيرا بمدينة دبلن الارلندية . وقد حاول الشاعر فى هذه المحاضرة تقييم الانسان والثقافة تجاه اخطار التقدم التقنى فى العالم الغربى .

ان التغيرات التى شهدها الربع الاخير من هذا القرن قد قلبت مجموع الموازين الانسانية راسا على عقب . فالتقدم ، اذ زود الانسان بامكانيات التأثير على العالم وعلى نفسه بطريقة تتجاوز قدرة العدد الكبير على الفهم وتضع فترة ما قبل الحرب فى مرحلة ما قبل تاريخ التكنولوجيا ، فانه قد أحدث بالمقابل تحويرات لم تكن متوقعة فى التوازن بين الانسان ومحيطه وبين الانسان وروحه . وان التضخم الديموغرافى، والازدحام، والتلوث ، وتبذير الثروات الطبيعية ، ان هى فى واقع الامر الا الدية المباشرة التى دفعتها الانسانية لتغطية الانتاج والاستهلاك المتزايدين اللذين لم يكن لهما من قانون آخر فى البلاد الثرية سوى الاطراد الى ما لا نهاية ، واغراق بلدان العالم الثالث فى الفقر أكثر من ذى قبل ، هذه البلدان التى انتقل الكثير منها فى ظرف سنوات معدودات من أوضاع اجتماعية عتيقة مستقرة الى مرحلة الاكتشاف المفاجىء لتقنيات الاستثمار العالمى التى تهددها اليوم بدفع ما قد يترتب عنها .

وكان ان انهمكت وسائل الاعلام اكثر مما مضى فى نشر وعى شامل متنطرس وقلق فى آن واحد ، وانطلقت تمجد تطلعاته وانتصاراته وتردد فى ذات الوقت تناقضاته وثوراته فى أرجاء الدنيا . وتسببت ازمة التقدم الشاملة التى احس بها الجميع، كل فى نطاقه المحلى ، فى ظهور مفاهيم جديدة قد تؤدى الى انفصام الاواصر بين بنى الانسان او الى التضامن فيما بينهم . ولو عدنا الى وسائل الاعلام هذه لقلنا أن توسيعها وانتشارها سوف يطرح مشاكل لانواع الحملات الدعائية المختلفة وانظمة المراقبة كلها ، ذلك لان تطور شبكة الاقمار الصناعية أو خطوط التلفزة التى تلف كوكبنا بنسيجها العصبى سوف تجعله يتأرجح بين التذبذب والتجانس، وبذلك يصعب على المرء التخمين حول أثر هذا الوضع على كل فرد . هل تراه سيكون وعيا شاملا أو رعبا تاما ؟ . ولعل تلك الجماعية الموجهة التى تستطيع التقنية أن تحدثها وتحورها على هواها هى اشد ما يلفت الانتباه فى الوقت الحالى عندما نتأمل تصرفات الجماهير، فالكل يعلم أن الدعاية قد صارت هى الاخرى علما تطبيقيا مثل الاشهار تماما . وفى امكاننا ان نقول مثل هذا القول عن نظام العقوبات التى تطبق اليوم على الناس المتهمين باعمال الفكر . واننى لا اعنى هاهنا سوى فكرة التبع المجردة ولست اقصد

تطبيقها المحدد ذلك لان جريمة امتلاك رأى ما هى ذات جوهر متغير تبعا للانظمة ، بل انها تتغير فى النظام الواحد بين الحين والاخر ، ناهيك بالتطور الهائل لوسائل التعذيب التى سجل فيها الانسان اكبر انجازاته بتعبئة الطب العقلى هذا الانسان الذى لا يريد الا ان يحطم نفسه بنفسه. وليس لى من غاية وراء هذا الحديث سوى ان احذركم من دور الشرطى الذى سوف تلعبه السبرنطيقا فى المستقبل .فشرطة مزودة بعقول آلية هى نظام تكاد تكون مناهجه ونتائجه معصومة من الخطأ .

لم هذا العرض المتشائم عن التقدم يا ترى ؟ ان كل انسان يستطيع أن يضيف ما يحلو له قائمة التشاؤم هذه . ولكننا نحن لا نصدر ابدا عن حقد تجاه العلم مثلما يروق ذلك لبعض المتأدبين ، بل عن رغبة فى القاء الاضواء على وضعيتنا نحن الذين نشتغل بالادب والثقافة . ان هـ.ج . ولز والدوس هكسلى لم يكونا متهمين بعدائهما للعلم ، وفرانز كافكا وجورج اورول لم يوصما بالرجعية بل على العكس استطاع هؤلاء الاربعة ان يأتوا بتنبؤات مدهشة عن مستقبل الانسانية . واذا كان الاديب المثقف قد استطاع فى الزمن الماضى أن يضطلع عن ايمان راسخ بدور الناقد للقيم الحضارية وأن يبشر بالتطلعات الانسانية البعيدة ، فانما حدث ذلك لان البشرية كانت تسمع صوته ولانه كان يوقظ فى النفوس مشاعر واحدث اصداء يختلط فيها الجدل بالموافقة وهو الامر الذى كان يعزز من قيمته . أما اليوم فان الارض تعير اذنا صماء للمتأدبين ولا تكاد اصواتهم تتجاوز نطاق الجماعة الضئيلة التى يتألفون منها . ان الادب بتعبير آخر لم يعد المحيط الذى تنشأ الافكار فيه وتتبلور ، بل هو نتاج للاستهلاك يشبه اى انتاج آخر،واهميته تقاس فى الاسواق. ومصداق القول فيما سبق هو أن البلاد التى يسجن فيها الادباء وينفون من اجل فكرة تعتبر خطيرة بدعوى انها قد تؤدى الى نشوء وضع فكرى جديد — ان هذه البلاد — ربما كانت تحترم الفكر اكثر من البلاد التى يولد فيها الفكر فى اطار اللا مبالاة العامة . فالانسان فى بلادنا التى تزعم بانها تحررية قد اضطرب عقله نتيجة لطائفة من الخرافات المستفيضة خرافة التقنية القادرة على كل شىء وخرافة العلم الذى لا يعرف الانسان من ورائه شيئا عن نفسه

وخرافة سمو النظريات الاجتماعية على حكمة الماضى وروحانيته الخ . والغرض من هذه الخرافات كلها هو النمو المطرد للاقتصاد والاستخفاف بالكائن البشرى . وهذا الاقتصاد تخضع فيه معايير النشر لنفس معايير الصناعات الاخرى ، وهو يحط بذلك من المكانة التى يحتلها الادب ويعلى من مكانته الاعلامية الرخيصة التى تعكس صورة الانسان الحديث ، هذا النرجس السوسيولوجى ، وتجعله يجترع نفسه من جديد . وبما أن دور الكتب تتبع نفس قوانين دور النشر ، وبما ان المجلات والصحف الادبية فى طريقها الى الزوال ، فان الكتب الرائجة التى تملأ جيوب رجال الاشهار وهى التى توجد اليوم على رفوف هذه التجارة التى يلعب فيها الناشرون دور البائعين بالجملة ، وتقوم فيها محلات بيع الكتب بدور الحوانيت .

بيد أن الانتاج الحقيقى فى هذا النظام الكونى الجديد ، اذا ما اخذ فى مجموعه ، انما هو الانسان نفسه حسب ما يضعه رجال التقنية والمكاتب والدعايات والاشهار . انه انسان الانتاج الصناعى المتزايد ، سواء تعلق الامر بالاسلحة الثقيلة ام بالرؤوس الذرية . انه الانسان الذى لم يعد يقوى على التفكير فى نفسه ، وانتزعت منه الارادة والرغبة فى التفكير . انه الانسان الذى يفكر عنه مسؤولوه ويعيدون التفكير فيه طبقا قانون وحسب ارادتهم ونواياهم . اية مكانة يستطيع التفكير الفلسفى او التشوف الشعرى احتلالها فى الحياة المكتلة لهذا الانسان ؟ هل نحن آثار انسان غابر يحاول عصرنا اليوم أن يتقصى ثقافاته وحكمه المختلطة المجتمعة فى المعرض الضخم لبقايا الحضارات والفنون والاديان ؟ ام هل نحن بواكير الانسان العالمى الذى يبدو ان هذه الاثار الرائعة الحية تنبىء عن وحدته وتحث على استكناه سره ومكانته فى الكون ؟ واذا كنا المبشرين بهذه العالمية الحقيقية والشهود عليها ، فما الذى نستطيع فعله — لانه يتعين علينا أن نقوم بشىء — أمام العقبة الكأداء التى نصبتها الانانية المصطنعة أمام هذه العالمية ؟ ان امكانياتنا ليست قوية ولعل ازدحام ادمغتنا بالافكار والنظريات هو ما يحول دون استخلاص البسيط والجوهرى منها ، ولنفترض اننا توصلنا الى ذلك فكيف نعلن عن هذه الافكار لكى تصير شعارا للمعرفة ورمزا للذين يبحثون عن الانسان داخل الانسان ، ويريدون أن يبدعوا الانسان من جديد انطلاقا مما هو عليه الان ؟ . لقد قلت فيما مضى أن الانسان الحديث كونى ولا شىء فى وقت واحد ، وان هناك علاقة وثيقة بين هذين البعدين . وليس هذان البعدان الا الصورة السلبية المرعبة لطبيعته الحقيقية ، هذه الطبيعة العالمية والفردية فى الوقت الواحد . أين هو يا ترى مقياس الانسان بالنسبة لنفسه

ولعالمه ! ان القضاء على الكائن الشخصي في سبيل قياس الواقع الكوني انما هو جريمة جنونية قد ادت الى خسران عدد من الحضارات.وانني لا ازال اعتقد بالرغم من الحضيض المسف الذي آلت اليه الثقافة اليوم ، بأنه لم يبق على الناس الذين اختزنوا الكلمة الانسانية ، هذا القياس المقدس ، الا ان يجابهوا تحديات نظام اصطناعي جائر ارعن لا يكاد يثق في نفسه عكسا لما قد يوحي به جهازه الهائل الذي لا يهدف في حقيقته الا الى مسخ القيم وتشويهها . وانني اعير اهتماما بالغا لوجود ممثلين عن آداب العالم الثالث ضمن منظمتنا هؤلاء الممثلون البعيدون عن هذا الجزء الغربي من العالم حيث ولدت فكرة الجماعية السياسية بمجتمعات ما بعد العهد الصناعي .

وهذا لا يعني انني فقدت الثقة في العمل على تنشيط الضمير الاوربي بل احجمت عن الاعتقاد بالعظمة الروحية للبلدان المتقدمة.

انني اعتقد على العكس بأن تقسيم العالم تبعا لمصالح السلطات الكبرى يتضمن في ذاته تهديدا بالفناء ضد كل ثقافة حرة . بيد أن قوة الضعفاء في مقاومتهم الضرورية ضد الخنق التدريجي ليست جانبا يستهان به . فكائنا ما كانت وضعيتهم التاريخية الحالية ، احرارا كانوا ام مضطهدين ، **فان شكل العالم المقبل يتوقف على الوعي الذي لديهم بأصالتهم الثقافية والجهود التي يبذلونها للحفاظ عليها .** ان للامبراطوريات الكبيرة حدودا، وكثيرا ما تكون هذه الحدود في ذاتها . وهكذا فان اخطار حضارة تقنية موحدة الشكل ليست محسوسة اليوم بصفة تلقائية مثلما كانت عليه قبل عشر سنوات . وان فكرة تنوع الرجال والثقافات قد تحتمل بعض النقد ولكنها لا ترضى الا بنسبة ضئيلة وليس اكثر . فلنطلب اذن من كتاب البلدان التي لم تقطع بعد شوطا بعيدا في التقنية ان يضعوا نصب اعيننا باستمرار بأن **العالمية الثقافية الحقيقية تكمن في تنوع الثقافات ، وان التركيز على التقدم التقني واهمال الجوانب الاخرى يدفع الانسان الى ان يغترب عن نفسه الى ما لا رجعة. انه من الوبال على النوع الانساني أن يحرم من تجربة التمعن في ذاته ، هذه التجربة التي تمنحها كل ثقافة كبيرة ، والتي يظن الفضوليون العابثون ان لهم القدرة على توجيهها على غرار ما يفعلونه اليوم بالتقنية .**

والى آمل بالرغم من المخاطر التي قد تواجهنا أن نقوم حراسا وشهودا على هذا الجانب من الواقع الذي يمكن ان نسميه الاعماق والرمز والسر .

صدور العدد الاول من مجلة : « اللسانيات »

اصدر معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر مجلة جديدة بعنوان : « اللسانيات » متخصصة في علم اللسان البشري ، ويديرها الاستاذ عبد الرحمان حاج صالح .

ومجلة « الاصالة » ترحب بالزميلة « اللسانيات » التي ستساهم في ابراز وتقديم الابحاث والنتائج التي حققتها العلوم اللسانية والصوتية ، سواء على المستوى الوطني او على المستوى العالمي وتمكين اللغة العربية من اكتساب وسائل حديثة للتطور واستيعاب علم العصر .

قراءات فى المجلات الانجليزية

اعداد حكمت ياسين

تناولت الصحف الانجليزية والامريكية فى المدة القصيرة الماضية عددا من القضايا والمشاكل العالمية الهامة ، التى طالما كانت مدار الحديث بين رجال السياسة فى مختلف الدول العالمية . وكان بعض هذه القضايا غالبا مايخص بلدان العالم الثالث، ومشاكل تطورها ، وبناء كيانها واقتصادها ، وبعضها يدور حول مشكلة التمييز العنصرى واضطهاد البيض فى امريكا للمواطنين السود ، والنظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء .

وكان من بين المواضيع التى تناولتها الصحافة الانجليزية ، موضوع « المخطط الرباعى » بالجزائر ، فمعلوم ان الجزائر شهدت فى بداية سنة ١٩٧١ حدثا تاريخيا هاما ، ونقطة تحول حاسمة فى طريق البناء والتشييد ، ذلك هو « المخطط الرباعى » الذى رسمته الحكومة الثورية فى الجزائر لرفع اقتصاديات البلاد ، والنهوض بها من حالة التخلف والارتقاء بها الى مصاف الدول المتقدمة ، وهذا ما عبر عنه الرئيس بومدين فى احدى خطبه أن اللحاق بالدول الصناعية ليس شيئا مستحيلا .

فيهدف هذا المخطط الى تصنيع البلاد ، وجعل الصناعة تحتل المرتبة الاولى فى الاقتصاد الوطنى ثم تحسين الزراعة وزيادة الانتاج الزراعى بالاعتماد على الصناعة المتطورة ، وكان لهذا المخطط ردود فعل وطنية ايجابية قوية ، اذ جندت له جميع الطاقات والوسائل للعمل على انجاحه ، وبذل المزيد من الجهود المادية والمعنوية من اجل تحقيقه فى الوقت المحدد ، كما انه أحدث ردود فعل عالمية مختلفة ، فنظرت اليه بعض الدول الصديقة والشقيقة على انه خطوة جبارة اختطتها الجزائر لنفسها ، ومن الممكن أن تكون قدوة لغيرها من دول العالم الثالث ، بينما راحت بعض الاوساط الاستعمارية والامبريالية تقلل من اهميته، وتتشاءم من امكانية تحقيقه ، وفى هذه الاثناء قام الصحفى الانجليزى (شارل هارغروف Charles Hargrove

باجراء مقابلة صحفية مع الرئيس هوارى بومدين، دار الحديث فيها حول هذا المشروع وغيره من القضايا الوطنية والقومية . فكتب شارل هارغروف هذه المقابلة فى احدى الصحف الانجليزية فقال :

عندما دخل الرئيس بومدين الغرفة كان يضع على جسمه الطويل النحيل برنسا اسود ، وكانت ملامحه الصارمة وطريقة تصرفه الدالة على التروى تكشفان عن كرامة وتحفظ اصيلان ، تخفف من حدتهما ابتسامة او ضحكة خفيفة ، ووميض عينين حادين سوداوين .

فسالته : الى اى مدى يعتقد ان المخطط الرباعى للتنمية الاقتصادية الذى بدىء العمل به فى مارس الماضى ، سينجز ؟ .

فاجاب الرئيس بومدين: اذا كنا قررنا وضع المخطط فذلك لاننا نؤمن به . وان اقتناعنا بذلك قد تدعم بان المخطط سينجز ، ليس مئة بالمئة او تسعة وتسعين بالمئة ، ولكنه سينجز ! . ان المشكل الحقيقى يكمن فى نقص الفنيين والاطارات اكثر من المشاكل المالية ، وقد عوضنا هذا النقص فى الوقت الحاضر بخبراء اجانب (المتعاونين) .

وتعانى الفلاحة الجزائرية كذلك نقصا كبيرا فى المسيرين والمدربين، ويستطيع المرء أن يعد عدد المهندسين الزراعيين على اصابع اليد الواحدة غداة الاستقلال ، لكن القدرة الانتاجية قد ازدادت بدرجة ملحوظة تحت المخطط الرباعى ، وفكرت الحكومة فى العمل على رفع الاهداف العظيمة للزراعة ابتداء من العام المقبل .

واننى اعتقد اننا سنكون بعد عشرة سنوات فى وضع يسمح لنا بالقضاء على ظاهرة البطالة ، وامتصاص اكبر عدد ممكن من العمال، لاننا سنقوم ببرنامج بنائى واسع . واننى ارى ان التطور الاقتصادى هو الحل الوحيد للبطالة ، واى حل آخر يعتبر حلا مؤقتا .

وسالته عن مسالة التعريب التى اولتها الحكومة اهتمامات زائدة .

فاجاب : يتكلم بعض الناس عن ثورة ثقافية ، ان هذا يعنى بالنسبة لنا اكتشاف تراثنا الثقافى واللغوى، ان الدولة التى كانت تستعمر بلادنا عملت بكل امكانياتها لتحرمنا لغتنا ، ولهذا فانه يجب علينا ان نعيد الى هذه اللغة مكانتها الشرعية ، ونعمل على اغنائها بالتراث الثقافى العالمى .

ثم سالته عن رايه فى مشكلة فلسطين .

فاجاب : ان الحل الحقيقى هو ان ناخذ فلسطين بحدودها الطبيعية، ويعيش داخلها العرب المسلمون والمسيحيون واليهود ، تعايشا سلميا ، حتى ولو اقتضى ذلك تجريد الجميع من السلاح ، ان التعايش السلمى قد يكون صعبا ولكنه اقل شرا .

ويقول الصحفى الانجليزى اننى انهيت المحادثة مع الرئيس بومدين بالكلام حول العلاقات الانجلو ـ جزائرية فاجاب الرئيس بومدين بانه ليس هناك مشاكل ، اذ ان التجارة الانجليزية تطورت فى الجزائر بقوة .

وحول مشكلة التمييز العنصرى واضطهاد البيض للسود ، واعتبارهم اقل منهم قيمة حتى فى مستوى الذكاء ، الى درجة أن بعض العلماء العنصريين يقولون

بأن الاختلاف والفروق بين البيض والسود ترجع الى عوامل « عرقية » اكثر منها عوامل « بيئية » .

وقد اهتمت المجلات الامريكية والصحف الانجليزية بهذه المشكلة ، وكتبت عدة مقالات تتناول الموضوع من جوانب مختلفة . فقد ظهر فى مجلة « نو امريكان سوسيولوجيكال رفيو » فى العدد الرابع الصادر فى شهر أوت سنة ١٩٧١ مقالا اجتماعيا بقلم الاستاذ روبرت جيبو الاستاذ بجامعة « وسكونسن » بأمريكا ، تحت عنوان :

« التركيب الحضارى والفرق بين السود والبيض » فكتب هذا الاستاذ يقول بأنه اجرى هذه التجربة على عدد كبير من السود الذين تم ادماجهم فى مدن الولايات المتحدة الامريكية ، وقبل ان يبين الاستاذ روبرت العوامل التى تؤثر فى عملية « التماثل » أو الادماج هذه اوضح المعنى الذى يقصده من كلمة « تماثل » ، فهى تعنى مدى استعداد افراد الجنس الاسود لتقبل نفس الجزء من العمل الذى يقوم به افراد الجنس الابيض ، وتعتبر جميع ابعاده المختلفة آفاقا للتنظيم الاجتماعى والحضارى .

ويرى الاستاذ روبرت أن هناك عوامل كثيرة تؤثر فى « تماثل السود مع البيض ، وأن هذه العوامل يؤثر بعضها ببعض بدرجات مختلفة، واهم هذه العوامل هى :

١ ــ الاقامة المحدودة : فهو يرى انه نظرا لاعتبارات كثيرة فان الاقامة المحدودة لها تأثير هام على جميع اشكال التمييز المختلفة ، وان القاعدة المنطقية تقول بأن البقعة المسكونة ذات نتائج على الابعاد المختلفة للتنظيم الحضارى ، ويستشهد برأى الاستاذ « هاولى Hawley » الذى يقول بأن اقامة مجموعة من الناس وحدها فى منطقة منعزلة عن غيرها تشجع تمايز واختلاف الخصائص الثقافية وتزيد من ظهورها، بحيث تصبح هذه المجموعة هدفا سهلا للتفرقة التى من شأنها أن تنتج تمييزا كبيرا . وقد اثبتت بهر Bahr وجيبس Gibbs اثر الاقامة المحدودة فى زيادة التفرقة بين السود والبيض فى نواحى الدخل والتعليم والعمل .

٢ ــ نسبة عدد السكان السود : ولتوضيح العلاقة بين نسبة عدد السود والتمييز ثم اللجوء الى استعمال وسيلتين هما المنافسة والاستغلال . فيرى البيض ان تزايد السكان السود يشكل تهديدا منافسا لهم فى الوظيفة والدخل ، ولهذا فان ازدياد حجم السكان السود يزيد من امكانية استغلال البيض لهم ، وذلك لانه عندما يكون عددهم كبيرا فانهم يضطرون للعمل بأجور منخفضة فى وظائف لا يرغبها البيض .

وهناك أيضا النشاط الصناعى ، والمنطقة ، ومعدل زيادة السكان تعتبر عوامل مؤثرة فى التمييز بين البيض والسود .

وحول نفس الموضوع نشرت جريدة ديلى تلغراف « Daily Telegraph. » اللندنية فى اول نوفمبر ١٩٧١ مقالا للاستاذ « جون ازبيكى John Izbicki » تحت عنوان **« السود افضل من البيض فى التعلم بالطريقة الببغاوية »** . وقد كان هذا المقال قد نشر فى مجلة الابحاث التربوية ، للمعهد

الوطنى للابحاث التربوية ، بقلم الاستاذ آرثر جنس عالم النفس الامريكى بجامعة كالفورنيا . وقد كتب هذا العالم يقول : ان الزنوج ذوى الذكاء المنخفض افضل من البيض من نفس الذكاء فى التعلم الببغاوى اى التكرارى . وان هذا العالم المشهور بعنصريته لم يتراجع عن نظريته القديمة التى تقول بان فروق الذكاء بين السود والبيض هى فى الاصل فروق « عرقية » اكثر منها «بيئية» وهو يرى ان المدارس التى تريد المساواة فى فرص التعليم انما تخدع اطفال المجموعات الاقلية . وقد علق احدمدراء مدارس لندن الذى ربع تلاميذ مدرسته من المهاجرين على هذا المقال بقوله بانه يمكن ان يخلق نظرية مزيفة وجد مخزية فى الاحترام العلمى ، ويمكن ان تخلق النتيجة نوع من مدارس « عفريتة القبطان » لجميع الملونين كما هو الحال فى الولايات المتحدة الامريكية .

وحول مشكلة دخول الصين الى هيئة الامم المتحدة : فقد احدث دخول الصين الشعبية الى هيئة الامم المتحدة ردود فعل عالمية مختلفة ، وكانت مدار الحديث بين رجال السياسة ومحور الكتابات فى المجلات والصحف العالمية ، وقد تناولت الصحافة الانجليزية هى الاخرى هذه المشكلة ، وهكذا فقد نشرت « جريدة الغاردن The Gardian اللندنية فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٧١ مقالا للسيد جون الكسندر John Alexander نائب رئيس جمعية الامم المتحدة ، تحت عنوان « الصين ، الدولة اللعبة » قال فيه : لقد ترددت اقوال انفعالية عاطفية حول مسالة تغيير تمثيل الصين ، فى الامم المتحدة ، وتستند جميعها على ادعاءات غير صحيحة مرتبطة احيانا بالخوف من احتمال ظهور مشكلة مسبقة ، غير ان هذا تقويم خاطىء للنتائج السليمة .

ان المشكلة موجودة قبل انتوجد الامم المتحدة نفسها فمنذ الانتصار الشيوعى على ارض الصين الام ، من هو الذى سيمثل شرعيا دولة الصين (ليس تايوان وحدها ، او الصين الام وحدها ، ولكن الامة الصينية الواحدة) فى اسرة الامم المتحدة .

ان من الانصاف القول بأن هذا العمل هو المخرج الوحيد الذى اتفقت عليه الحكومتان المتنافستان (جمهورية الصين فى تايوان وجمهورية الصين الشعبية فى بكين) التى تطالب كل منهما بحق حكم امة الصين الواحدة . لقد حلت المشكلة لصالح جمهورية الصين الشعبية بعد عشرين سنة من سوء التمثيل ، ورغم الاجراءاتالهزلية والضغوط التى كانت تمارسها بعض الدول لا سيما الولايات المتحدة الامريكية وراء الكواليس لتثبيت وضع تايوان . ان حضور وفد بكين قد يسبب بعض المشاكل فى مجلس الامن وهيئات الامم المتحدةالاخرى خاصة بالنسبة لدول الغرب . ولكن بالنسبة لشديدى الشغف لهذا المارد المجهول (الصين الشعبية) والذين يشعرون أن الامم المتحدة يمكنها الآن ، والان فقط ان تبدا لتجعل من نفسها «أداة فعلية للسلام» على اساس العضوية العالمية ــ فان هذا العمل

خطوة ايجابية مرضية فى الاتجاه الصحيح ، ومن المؤكد انها جعلت الامم المتحدة مرآة حقيقية للعالم الحديث بتمثيلها ربع البشرية فى الامم المتحدة من قبل حكومتهم الفعلية مهما كانت ايديولوجيتها .

وعلى كل حال فقد ظهر بسبب هذا القرار مشكلتان لا تزالان بدون حل وهما : مستقبل تايوان ، والازمة المالية للامم المتحدة .

اما بالنسبة لمشكلة تايوان فاننى اعتقد انها ستحل نفسها بنفسها عند موت تشنغكاى شيك ، او باجراء استفتاء يقرر فيه شعب تايوان بحرية مصيره ، فاما أن يجدد علاقاته مع الصين الشعبية واما ان يبقى دولة منفصلة عنها .

اما مشكلة ضمان مالية الامم المتحدة فانها اكثر الحاحا . وبالرغم من التهديدات الامريكية بتخفيض مساهمتها فى ميزانية الامم المتحدة (شىء محزن) ، وخاصة انها تنبعث منفشل السياسة الامريكية ، فان هذه المساهمات القليلة فى هذه المسيرة الطويلة لايمكن اعتبارها غير مرغوب فيها، ذلك انهمن الصعب جداً ان تعتمد الامم المتحدة الى درجة كبيرة فى الناحيةالمالية على عضو واحد (٣٣ ٪ من ميزانية الام مالمتحدة ، و ٤٤ ٪ من ميزانية الوكالات المتخصصة) .

ولهذا فانه يجب على جميع اعضاء الامم المتحدة ، أن لا يولوا اهتمامهم فيما اذا كانت الامم المتحدة تنفق ميزانيتها بطريقة مفيدة فحسب ، بل ايضا (وهذا اكثر اهمية فى رايى) فيما اذا كانت هذه الميزانية كافية تماما لدفع أجور الوظائف المتعددة التى تطلب الدول الاعضاء ايجادها فى الامم المتحدة .

وفى مجال الطب والاختراعات الطبية ، كتبتمجلة نيوزويك الامريكية فى عددها الصادر يوم ٦ ديسمبر ١٩٧١ مقالا حول آخر الاختراعات التى تعمل على ازالة غموض مهنة الطب ، وجعلها فى متناول جميع الافراد . وكان المقال بعنوان « افحص نفسك بنفسك » .

اعتاد الناس أن يعتبروا الطب فنا غامضا ، لا يعلم اسراره الا الاشخاص الذين يحملون الحرفين السحريين د . ط (M.D.) بعد اسمائهم . غير ان هذا الخوف بدأ يتلاشى شيئا فشيئا ، وبدأ الالاف من أبناء الولايات المتحدة الامريكية يشترون (الصندوق ـ العداد) الذىيجعلهم قادرين على ان يجروا فى منازلهم الخاصة بعض الفحوص الطبية البسيطة مثل : تشخيص حالات الحمل ، وقياس ضغط الدم .

وفى الحقيقة فان جهاز « افحص نفسك بنفسك » يعتبر حاليا عملا ثوريا فى ميدان الطب ، حيث انه يستطيع على سبيل المثال قياس مستوى الجلوكوز بعد وجبات الاكل عند المصابين بمرض السكر .

ان كثيرا من الاطباء يوصون مرضاهم ذوى التاثر السريع باستعمال قربة بسيطة لقياس ضغط الدم ، غير أن الدكتور وليام باركلى رئيس الجمعية الطبية الامريكية يقول بأن الطبيب والمريض كانا يشتركان فى هذه العملية معا ، أما الان فان المريض يفحص نفسه بدون مساعدة الطبيب ، وليس هناك ما يوحى بوجود ضرر من جراء ذلك .

وافضل ما فى الامر هو ان المئات من اجهزة الفحص الذاتى هى الآن اما فى عداد

البيع ، واما فى طريقها الى المستودعات . ومن بين هذه الاجهزة :

١ — اوقا OVA III :

وهو جهاز اولي لفحص حالة الحمل ، وبناء على تعليمات مختبر فردى فى مدينة هلسايد، المتكفل بصناعته، فان الفحص يشتمل على : اضافة البول الى قارورتين فيهما مادتان كيماويتان ، ثم يقارن لونى القارورتين ، ومنه يمكن معرفة ما اذا كانت المراة حاملا ام لا . وقد اثبتت الفحوص التى اجريت على ١٠٠٠ امراة ان جهاز اوقا ٣ مضبوط بنسبة ٩٦٫٥ بالمائة . وعلى اى حال فقد اوصى مختبر فردى زبائنه بعدم اجراء الفحص الا بعد اخذ نصائح الطبيب .

٢ — سيرز Sears :

وهو جهاز لقياس ضغط الدم . وتجرى العملية بأن يضع المريض قربة (وعاء مطاطى) حول ذراعه ويكيفها جيدا ثم ينتظر ، وفى هذه الاثناء يلتقط جهاز مكرفون صغيرموجود داخل القربة ضربات ضغط الدم ويسجلها الكترونيا . غير ان هذه الاجهزة ليست سهلة الاستعمال ، اذ انه لا يستطيع معرفة النتائج الا طبيب ماهر متخصص .

٣ — جهاز فحص الاخصاب Fertility Testor

وهو جهاز من انتاج مخابر وستون بمدينة اوتاوا ، وهو يبين فيما اذا كانت المراة فى حالة الاخصاب . ويعتمد فى عمله على كون الجلوكوز يظهر فى المهبل اما قبل عملية الاخصاب (التبويض) مباشرة ، او اثناءها . ويتالف من شريط يتغير لونه بفعل الجلوكوز. ولاجراء الفحص تدخل المراة هذا الشريط فى مهبلها فاذا ظهر فيه اى اثر للون الازرق ، فان ذلك يعنى ان المراة فى عادتها الشهرية حيث يمكنها ان تحمل .

٤ — اجهزة بابت — بيبت « Panette Pipette » :

وهو جهاز يساعد على تشخيص واكتشاف اضطراب الرحم . ويتالف من « واضع » يضع محلولا كيماويا فىمهبل المراة ، ومن « شفاط » يمتص المحلول بعد ان يكون قد غسل جميع خلايا المهبل ، ويرسل المحلول بعد ذلك الى المختبر للفحص . ان المزية الرئيسية لمثل هذه الفحوص والاجهزة انها سهلة جدا للفهم والعمل ، وهذا ما يسمح باستعمالها حتى من طرف الناس غير المتدربين . ولكن هذه البساطة نفسها هى التى اوجدت الخوف عند كثير من الاطباء . فقد قال الدكتور داڤيد فوركوش مدير مستشفى فوركوشى فى شيكاغو : « ان اجهزة باب سميرز رائعة ، ولكنها لا تخبرك ما فيه الكفاية عن بعض الاشياء التى يبحث عنها الطبيب عندما يجرى فحصا داخليا على امراة . ومن الممكن ان توجد بعض الامراض التى لا يمكن تشخيصها الا بفحوص ادق . »

ونفس هذا الانتقاد وجه الى جهاز قياسى الضغط ، فرغم ان ادوات سيرز تقيس كلا من ضغط انقباض القلب ، وضغط تمدد القلب الا ان هناك اجهزة لا تقيس الا ضغط انقباض القلب . غير ان اخطر ما قد يواجه المريض هو امكانية اجراء تشخيص خاطىء للمرض معتمدا بذلك على المعلومات التى حصل عليها من جهاز افحص نفسك بنفسك . فمثلا فان نتيجة خاطئة لعملية « فحص الحمل » المنزلى، من الممكن ان تؤدى الى صدمة عاطفية ، ووقوع عملية اجهاض غير ضرورية

وحول هذه الاضرار المحتملة قال الدكتور باركلى : فى الايام التى سيصبح فيها الاطباء ، والفحوص الطبية غير مضرين ، فلن تكون هناك نتائج غير النصب والخداع . ولكن لسوء الحظ فان اخطاءنا فى التشخيص والعلاج قوية وخطيرة . وفى حالة الحصول على نتائج غير صحيحة فسيواجه المريض ازمة مالية وصحية .

ويقوم مكتب ادارة التغذية والتموين (FDA) باعداد مشروع لتطوير بعض الاجراءات الجديدة لتنظيم عملية تدفق اجهزة الفحص الطبى الذاتى الى السوق . وقد قال الدكتور هنرى سيمونس مدير مكاتب ادارة التغذية والتموين : انه من المهم جدا ان نؤكد دقة وتعقيد هذه المخترعات البسيطة ، لانها تؤثر على الفحص وتوصل الى العلاج الصحيح .

ثم كتبت المجلة نفسها بعد هذا المقال مباشرة مقالا صغيرا بعنوان « فيتامين « س » موضوع حوار » .

واجه عالم الكيمياء الحيوية المستر لينوس بولنغ ، هجومات كثيرة من طرف الاطباء من جميع الانحاء عندما نادى فى الشتاء الماضى بوجوب استعمال كميات كبيرة من فيتامين « س » كوسيلة فعالة ضد البرد العام . واثبتت الانتقادات الموجهة اليه بأن الدراسات التى اعتمد عليها فى تصريحاته حول فيتامين « س » تمت بدون مراقبته الشخصية ، ولم تكن كافية للاقناع . غير انه رغم انتقادات معظم الاطباء فان الملايين من سكان الولايات المتحدة الامريكية اخذوا بنصيحة بولنغ وبدأوا فى الحال يشترون فيتامين « س » .

والآن مع عودة البرد ، والانفلونزا ، اخذ الناس يستهلكون كميات كبيرة من فيتامين « س » حتى أن الصيادلة اعلنوا فى كثير من المناطق ان الطلب لفيتامين « س » مرتفع جدا الى درجة انهم اصبحوا يواجهون اضطرابات فى تخزينه .

وعلى كل حال ، فقد اجريت فى جامعة مارى لاندى دراسات حديثة على فيتامين « س » فاظهرت بعض الايضاحات الاكلينيكية المخالفة للنتائج التى توصل اليها بولنغ . ولكى يختبروا فعالية فيتامين « س » قام الدكتور شوارتز والدكتور ريتشارد هورنيك باجراء تجربة على مجموعتين من الاشخاص ، فقدموا لكل فرد من افراد المجموعة الاولى (احد عشر طالبا) مقدار ٣ غم فيتامين (س) يوميا ولمدة اسبوعين ، وقدموا لافراد المجموعة الثانية (عشر طلاب) اقراص بليسبوس

ثم بعد ذلك اعطى الاطباء جميع هؤلاء الاشخاص (٢١ طالبا) جرعات تحتوى على مائة جرثومة من الجراثيم التى تسبب البرد العام، وتابعوا تناول فيتامين « سى » واقراص بليسبوس لمدة اسبوع اخر . ولكن بعد يوم او يومين من التطعيم بجرعات الجراثيم ظهرت علامات البرد على الاحدى والعشرين (٢١) شخصا ، منها سيلان المخاط من الانف وبحة الحنجرة ، والسعال. وصرح أطباء مارى لاند بأنه لم يظهر اى فرق فى شدة او مدة المرض بين الاشخاص الذين تناولوا فيتامين «س» والذين تناولوا اقراص بليسبوس .

وخلص الدكتور شوارتز والدكتور هورنيك من هذه التجربة بان فيتامين « س » ليس له فعالية ابدا ضد البرد . واضاف الدكتور

شوارتز بأنه رغم هذا فان الناس الذين يعتقدون بأن فيتامين « س » يشفى ويزيل البرد ، سيتابعون استعماله دون الالتفات الى النتائج العلمية ، وخاصة ابناء الولايات المتحدة الذين تدوس متطلباتهم العاطفية جميع الحقائق العلمية .

وفى هذه الاثناء قام مكتب ادارة التغذية والتموين بتطبيق مراقبة صارمة على هوس (ولع) الناس بفيتامين وقد رفض فى الشهر الماضى مقدار تسعة ملايين قرص من اقراص فيتامين س .

واعلنت الوكالة باندهاش ان هذه هى المرة الرابعة عشرة التى يقدم فيها المكتب على مثل هذا العمل ، منذ شهر ماى الاخير وقد بلغ عدد الاقراص التى شملها الرفض ١٠٥ ملايين قرص . وقد كانت الاقراص التى شملها الرفض الاخير نوع من فيتامين « س » يدعى « اسكوربيت الصوديوم » . حيث انه رغم ان وجود الصوديوم مفيد لكثير من الناس ، الا انه مضر بالاشخاص المصابين بمرض القلب او بارتفاع ضغط الدم . وقد اثبت الدكتور رالف موما ان نبضات ضغط الدم عند الفئران تزداد بشكل ملحوظ عند اعطائها ويعتبر هذا الارتفاع فى نبضات الضغط احدى العوامل الرئيسية لمرض القلب وهذا اشد خطورة من البرد العام .

باري ماتش تشبه وباء الكوليرا الذى يجتاح العالم بجنود محمد الفاتحين

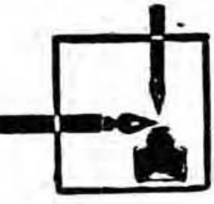
كتب ريمون كارتيى فى عدد باري ماتش الـ ١١٦١ بتاريخ ٧ غشت الحالى مقالا (ص ٢٦)تحت عنوان وباء الكوليرا يغزو افريقياويهدد العالم منطلقا من اندونيسيا . فساءنى ما قرأته لهذا الكاتب الفرنسى . قال : ان الكوليرا اكتشفت بمحض الصدفة سنة ١٩٠٥ اصيب بها حاج من مكة المكرمة . ولقد ترعرع داء الكوليرا فى اندونيسيا المسلمة ومن ثم انطلق سنة ١٩٦١ كانطلاقة جنود محمد (صلعم) الفاتحين . وبدا يغزو العالم دائما مثل جنود محمد الخ ..

حاول كارتين بهذا الطعن فينا تشبيه الفتح الاسلامى الذى وقف عند حدود جبال البرانس بداء الكوليرا الذى وصل الى عين المكان .

وانه لمن الحيف نترك مثل هذه المقالات الشنعاء تدخل بلادنا وتسمم عقول شبابنا ولانبالى بها البتة .

احمد والشانى عناية

ندوة القراء



اعداد : بهيــة عمرانى

نوجه « الندوة » عناية السادة القراء الى ان انتظامظهورها فى الصفحات الاخيرة من المجلة يبدو امرا قريب الاحتمال ، اذ ان هناك عددا من الرسائل التى ترد الى المجلة والتى يتعدى مضمونها مجرد التحية وعلى هــذا فالمرجو من كتاب « الندوة » مراعــاة ارســال الاراءوالتعليقات فى موعد يناسب صدور العدد الذى يتــوقع او يطلب صاحب الرسالة نشرها فيه .

تلقينا هذه الرسالة من الاستاذدنس ووتر المحاضر فى دائــرة : دراســات الــشرق الاوسط ــجامعة ملبورن باستراليا
ونحن اذ نشكره على الكلماتالودية التى ضمنها فى رسالته ، وننوه بالجهود العلمية التي يبذلهاللتعــريف بالجــزائر وبالتــراث الاسلامى عامة ، نرحب بكل مقاليبعثه الينا، وسننشره فى المجلة.
المحــرر

السيد رئيس تحرير مجلــــة الاصالة

سيدى المحترم

تحية اسلامية طيبة وبعد فى هذا اليــوم استلمت اول عدد من مجلتكم الغراء ، فشكرا على ذلك .

انى قد نظرت فيها نظـــــرا متسرعا فوجدتها جيدة ، عاليــة المستوى والمضمون ، وانها تلقى انوارا ثاقبة على الجزائر المستقلة ــ تلك البلاد العزيزة على كــل مسلم وكل من يناضل فى العــالم الثالث فى سبيل التحرر والمــاواة

« انى محــــاضر فى دائــــرة دراســات الشرق الاوسـط جامعة ملبورن استراليا . محاضرتى فى مادتين ــ « **الاسلام اليوم** » و « **انظمة الاسلام الاجتماعية** » . ففى مــادة « الاســلام اليــوم » أحاول عــرض تــاريخ البلــدان الاسلامية الحديث على تلامذتى الاستــراليــين واعطاءهم صورة مباشرة اى وجدانية من مقــاومة المسلمين للاستعمــار الغربى ، ونضــالهم فى سبيــل التحــرر ، وآمالهم ومشاكلهم فى عهد ما بعد الاستقلال ، فمنذ اسبوع فقــط القيت محاضرة مستفيضــة تحت عنوان « **ولادة القومية العربية فى الجزائر بعد الحرب العــالمية الاولى** » التى تناولت فيها اعمال عبد الحميد بن باديس فى بعــث العربية وقيم العروبــة والاسلام مرة اخرى فى ابناء الوطن مقاومة لمشاريع الادماج الاثمة واضطهاد واستغلال المستعمرينوالمستوطنين « انى الان أنشر مقالتى هــذه فى صحيفة طلابية استراليــة ، وسأرسل نسخة اليكم ان شاء الله .

أسألكم ان تتكرموا بطبـــع رسالتى هذه فى مجلتكم كى يعرف القراء الجزائريون مستــــوى الدراســـات حــول بــلادهم فى استرالية . وارجوكم ان تمضوا فى ارسال مجلتكم الى ، وان شاء الله سابعث بمقالات عربية لعلكم تنشرونها .

كلمتــى الى مجلة « الاصــالــة »

....وهذه رسالة من الاستــاذ محمد ولد باباه الذى عين اخيــرا وزيرا للتعليم العالى لجمهــورية مــوريطـــانيـــا والـــذى شـــارك فى المـؤتمــر الخامس للتعرف على الفكــر الاســلامى بوهران بصفته ممثلا لموريطـــانيا

اننى ، عندما أراجع نفسى وأحاول استحضــار ما رأيتــه وسمعته فى « الملتقى الخـــامس للتعرف على الفكر الاسلامى » ، ارانى عاجزا كل العجز عــن ترتيب أفكارى وتسديد انطباعاتى ذلك اننى مــا زلت فى نشـــوة الغبطة والاعتزاز والاعجاب .

والحقيقة ان حشدا فكريـــا كالذى شاهدته فى « وهــران » لا يمكن لانســان ان يستوعبه ولا يستطيع ان يحكم عليه الا بعد المراجعــة الدقيقــة والتــأمــل الطويل .

غير ان هناك اشياء استرعت انتباهى ، قد تكون بديهية لدى البعض ، وقد تكون سطحيــة بالنسبــة للــذين سبــق لهم ان شاركوا فى الملتقيات الماضيــة، بينما أنا اراها بالغة الاهميــة :

منها دقة التنظيم وحسن ترتيب العمل والتحكم فى الزمن ، بغض النظر عن حسن الضيافة وتوفير وسائل الراحة للجميع ، ومنها ايضا حرية المناقشة وصراحتها وموضوعيتها ، فى اتجاه نقدى واسلوب علمى ، كل ذلك فى جو ودى يهيمن عليه الجد والوقار .

وملاحظة اخرى أرى من واجبى أن اسجلها فى حق الطلبة والطالبات المشاركين فى الملتقى، ان قوة انتباههم وانضباطهم ومحافظتهم على النظام وسلوكهم القيم لا يتأتى لكثير من شباب اليوم . ودهشت لما رايت فيهم من تعطش للمعرفة ، ودقة فى الملاحظة ، ونضج فى التفكير وتكامل فى الشخصية واقدام على الخوض الواعى فى دقائق العلوم وتفهم لاوضاع أمتهم ، واستطيع ان اقول ، بحكم التجربة والممارسة ، ان هذه الخصائص يتميزون بها عن زملائهم الذين لم يتشبعوا بالثقافة الاسلامية وهذا استنتاج خطير يلفت الانظار

اما ابعاد الملتقى فهى بالغة الاهمية بالنسبة للجزائر والعالم الاسلامى بأسره ، ان اقتراحات الملتقى وتوصياته ستكون لها نتائج محمودة وأصداء بعيدة المدى .

لكن الملتقى فى ذاته هو تحدى لتحديات عديدة كنا وما زلنا هدفا لها نحن المسلمين، تغزونا فى عقر دارنا وتهتك حرمنا . وكان لابد من التصدى لها والرد عليها بحجج العقل وادلة المنطق ، وجاء الملتقى شافيا كافيا فى هذا المضمار . واستهدف الملتقى شيئا آخر أهم فى نظرى من الرد على التحديات الموجهة الينا ، الا وهو ابراز حقيقة اكيدة لابد من الايمان بها والعمل على اساسها، وهى أن بناء مجتمع عربى اسلامى جديد منوط بربط ماضيه بحاضره والاعتماد على مقوماته الجوهرية : دين الاسلام والثقافة العربية .

واكد الملتقى علميا أن فى الاسلام الصحيح ، دينا وشريعة ، من المبادىء السامية والقواعد التشريعية المرنة ، ما يبرر اى اجراء ، سياسى كان أو اجتماعى او اقتصادى ، اذا كان هذا الاجراء يهدف الى بناء مجتمع متكامل تسوده المساواة والتعاضد وينعم بالحرية والكرامة ، يكفى دليلا على ذلك نظام الاسرة الجزائرى والاصلاح الزراعى . وبهذا يكون الملتقى ابرز حقيقة جليلة طال ما طغت عليها الشبهات الباطلة والاراء المغرضة القائلة بأن الاسلام جامد وعاجز عن مسايرة متطلبات العصر . والبحوث العلمية التى استمعنا اليها وناقشناها بحرية، تناولت جميع مشاكل العصر ، اخطرها وادقها ، واستعرضت جميع الحلول المحتملة لها ، فكان الاسلام اقوم مسلك وانجع طريق لاثارة تلك المشاكل والبت فيها على الصواب الاقوم . وبرهنت البحوث كذلك على أن اللغة العربية تستجيب بكل طواعية وسلاسة ومرونة لمتطلبات العصر فى أدق مفاهيمها ، سواء كانت علمية أو فلسفية او وجدانية

فالملتقى اذن كان ملتقى الاصالة الصميمة وملتقى الثورة باكمل واسمى معانيها . ان العودة الى منبع الاسلام الصحيح والانطلاق منه الى نور العلم والاخذ بأسباب الحضارة هو المنهج الذى شرعه ملتقى « وهران » للامة العربية الاسلامية ، عساها أن تسلك هذا الطريق بخطى ثابتة وقلب مؤمن وعزم صارم .

محمد ولد باباه

ذكرى كارثة المسجد الاقضى وفلسطين

من شعر .. « ابى الحسن على »استاذ بتكميلية ابن عمر — القبة

على المسجد الاقصى اعتدى اليوم غادر   واضرم فيه النار باغ وماكر
حريق ويا للهول شب اواره   فخرت على جمر الغضاة منابر
تداعت له الاركان والسقف قد هوى   فشقت لهول الاعتداء المرائر
حريق أباد اليوم وجه حضارة   يباهى بها تاريخنا ويفاخر
فيا لك من حسناء راحت ضحية   على شلوها قامت تنوح المنائر
بغى وطغى صهيون طغيانه الذى   تعوده من قبل وهو مفاخر
على مسمع الدنيا ومرأى شعوبها اسـ   تباح حمى الاسلام والسلم فاجر
وراحت عصابات اليهود تهين ما   تقدسه الاديان باد وحاضر
االسنة النيران تمتد فى الفضا   وموشى قرير العين بالعرب ساخر!
فبات على جمر الغضا كل مسلم   ونامت بأحلام المسرات ماير
سلوا سنوات الاحتلال التى مضت   بأرزائها ، والجد بالعرب عاثر
سلو دير ياسين الذى شهد البلا   وقد عملت فيه المدى والخناجر
اما ذبحت اطفاله ونساؤه   وشبابه حتى الشيوخ الاكابر
سلو فى خيام اللاجئين طوائفا   من التعسا ، اين الصديق المناصر!
فكم من شكاوى سجلت بدموعهم   وكم نشرت للاحتجاج دفاتر
فكلت بسجيل الشكاوى مطابع   وبحت برفع الاحتجاج حناجر
سلو خامسا من شهر يونيو وما جرى   اليس لديه للجواب مصادر !
اما ملئت بالابرياء شجونهم   وضاقت بأشلاء الضحايا مقابر !
ففى كل يوم نكبة ورزية   وفى كل شبر بالدماء مزاجر
وصهيون وسينا وجولان عابث   وفى القدس مختال وناه وآمر
فلا عجب ان أحرقوا اليوم مسجدا   اليس لديهم تستباح المناكر !
الم يقتلوا رسلا كراما وما ارعووا   وهل ترعوى من غيهن الفواجر !